جـامـعـة الـشـرق الأوسـط
MEU MIDDLE EAST UNIVERSITY

فنّ الخطابة في العصرين الأيّوبي والمملوكي الأوّل
دراسة تحليلية أدبية

The Art of Oratory in the Eyyubid and First Memluk Ages: An Analytical literary Study

إعداد الطالب

عامر فتحي محمد الشيخ أحمد

إشراف الأستاذ الدكتور

سعود محمود عبد الجابر

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلّبات الحصول على درجة الماجستير
في تخصص اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم– قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الشرق الأوسط

أيار 2015

تفويض

أنا **عامر فتحي محمد الشيخ أحمد** أفوّض جامعة الشرق الأوسط بتزويد نسخ من رسالتي ورقيًا والكترونيًا للمكتبات، أو المنظّمات، أو الهيئات والمؤسسات المعنيّة بالأبحاث والدراسات العلميّة عند طلبها.

الاسم: عامر فتحي محمد الشيخ أحمد.

التاريخ: 24/ 5/ 2015م

التوقيع: ....

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة "فنّ الخطابة في العصرين الأيّوبي والمملوكي الأوّل : دراسة تحليلية أدبية" وأجيزت بتاريخ: ٢٤/٥/ 2015.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الاستاذ الدكتور سعود محمود عبد الجابر، مشرفا دكتور في الأدب والنقد	....
الأستاذ الدكتور عماد الخطيب ، عضواً أستاذ دكتور في النقد الأدبي الحديث	....
الدكتور حسين كتانة ، عضواً أستاذ مشارك في اللغة والبلاغة	....

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين... أحمده حمداً طيبياً مباركاً على ما أنعم وتفضّــل... وأصلِّ وأسلم على رسول الهدى، وإمام التّقى، وسيّد المجاهدين، وآخــر المرســلين سيّدنا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم.

بعد أن منّ الله تعالى عليّ بهذا العمل المتواضع، أجد من الواجب علــيّ أن أسند الفضل إلى أهله عرفانا ووفاء، وأن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان والامتنان إلى **الاستاذ الدكتور سعود محمود عبد الجابر** الذي أشرف على إعداد هذه الرسالة وكان خير مثال للعالم صاحب الخلق الرفيع والمعرفة الجمّة ،كما أنّي أتقدّم بالشكر لأساتذة قسم اللغة العربيّة في جامعة الشرق الأوسط على جهودهم الحثيثة فــي نشــر لغــة الضادّ وإنزالها المكانة الّتي تستحقّها،وهم: الأستاذ **الدّكتور عبد الرؤوف زهــدي** و الأستاذ الدكتور **بسّام قطوس** والدكتورة **شذى جــرّار** والــدكتورة **جمانــة السّــالم** والدكتور **حسين كتانة** والدكتور **سالم الأقطش**.

وأجد لزاما عليّ أن أقدّم الشكر الموصول أيضا لمعهد قاصد ممثّلا بإدارتــه الكريمة وفي مقدّمتهم المدير العام: **الأستاذ عمر متدار** الذي كان خير معين علــى

التّحصيل العلميّ والخروج بهذا العمل الأدبيّ،**والدكتور خالد أبو عمشة** الّذي كـــان خير صديق ومشجّع على إتمام هذا العمل.

الإهداء

إلى والدي العزيز الذي كان ملهما لي في هذا العمل بالحديث عن القدس وفلسطين

الوالد العزيز

إلى والدتي الحنونة الّتي ما آلت جهدا في تشجيعي على التحصيل العلمي والدّراسة

الوالدة الحنونة

إلى رفيقة دربي الّتي شاطرتني السّهر والكدّ وترقّب نور الأمل

زوجتي العزيزة

إلى إخواني وأهلي وزملائي الأوفياء

و

الباحث

فهرس المحتويات

قائمة الملاحق

فنّ الخطابة في العصرين الأيّوبي والمملوكي الاوّل
دراسة تحليلية أدبيّة

إعداد:

عامر فتحي الشيخ أحمد

المشرف الأستاذ الدكتور: سعود محمود عبد الجابر

الملخّص

تهدف هذه الدّراسة إلى تسليط الضوء على فنّ الخطابة في العصرين الأيّوبيّ والمملوكي الأوّل واللذين لم يحظيا بدراسة خاصّة لفنّ الخطابة تتناول الكشف عن منزلة هذا الفنّ بين الفنون النّثريّة الأخرى، من خلال القيام بعمليّة بحث استقصائيّة عن هذه النّصوص،تتبعهاعمليّة ترتيب وتنظيم للنّصوص وفق الأحداث التّاريخيّة المفصليّة الّتي لعبت دورا كبيرا في تشكيل هذه النّصوص، كما أنّ الباحث لم يغفل دور العوامل الاجتماعيّة والعلميّة والدّينيّة فيها،ومن ثمّ القيام بتحليل أدبي لغويٍّ لهذه النّصوص يكشف عن الصّور البلاغيّة والسّمات الفنِّيَّة والأساليب اللّغويّة الّتي عملت على إعطاء هذ النّصوص قيمة أدبيّة فنيّة.

وقد قسّمت هذه الدراسة إلى خمسة فصول، تناول الفصل الأوّل الحديث عن مقدمة الدراسة وأهميّتها ومحدداتها، والحياة السياسيّة والعسكريّة في العصرين الأيّوبيّ والمملوكي الأوّل، والحياة العلميّة في العصرين مع التّركيز على التطوّر والازدهار الّذي شهده العصران في معظم العلوم والمعارف،لاسيّما الدينيّة منها والأدبيّة.

أمّا الفصل الثاني فشمل: تعريف الخطابة لغة واصطلاحا،وأهميّة الخطابة وبيان أركانها وبنائها الفنّيّ،ثمّ قام الباحث بعقد مقارنة أدبية بين الوعظ الدّينيّ والخطابة عارضا لبعض مجريات مجالس الوعظ الّتي كانت تمارس في العصرين.

والفصل الثالث خصّصه الباحث للكلام عن الخطابة في العصر الأيّوبيّ، حيث تضمّن: عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأيّوبيّ ودواعيها،وأشهر خطباء هذا العصر،ونماذج لألوان

الخطابة المختلفة الّتي مورست في هذا العصر،وعرض سريع لأهمّ السّمات الفنيّة للخطابة بألوانها المختلفة في العصر الأيوبيّ.

وتناول الفصل الرابع الحديث عن الخطابة في العصر المملوكي من حيث: دواعيها وأشهر خطباء العصر ونماذج من خطب العصر، والسّمات الفنيّة والأدبيّة لها.

وتمّ في الفصل الخامس تناول خطبتين بالتّحليل الأدبي اللّغوي، إحداهما من العصر الأيّوبيّ والأخرى من العصر المملوكي الأوّل،والّذي ركّز على الشّكل والمضمون من حيث:البناء الفنّيّ والصّور البيانيّة والمحسّنات البديعيّة وفصاحة الألفاظ والتّراكيب اللغويّة.ومن ثمّ تمّ إدراج النتائج والتّوصيات وقائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحيّة : فن الخطابة في العصر الأيوبيّ ، فن الخطابة في العصر المملوكيّ.

The Art of Oratory in the Eyyubid and First Memluk Ages

An Analytical literary Study

By

Amer Fathi Al-shikh Ahmed

Supervisor

Prof. Saoud Mahmoud Abd-Aljabar

ABSTRACT

The study aims at shedding the light on the art of oratory in the Eyyubid and first Memluk ages. This due to the lack of study in the art of oratory in both ages. This study aims at identifying the rank of this art to other prose arts. The study obtained suervey method, within a chronological order upon the historical events that played a role in constructing theses texts. The researcher has overviewed the role of social , scientific, and religoue factores in. Then, the study analysed these texts literary –lingusiticallt to figuer out the metahporas and literal devices that used to give them artistic value of literature.

The thesis has divided into five chapters. The first chapter discusses the introduction of the study, its importance, its determinants, political, military and scientific life of Eyyubid and first Memluk ages with a focus on the development and flowrishing that witnessed alas both ages in most sciences and knowledges, especially literary and religious ones.

The second chapter includes: the definition of public speaking idiomatically, the importance of public speaking and the statement of the technical elements and construction, then conducting a comparison

between literary and religious preaching and public speaking which practiced in the eras.

The third chapter was established to talk about public speaking in the Ayyubid period, included: the factors of public speaking flourishing in the Ayyubid period and its reasons. Then the study shows the famous preachers in that age, models on the different colors of the public speaking that have been practiced in that age, as well, showing of the most important technical features of the public speaking in the Ayyubid period..

The fourth chapter includes the public speaking in the Mamluk era in terms of: the reasons, famous preachers of that age, and models of speeches in that Age, and artistic literary features.

The fifth chapter dealt with two public speeches that were literary analyzed: one from the Ayyubid period and the other from the first Mamluk era, which focused on the form and content in terms of: the technical construction and imagery and eloquence words and linguistic terms compositions. Then the study included findings, recommendations and a list of references.

Key words: **The Art of Oratory in the Eyyubid age**, **The Art of Oratory in the First Memluk Age.**

الفصل الأول

الباب الأول: المقدّمة

الباب الثاني:التاريخ السّياسيّ والعسكريّ

الباب الثالث:الحياةالعلميّة والأدبيّة

الباب الأوّل: المقدّمة

تمهيد

مشكلة الدراسة

أهداف الدراسة

أهميةالدراسة

حدود الدراسة

المصطلحات

الإطار النظري والدراسات السابقة

ما يميّز هذه الدِّراسة

منهجيّة الدراسة

تمهيد

تعد الخطابة من أهم الفنون الأدبية النثرية ذات التأثيرالعميق في نفوس المتلقين، وأداة التوجيه الفاعلة عبر التاريخ، ووسيلة الإعلام والتحفيز الأنجع لإحداث حركة التغيير الإيجابي في المجتمع؛ فهي فن أدبي حي يقوم على المشافهة في الإلقاء،ويتبادل التأثير والتأثر وفقا للأحداث والتطورات التي تلقي بظلالها على المرسل والمتلقين لتشكل نصوصها صورة نابضة عن الواقع الأدبي، والاجتماعي، والسياسي، والفكري، ولتعكس جماليات الشكل والمضمون للفنون النثرية بعامّة، والخطابة بخاصّة عبر نسج فني رصين تزيّن بناءه فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعاني، وروعة الصور، وتربي تأثيره براعة الإلقاء، وصدق العاطفة، والخيال المحلق، ولا يخفى ما في ذلك من حاجة إلى موهبة فذّة ومهارة فائقة.

ومع أهميّة الخطابة بين الفنون الأدبيّة النثريّة، إلا أنّها لم تحظ بالاهتمام الكافي من قبل الدّارسين والباحثين إلا ما كان من التّركيز عليها في عصري صدر الإسلام والخلافة الراشدة، وكذلك العصر الأموي الذي حفل بالخطب السّياسية التي كانت من أهمّ سمات ذلك العصر، والدّراسات التي تناولت الخطابة في تلك العصور كانت في معظمها قائمة على السّرد التّاريخي الذي يبيّن دور الخطابة في الأحداث التّاريخيّة والسّياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة دون التّعرض لها بالتّحليل الأدبيّ الذي يكشف جماليّات الشّكل والمضمون في تلك الخطب.

والجدير بالذّكر أنّ فنّ الخطابة لم يحظ بدراسة تحليليّة مستقلّة في العصرين الأيّوبيّ والمملوكيّ الأوّل على الرّغم من أنّهما يمثّلان فترة ذهبيّة في تاريخ الأمّة شهدت أحداثا مصيريّة غيّرت وجه التّاريخ، ومن المعلوم أنّ هذه الأحداث قد ارتبطت بخطب تحفيزيّة كان لها الأثر الكبير في بثّ الروح المعنويّة في الأمّة، كما أنّ النّهضة العلميّة والأدبيّة لأي أمّة تكون دائما وثيقة بالنّهضة الحضاريّة والسّياسيّة؛ لذلك سيعمد الباحث إلى تتبع أهمّ الخطب المنثورة في

هذين العصرين وترتيبها وفقا للأحداث التاريخيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، وبيان أثرها في نهضة الأمّة، والحفاظ على هويّتها واستقلالها وحريتها، وبيان مكانة فنّ الخطابة بين الفنون النثريّة الأخرى في تلك الفترة، وتوضيح مجالاته وأعلامه وألوانه، والوقوف على تطوّر هذا الفنّ، وعوامل ازدهاره،أو ضعفه، وتأثيره الإيجابيّ في مجرى الأحداث،والكشف عن جماليّات الصّور البيانيّة والتّراكيب من خلال التّحليل الأدبيّ لخطبة من الخطب المشهورة في العصر الأيوبي، وخطبة من عيون الخطب في العصر المملوكي الأول، عامدا إلى التّركيز على المستوى التّركيبي والمستوى البيانيّ في تحليل النّص الأدبيّ في الدّرجة الأولى، وساعيا إلى إبراز قيمة هذا الفنّ في عكس صورة نابضة عن الحياة الأدبية في هذين العصرين.

مشكلة الدراسة

تبرز مشكلة البحث في عدم وجود دراسة مستقلة عن الخطابة في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول حسب علم الباحث، إلا ما يتوافر من الإشارات منثورا في بعض الكتب عند الحديث عن فن النثر في هذين العصرين مما لا يسعف الباحثين، ولا يتناسب وأهمية هذه الحقبة التاريخية؛ لذلك ستسعى هذه الدراسة للإجابة عن الأسئلة التالية:

1- ما أهمية الخطابة في هذين العصرين في الحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية؟
2- ما مظاهر جماليات الخطابة في هذين العصرين وفق المستويين: التركيبي والبياني؟
3- ما مكانة الخطابة بين الفنون النثرية الأخرى في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول؟
4- ما دور الخطابة في الأحداث التاريخية المفصلية في تلك الفترة؟
5- ما ألوان الخطابة في تلك الفترة ومَنْ مشاهيرها؟
6- ما أشهر الخطب التي ألقيت في تلك الفترة وما أهم السمات الفنية المميزة لها؟

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

1. بيان دور الخطابة في نهضة الأمة في العصرين الأيوبي والمملوكي الأوّل.
2. جمع أهم الخطب الملقاة في هذين العصرين، وتناول خطبة مختلفة في نوعها في كل عصر بالتحليل الأدبي الذي يركز على المستويين: التركيبي والبياني.
3. بيان أهمية فن الخطابة في عملية التطور الأدبي، وتأثير الأحداث السياسية والتاريخية والاجتماعية في طبيعة الخطابة وخصائصها الفنية.
4. بناء تصورعن الواقع الأدبي واللغوي في هذين العصرين من خلال عرض موجز لبعض الخطب المهمة فيهما، مع القيام بعقد مقارنة أدبية تتناول السمات الفنية والتركيبية بين الخطابة في هذين العصرين.
5. بيان أنواع الخطابة في هذين العصرين مع التعريف بمشاهير الخطباء.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تركز على عصرين ذهبيين في تاريخ هذه الأمة جرت فيهما أحداث مصيرية فاصلة كان لها الأثر الفاعل في الحفاظ على وحدة الأمة وتماسكها؛ فقد شهدت هذه الفترة احتلال الصليبيين لبيت المقدس وتحريره على يد القائد الفذ صلاح الدين الأيوبي، كما أنها شهدت دحر موجة الهجوم التتري العنيفة على يد القائد المظفر قطز من المماليك، وهذه الأحداث العظام لا بد أن يرتبط إنجازها بالخطابة التي طالما كانت الوسيلة الفاعلة لإلهاب المشاعر، وإيقاظ الأحاسيس، وتحفيز الهمم،والدفع نحو التغييرالإيجابي.

وتأتي هذه الدراسة في ظل قلة الدراسات الشاملة حول الخطابة واتجاهاتها في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، لتشكل إضافة علمية إلى المكتبة العربية في هذا المجال الذي ضنت به كتبها على أهميته، ولتبرز هذا الفن الأدبي النثري في تلك الفترة،ولتشكل نصوصها أمثلة حية تطبيقية للمشتغلين بهذا الفن في العصر الحديث، كما أنها ستسهم في إثراء النماذج التطبيقية في مجال تحليل النص الأدبي الخطابي.

حدود الدراسة

تتحدد هذه الدراسة في جانبها الرئيس بتناول فن الخطابة في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول في بلاد الشام ومصر،وهي البلاد التي تمركزت فيها دولتا بني أيوب والمماليك، وذلك من خلال تتبع الخطب التي ألقيت في هذين العصرين، وتناول خطبتين منها بالتحليل الأدبي.

المصطلحات

الفنُّ لغة:

واحد الفنون، وهي الأنواع، والفن: الحال، والفن: الضرب من الشيء، والجمع أفنان وفنون، وافتنَّ الرجل في حديثه وفي خطبته إذا جاء بالأفانين [1].

الفنُّ اصطلاحا:

هو التطبيق العملي للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققها [2].

أو هو: جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال، والتعبير عنها بوساطة الخطوط او الألوان أو الحركات أو الأصوات أو الألفاظ.

كالتصوير والغناء والموسيقى والرقص والشعر [3].

وهكذا يمكن القول إنّ الفن: مهارة إبداعية يمتلكها الشخص المتميز، وينميها بالذوق والدربة في مجال من المجالات المحسوسة سواء كانت مسموعة أم منطوقة أم مرئية، ويسخرها في إمتاع الآخرين، وإثارة عواطفهم لأهداف متعددة.

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة فنن.

(2) اللّجمي، أديب وآخرون(1995). **معجم اللغة العربية**. ص954، عالم المعرفة، بيروت.

(3) المصدر السابق،ص 954.

الخطابة لغة:

الخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم ج خطوب.

وخطب الخاطب على المنبر خَطابَة بالفتح، وخُطبة بالضم، وذلك الكلام خُطبة أيضا ورجل خطيب: حسن الخُطبة بالضم [1].

والخُطبة مصدر الخطيب، خطب الخاطب على المنبر ويخطب خَطابة بالفتح، وخُطبة بالضم، قاله الليث ونقله عنه أبومنصور. قال الجوهري: خطبت على المنبر خُطبة، بالضم، وخطبت المرأة خِطبة بالكسر.والخطبة عند العرب: الكلام المنثور المُسجَّع ونحوُه وإليه ذهب أبو إسحاق، وفي التهذيب:الخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر [2].

الخطابة اصطلاحا:

عرفها أبو زهرة :" بأنها صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم،وإقناعهم" [3].

وحدَّها أرسطو بقوله: " الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان"[4].

الخطابة إذا: فن نسج الكلام المنثور بأسلوب أدبي رصين، وإلقائه بكيفية مؤثرة ملهمة للتغيير.

العصر الأيوبي:

هوالعصر الذي أسّس فيه صلاح الدين بن أيوب(ت589هــ) دولة الأيوبيّين في مصر، وهم الذين حكموها أكثر من ثمانين سنة من وقت سقوط الخلافة الفاطميّة على أيديهم، إلى وقت قيام دولة سلاطين المماليك، في الفترة من 567هــ/1171م، إلى 648هــ / 1250م، حيث غلب على ملوكها التلقّب في أوراقهم الرسميّة بلقب الملوك[5].

---

[1] الفيروز آبادي القاموس المحيط، مادة خطب.

[2] الزبيدي،تاج العروس، مادة خطب.

[3]أبو زهرة، محمد،(1980).الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب. ط 2،الكويت: دار الفكر العربي. ص19

[4] طاليس، أرسطو (1986).فن الخطابة.(د.ط)، بغداد: دار الشؤون الثقافية، ترجمة عبد الرحمن بدوي.ص14

[5] ماجد،عبد المنعم (1997).الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية. ط2،القاهرة: دار الفكر العربي ص7.

العصر المملوكي الأول:

هو العصر الذي استطاع فيه المماليك البحرية الذين كانوا يتبعون للسلطان نجم الدين أيوب(ت647هـ) الاستئثار بالسلطة والحكم، في الفترة من 648هـ/1250م، إلى 784هـ / 1381م، وهم في الأصل مماليك أسّسهم السلطان نجم الدين أيوب للدفاع عن سلطته، وأطلق عليهم البحرية لأن السلطان نجم الدين أيوب اختارهم قرب جزيرة الروضة في النيل، ومعظمهم من الأتراك من بلاد القفجاق وبلاد القوقاز قرب قزوين، وامتازوا بحسن الطلعة وجمال الشّكل والقوة والشجاعة[1].

الإطار النظري والدراسات السابقة

الإطار النظري

1_ حمزة (1949)

يتناول الكاتب الحروب الصليبية بمراحلها الأربعة عارضا أهم أسبابها ومبينا أحوال الأمة الإسلامية في تلك الفترة، ومن ثم يعقد بابا للشعر في خدمة صلاح الدين ملقيا الضوء على أهم الشعراء في ذلك العصر، كما أنه يتناول الفروسية والجهاد، ويأتي على ذكر فضائل البلاد في نهاية الكتاب، أما موضوع الخطابة فيعرضه في الفصل العاشر بعد تطرقه لموضوع الرسائل النثرية تحت عنوان " الخطابة والحروب الصليبية"، حيث بين أنّ الخطابة الدينية في المساجد كانت من أهم الأسلحة في التحفيز ضد الصليبيين ممثلا بخطب سبط ابن الجوزي، كما أنه ذكر الخطابة الحربية ومثل عليها بخطبة الناصرصلاح الدين بعد احتلال الصليبيين لعكا، وقد ذكر خطبة محيي الدين ابن زكي في فتح القدس، وخطب ابن نباته في عهد سيف الدولة الحمداني، وعقد مقارنة بينها وصنفها ضمن الخطب التي التزمت السجع في تراكيبها مشيرا في الوقت نفسه إلى خطب العز بن عبد السلام التي عدلت عن السجع في أسلوبها، وعلى الرغم من الإفادة التي لمسها الباحث من هذا الكتاب إلا أن الكتاب لم يكن شاملا لأنواع الخطابة في ذلك

---

[1] الزيدي، مفيد (2009).موسوعة التاريخ الإسلامي / العصر المملوكي. دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، انظر:ص30.

العصر مع قلة الخطب الموردة، كما أنه ما كان منظما في التقسيم والتحليل، فضلا عن أنه لم يتعرض للخطابة والخطباء في العصر المملوكي الأول.

2_ عبد الله (1962)

يعرض هذا الكتاب لحياة واحد من أكابر خطباء العصريين الأيوبي والمملوكي الأول وهو العز بن عبد السلام، حيث يعطي نبذة عن عصره، وسيرته، وشخصيته السياسية، والعلمية، والاجتماعية، كما أنه يأتي على ذكر بعض خطبه مبينا جرأته في قول الحق وفصاحته في الخطاب، وما أحدثه من إلغاء بعض البدع التي كانت منتشرة في زمانه بين الخطباء، وما أضفاه على الخطابة من دور نقدي إصلاحي بناء، وقد كان ذكره لخطابة العز عابرا بين السطور، إذ لم يتم التركيز على الجانب الخطابي في شخصية العز، فضلا عن خلو نصوص خطبه المذكورة من التحليل الأدبي، والتذوق الفني.

3_ الباشا (1972)

تناول الكاتب الحديث عن الحياة الأدبية في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك بادئا كتابه بعرض للحياة السياسية والاجتماعية والعلمية، ومن ثم أخذ في الحديث عن الشعراء ومذاهبهم الفنية وأغراض الشعر وفنونه، وقد تطرق الكاتب للحديث عن فن الخطابة عند بداية توضيحه للفنون النثرية، إذ ذكر الخطب الدينية ومثل عليها بخطبة القاضي محيي الدين بن زكي، وذكر أنواعا أخرى للخطب وهي الخطب الحربية والدفاعية والتدريسية دون التمثيل الكافي لمعظم هذه الأنواع، ودون التعرض بالتحليل لها، فضلا عن الإيجاز الشديد في العرض.

4_ بدوي (1979)

انقسمت الدراسة في هذا الكتاب إلى قسمين: أحدهما دراسة ما حول الأدب من الأحوال السياسية والاجتماعية والعلمية، وثانيهما دراسة الأدب نفسه، بتبيين فنونه المختلفة، والوقوف على الرجال الذين أنتجوا هذا الأدب، ويتناول الكاتب الخطابة في أربع وعشرين صفحة يعرض خلالها لأهم الخطب التي بقيت من ذلك العصر مع الإشارة إلى فقدان معظمها، كما أنه يتكلم بالتفصيل عن أهم خطباء ذلك العصر مبينا أهم السمات الفنية للخطابة، لكنه يعقد مقارنة بين

الخطابة العربية والخطابة الأروبية في الحروب الصليبية خالصا إلى ضعف الخطابة العربية مقارنة بالأروبية، وهو ما لا يتبناه الباحث عامدا إلى إثبات عكسه.

5_ أبو زهرة (1980)

قام الكاتب بتحديد مفهوم الخطابة، وتبيين موضوعاتها، ودواعيها، وهيكلها، وتوضيح صفات الخطيب وأنواع الخطابة، وموضوعاتها، كما أنه عرض لتاريخ الخطابة في عصور ازدهارها، ونماذج من خطب تلك العصور، لكنه لم يتناول تلك الخطب بالتحليل الأدبي، كما أنه لم يدرس الخطابة في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول مكتفيا بدراسة العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والمئة الأولى من العصر العباسي.

6_ عبد المهدي (1988)

يقوم هذا البحث على دراسة موضوع " بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية " منذ احتلالها سنة 492هـ وحتى تحريريها للمرة الثالثة في سنة 642هـ، وقد قسم البحث إلى أربعة فصول تتلخص في تناول بيت المقدس في الأدب قبل الفتح القدسي وخلال الفتح القدسي وبعد الفتح القدسي، ومن ثم يركز في الباب الرابع على دراسة فنية للأشعار والرسائل القدسية، والكاتب لا يفرد فصلا خاصة يتناول فيه الخطابة في ذلك العصر، إلا أنه ذكر خطبة محيي الدين بن زكي وتصويره للفتح والفاتح فيها، كما أنه يذكر مجلس سبط بن الجوزي الذي عقده الملك الناصر داود استنكارا على فعلة الملك الكامل بالتنازل عن بيت المقدس، ويذكر موقف العز بن عبد السلام وخطبته كذلك، كما أنه يشير إلى تأثر الكُتّاب بأسلوب ابن نباتة في الخطابة، إلا أن ذكر الخطابة في كل ذلك جاء سريعا دون أي نوع من التحليل.

7_ عبد المهدي (1989)

دار البحث حول ابن زكي وخطبته القدسية، حيث عرض الباحث لحياة ابن زكي، ونسبه، وشيوخه وعلمه، وعلاقته بالسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ومنزلته عنده، وحياته الأدبية والعلمية وتوليه لمنصب القضاء، وعلاقته بالقاضي الفاضل، ومن ثم انتقل إلى خطبته

القدسية في الجمعة الأولى بعد تحرير بيت المقدس، عارضا أهم أركانها، مبرزا أهم صورها وإشاراتها الخفية، موضحا الانفعالات النفسية والدينية لدى ابن زكي، ومن ثم انبري الباحث إلى التحليل الأدبي العام لهذه الخطبة، موضحا جماليات الشكل والمضمون فيها، إلا أنه لم يعرض لمعظم القضايا الأدبية التي كان يمكن تطبيقها على هذه الخطبة، وربما يعزى ذلك إلى الهدف من البحث الذي وازن بين التحليل الأدبي والسياسي الديني الشعوري.

8_ سلَّام (1995)

يتناول الكتاب الفنون النثرية في العصر المملوكي الأول من خطب ووصايا ورسائل ومقامات، ومن ثم يبن المؤلفات في موضوع معين، ويأتي على ذكر كتب الشروح والموسوعات، ويذكر أعيان الكُتَّاب.

والكاتب يتطرق إلى ذكر أنواع الخطابة في هذا العصر قاصرا إياها على الخطابة الدينية وبعض المناسبات العامة من افتتاح للدروس وخطب للزواج، ويمثل الكاتب لخطب افتتاح الدروس بخطبة تقي الدين السبكي ولخطب الزواج بخطبة زين الدين الوردي، لكنه لم يذكر مجالات الخطابة الأخرى في ذلك العصر، كما أنه لم يتعرض لتلك الخطب بالتحليل مكتفيا باستنتاجات عامة عن ميزات الخطابة في هذا العصر.

9_ سلَّام (1997)

يتناول الكتاب الحديث عن دولة الأيوبيين من الناحية الجغرافية والاجتماعية والسياسية والفكرية، وقد تطرق للحديث عن الخطابة في صفحتين عند تناوله لموضوع الكتابة والكُتَّاب حيث بين أن الخطابة في هذا العصر كانت تتمتع بنفس الصور والفنون التي عرفت من قبل، كما بين أن فن الخطابة قويٌّ في هذا العصر لا سيما الدينية منها لغلبة العامل الديني على النفوس في مواجهة الجحافل الصليبية، وقد جاء الحديث عن الخطابة في هذا الكتاب مقتضبا جدا لا يتناسب وأهميتها في هذا العصر.

10_ الساريسي (2003)

استعرض الكاتب تاريخ الحروب الصليبية ومراحلها، ثم انتقل للحديث عن المقومات الفنية لأدب العصر بشكل عام، وبعد ذلك عرض للموضوعات الجديدة التي طرقها أدب هذا العصر، والكاتب تعرض لموضوع الخطابة مرتين: أولاهما في حديثه عن دور الأدب في تصوير الجهاد والتحرير ممثلا بخطبة محي الدين بن زكي في فتح القدس عارضا لها بشيء من التحليل والتدبر، وثانيهما في حديثه عن دور النثر في تصوير الثبات والتطهير مستشهدا بخطبة الشهاب محمود في وصف الرمي بالنشَّاب ذاكرا بعض النظرات التحليلية فيها.

الدراسات السابقة

1_ دراسة زايد (1993)

دارت الدراسة حول النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية بادئا بإعطاء تصور عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية، ثم تناول أهم الموضوعات التي تناولها الناثرون، وتناول فن الخطابة خلال حديثه عن أهم الفنون النثرية وخصائصها، حيث بين أهم ألوان الخطابة في ذلك العصر قاصرا إياها على الخطابة الحربية والدينية، وعرض لأهم الخطباء عازيا سبب ضياع خطبهم إلى كون فن الخطابة يلقى ارتجالا فضلا عن ضياع المصادر التي تضمنت خطبهم، وهو في بحثه لم يذكر إلا خطبتين للملك الناصر صلاح الدين الأيوبي دون التعرض لهما بالتحليل، بالإضافة إلى خطبة محي الدين بن زكي التي تناولها بشيء من التحليل الأدبي، كما أن حديثه عن الخطابة جاء مختصرا، ناهيك عن اقتصاره على العصر الأيوبي.

2_ دراسة السالم (1993)

شملت هذه الدراسة الحديث عن النثر الفني في مصر وبلاد الشام في القرن السادس الهجري، إذ بدأت بالحديث عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والأدبية لهذا القرن، ومن ثم تناولت أحوال النثر الفني قبل القرن السادس الهجري، وناقشت أنواع النثر الفني مع بيان أهم الكتب التي ألفت فيه، وختم بحثه بمناقشة الخصائص الموضوعية والفنية للنثر الفني.

وجاء حديثه عن الخطابة مقتضبا عندما تناول أنواع النثر الفني حيث ذكر أهمية الخطابة في هذا العصر لا سيِّما الدينية منها، وبين موضوعات الخطابة الدينية مع ذكر أهم خطباء ذلك العصر، لكنه لم يقدم مثالا على الخطابة لذلك العصر إلا خطبة محي الدين بن زكي دون التعرض لها بأي تحليل يذكر، فضلا عن الإيجاز الشديد في العرض.

3_ دراسة العطاري (1995)

تناولت هذه الدراسة النثر الفني في العصر المملوكي الأول، وقد اشتملت على تمهيد وثلاثة فصول، حيث تناول في التمهيد حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، ثم عرض في الفصل الأول فنون النثر الفني واتجاهاته، وتناول في الفصل الثاني دراسة النثر الفني في إطار العصر، وتمثيله لجوانب الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والدينية والعقلية، وعالج في الفصل الثالث السمات الفنية للنثر الفني.

والباحث تناول موضوع الخطابة بإسهاب في معرض حديثه عن فنون النثر الفني واتجاهاته، حيث بين أن الخطابة في هذا العصر لم يعد لها ذلك التأثير الجماهيري الذي كان لها في عصور سابقة لا سيما الخطابة السياسية والحربية؛ لأن المماليك لم يعتمدوا في حكمهم أو في حربهم القواعد الشعبية بل القواعد العسكرية من المماليك، وبالطبع فإن هذا الحكم لا ينسحب على الخطب الدينية والوعظ، لكنه يشمل الخطابة الاجتماعية التي قلت دواعيها.

وقد قام الباحث بذكر أنواع الخطابة في ذلك العصر مع التمثيل لها وبيان أهم أعلامها، ومن ثم تطرق إلى المواعظ والنصائح والحكم والوصايا، وقد عدّ مواضيعها وظروف إلقائها مضارعة للخطابة، كما أتى على ذكر المناظرات الدينية بعد حديثه عن الوعظ والحكم، وهذه الدراسة مع ما فيها من إسهاب وعرض شائق، إلا أنها ركزت على العرض التاريخي الخالي من التحليل الأدبي لتك النصوص الخطابية.

4_ دراسة بني خالد (2002)

تناول الباحث في هذه الدراسة الخطابة العربية في العصر الأموي، وقد عالج نصوصها معالجة أسلوبية تحليلية، حيث درس بالتحليل ظواهر التناص، والتضاد، والتكرار، والتوازي في النصوص الخطابية في ذلك العصر؛ لاستنطاق معطياتها الفنية، واكتشاف قيمتها

الجمالية، و في كل ذلك كان يبدأ بالتعريف بتلك المصطلحات، ومن ثم يطبقها على النصوص الخطابية، في الختام تطرق إلى موضوع الصورة الفنية وبين مفهومها، وعرض أمثلتها التطبيقية لفنون المجاز، والاستعارة، والتشبيه. وهذه الدراسة ركزت على الخطابة في العصر الأموي دون غيره.

5_ دراسة المحاسنة (2002)

عنيت هذه الرسالة بدراسة موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل قيام الدولة الأيوبية، ومن ثم عرضت لموقفهم في عهد صلاح الدين الأيوبي، وعرجت إلى موقفهم في عهد خلفائه، وقد خلت هذه الدراسة من أي نص خطابي أدبي، والحديث فيها اقتصر على السرد التاريخي.

7_ دراسة البيسومي (2006)

تناول الباحث الأوضاع السياسية والعسكرية والعلمية والدينية والعقلية، ومن ثم تكلم عن علوم اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، وفي معرض حديثه عن اللغة العربية تطرق إلى فن الخطابة، حيث أوضح أنّ الخطب كانت ذات اتجاه ديني وسياسي، وقد أسهمت بدور كبير في الدعوة إلى الجهاد وإثارة الحماس بين الناس، وغالبا ما كانت تلقى ارتجالا، كما أنه ذكر الخطب الدينية التي كانت تلقى من قبل الفقهاء عند تسلمهم للتدريس.

والحديث عن الخطابة جاء مختصرا في معرض الحديث عن اللغة العربية في ذلك العصر.

8_ دراسة المري (2012)

تناول الباحث في هذه الدراسة الخطابة عند الفاروق وعالجها معالجة أسلوبية، حيث مهّد للدراسة بتعريف الخطابة وبيان تطورها إلى عصر الفاروق، ومن ثم بين جوانب الخطابة عند الفاروق وأساليبها، وقد عالج الباحث ظواهر التناص، والسجع، والتكرار، والتضاد، والتشبيه، والاستعارة في خطب الفاروق، وجاء الختام ببيان أسلوب الفاروق، وبلاغته، وقوته في الخطابة.

وشكلت هذه الدراسة إضاءة للباحث في مجال التحليل الأدبي لنصوص الخطابة.

ما يميز هذه الدراسة

والدراسة التي يتقدم بها الباحث تفيد من الدراسات السابقة في التعرف إلى ملامح العصرين السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية، كما أنها تفيد في التعرف إلى أهم السمات الفنية للأدب في تلك الحقبة ومظاهر تطوره ونهضته، والدراسات السابقة كانت أيضا بمثابة منطلق للوصول إلى النصوص الخطابية التي ألقيت في هذين العصرين، والجدير بالذكر أن بعضها وفرت للباحث نماذج في التحليل الأدبي الفني.

ومما يميز هذه الدراسة عن الدراسات السابقة أنها ستعمل على جمع الخطب الملقاة في تلك الفترة، ودراسة اثنتين منها في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول دراسة تحليلية تظهر جماليات أساليبها، وسماتها الفنية، وتقف على ما وراء نصوصها من أسرار بلاغية.

كما أنها تعد من الدراسات الحديثة التي تقدم تحليلا للنصوص الأدبية النثرية معتمدة المستويين: البياني والتركيبي بشكل أساسي، عامدة إلى إبراز جماليات النص الأدبي في تراكيبه وبنائه، وإظهار الصور البلاغية والفنية المتشكلة في تلك النصوص الخطابية.

منهجية الدراسة

سيعتمد الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي في تتبع الأحداث التاريخية، والمنهجان الفنّي واللغويّ في التحليل الأدبي، وذلك من خلال دراسة خطبتين ألقيتا في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول في مناسبات مختلفة، ولأهداف متنوعة، والوقوف على الأساليب البلاغية والصور الفنية والتراكيب في هذه الخطب من خلال التحليل الأدبي لها.

الباب الثاني: التّاريخ السّياسي والعسكريّ

المبحث الأوّل: الحالة العامّة قبل ظهور الأيُّوبيِّين

المبحث الثاني: التّاريخ السِّياسيّ والعسكريّ للأيُّوبيّين

المبحث الثالث: التاريخ السِّياسيّ والعسكريّ للماليك

المبحث الأول: الحالة العامّة قبل ظهور الأيّوبيين والماليك

ساد العالم الإسلاميّ حالة من الضّعف والتشرذم في القرنين الرابع والخامس الهجريين؛ وذلك بسبب ضعف الخلافة العبّاسيّة وخضوعها لسيطرة البويهيّين ومن ثم السلاجقة،

فالناظر في تاريخ الدولة الإسلاميّة يلمح بجلاء ذلك الصراع المؤلم الذي كان ينخر جسدها ويزيد في تفكُّكها وضعفها،ويعمل على تردّي الأوضاع الداخلية والخارجية فيهما ([1]).

أولا:الدولة الفاطمية

وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام 296هـ في الشمال الإفريقي على يدي أبي عبد الله الشيعي (عبد الله المهدي) بعد سقوط القيروان [2]،وقد تم الاستيلاء على مصر على يد المعز لدين الله الفاطمي الذي كان يقود جيشه جوهر الصقلي [3]،وحاولوا التّمدُّد إلى الشّام،فتمّت مواجهتهم بشراسة من قبل السّلاجقة، الأمر الّذي أدّى إلى فقد الفاطميين النفوذ في بلاد الشام[4].(والواقع أن هذه السياسة أدت إلى أن يدرك الصليبيون ما بين الفاطميين والسلاجقة من العداوة والكراهية،وكشفت لهم عن ضعف القوى الإسلامية)[5]، وكان هذا من أهم الأسباب في نجاح الصليبيين في حملتهم الأولى.وصور ابن الأثير حال مصر في العهد الفاطمي فقال:(وَكَانَ الْوُزَرَاءُ بِمِصْرَ لَهُمُ الْحُكْمُ فِي الْبِلَادِ، وَالْخُلَفَاءُ مَعَهُمُ اسْمٌ لَا مَعْنَى تَحْتَهُ)[6].

ثانيا: السلاجقة

أما الدولة العباسية (فكانت الأحوال السياسية الداخلية المرتبكة قد جعلت الخلافة أو الدولة العباسية عمليا في أيدي الأمراء السلاجقة)[7].

---

(1) الأصفهاني، عماد الدين محمد (1990م).تاريخ دولة آل سلجوق.ط1، مصر:شركة طبع الكتب العربية ص228-235.

(2) الصلابي، علي محمد(2008هـ). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في تحرير بيت المقدس. ط1، مصر: ألفا للنشر والتوزيع، ص133.

(3) المصدر السابق: ص 146-147.

(4) جبران نعمان.(2011).دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك. الطبعة العربية، عمان، الأردن، دار اليازوري، ص 18-19

(5) العريني، السيد. الشرق الأدنى في العصور الوسطى (1) الأيوبيون. دار النهضة، ب ت، ب م، ص 6.

(6) ابن الأثير، الجزري (1997).الكامل في التاريخ. ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، تح: عمر عبد السلام تدمري، 209/9.

(7) وهبة، مصطفى (1997). موجز تاريخ الحروب الصليبية. ط1، المنصورة، مصر: مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ص 16.

والسلاجقة في أصولهم العرقية من الأتراك الغز، وينتمون إلى سلجوق بن دقاق[1]، وهم من القبائل التي اعتنقت الديانة الإسلامية وفق المذهب السني.وقد عمل السلاجقة على تحقيق غايتين تمثلان أقصى أولوياتهم وهما: العمل على الحد من النفوذ الفاطمي الشيعي في بلاد الشام، والقضاء على الخطر البيزنطي. فعلى صعيد بيزنطة كان أهم الأحداث العسكرية معها هو الانتصار عليهم في موقعة مانز يكرت سنة463هـ التي أسر فيها الإمبراطور البيزنطي[2].

وعلى صعيد الحرب مع الفاطميين، فقد تمكن السلاجقة من السيطرة على مناطق بلاد الشام و معظم أنحاء فلسطين بما فيها القدس وكذلك دمشق[3]، لكنهم لم يفلحوا في السيطرة على مصر، وتكبد جيشهم بقيادة أتسز ابن أوق هزيمة أمام الجيش الفاطمي([4]).

وبدأت دولة السلاجقة القوية تعاني من عناصر الضعف بعد مقتل ألب أرسلان سنة464هـ، على الرغم من أن خليفته ملكشاه 464-585هـ قد وسع حدود الدولة.وخلاصة الأمر إنّ دولة السلاجقة الموحدة التي كانت قادرة على تحقيق الانتصارات ضد الفاطميين وبيزنطة قد أصبحت موزعة الولاء مجزأة...، وقد زاد ذلك من تعقيد الوضع؛ فالخلافة العباسية ضعيفة وكذلك الدولة الفاطمية وكلتاهما في صراع، ودولة السلاجقة مفككة متصارعة[5].

ثالثا: الحروب الصليبية

بدأت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي / أواخر القرن الخامس الهجري بالحشد والدّعاية، واستمرت حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / أواخر القرن السابع الهجري[6] (488هـ-690هـ/1095م-1291م) أي استمرت قرنين من الزمان على شكل حملات متتالية أوصلها بعض المؤرخين إلى ثماني حملات.

---

[1] طقوش، محمد حسين (2009). تاريخ السلاجقة في بلاد الشام.ط3، بيروت، لبنان، دار النفائس ص 76.

[2] ابن القلانسي، حمزة بن أسد التميمي(1983).تاريخ دمشق. ط1، دار حسان، دمشق، تح: سهيل زكار ص 167، البنداري، الفتح الأصفهاني(1980).تاريخ دولة آل سلجوق.ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص 40- 44.

[3] ابن الأثير،الكلمل: ج8، ص256-257.

[4] انظر: بردي، يوسف ابن تغرى(د.ت). النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة. (ب.ط)، مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب،**87/5**، ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 1/176-180.

[5] انظر: جبران نعمان،دراسات في تاريخ الأيُوبيِّين والمماليك، ص22-23

[6] وهبة، مصطفى(1997). موجز تاريخ الحروب الصليبية.ط1،مكتبة الإيمان، المنصورة، ص3.

(غير أن الحروب الصليبية – أو قصة الصراع الديني العنيف بين المسلمين والمسيحيين– اسم أطلقه الأوروبيون على الوقائع التي نشبت بين هؤلاء وهؤلاء في فترات طويلة متقطعة، لا شك أن أشهرها تلك التي كان المركز الرئيسي لها فلسطين...، ويشترط لتسمية الحروب الدينية حروبا صليبية شرطان مجتمعان هما: الاتجاه إلى الأماكن المقدسة، وحمل شارة الصليب)[1].

(ومهما يكن، فإن فرنجة أوروبا اتخذت شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحرب المسلمين في الشرق، وكلف البابا أربان (1088–1099)؛ رجل الدين الفرنسي بطرس الناسك (1050–1115)، بالدعوة إلى حرب المسلمين، لتخليص الأماكن المقدسة للنصارى منهم، وكان من قبل زار القبر في وقت سيطرة السلاجقة عليه، وقال إنه رأى السيد المسيح الذي قال له:"لقد جاء الوقت لتطهير الأماكن المقدسة ولمساعدة خدمي")[2].

ويصف صاحب كتاب قصة الحضارة الموقف لحظة إعلان بداية الحروب الصليبية قائلا:(واجتمع المجلس التاريخي في كليرمونت Clermont في مقاطعة أوفرني، وهرع إليه آلاف الناس من مئة صقع وصقع...، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة في وسطهم مواطنهم إربان الفرنسي وألقى عليهم باللغة الفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثرا في تاريخ العصور الوسطى:

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار !... لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية، أنباء محزنة تعلن أنّ جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين...،طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملكوها أنتم...)[3] وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس: " تلك إرادة الله "[4].

---

(1) حمزة، عبد اللطيف (1949). أدب الحروب الصليبية. ط 2، دار الفكر العربي، مصر ص1.

(2) ماجد، عبد المنعم (1997). الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية. ط2، دار الفكر العربي، القاهرة ص39

(3) ديورانت، ول(1950 م).قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت وتونس، 15/ 15–16، وانظر: حمادة،محمد ماهر (1982م). وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي. ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 99–101.

(4) المصدر السابق 15/15–16.

وهكذا أطلقت شرارة الحروب الصليبية بهذه الخطبة الطويلة التي ارتأيت اختصارها وذكرها كاملة في الملحق، وحرصت على ذكرها والإشارة إليها لأدلل على ما للخطابة من أثر كبير في تحريك الأحداث السياسية وإذكاء نار الحروب وإلهاب المشاعر وتغيير مجرى التاريخ في تلك الفترة، ولم تكن الخطابة سلاحا مقصورا على طرف دون طرف، بل كانت في متناول الجميع يحسنون الاستفادة منها وفقا لمقاصدهم واستراتيجياتهم.

لقد بدأت هذه الحرب فعليا منذ سنة 490هـ بعد تسعة أشهر من التعبئة الدينية والإعلامية التي كان يقوم بها البابا أوربان الثاني وبطرس الناسك [1]، واستطاعت جيوش الحركة الصليبيّة الانتصار على السّلاجقة وفرض السّيطرة على نيقية[2]، والتقوا عند دوريليوم بجيش تركي تحت قيادة قلج أرسلان، وانتصروا عليه انتصارا سفكوا فيه كثيرا من الدماء، واخترقوا آسيا الصغرى دون أن يلقوا فيها عدوا غير قلة الطّعام والشّراب [3]، وبعدها توقّف الفرنجة أمام أنطاكية العظيمة لحصانتها، ولكنهم نجحوا في اقتحامها بعد تسعة أشهر...، فلما دخلوها ذبحوا معظم أهلها من المسلمين[4].

وبعد هذا الانتصار استولوا على مدن كثيرة منها: مدينة الرها، واصل الصليبيون زحفهم نحو القدس،وفرضوا عليها حصارا دام أربعين يوما،واقتحموها يوم الجمعة 15 يوليو سنة 1099م/ 22 شعبان سنة 492هـ،وأخذوا في سلبها ونهبها وقتل من كان حيا فيها، (وفي هذا يقول القسّ ريمند الإجيلي شاهد العيان: وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطّعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رميا بالسّهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج...، وكنت ترى في الشّوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام...)[5].

أمّا الحامية العسكريّة الفاطميّة وعلى رأسهم قائد المدينة افتخار الدولة، فقد دخلوا محراب داود واعتصموا به ثلاثة أيام، ثم في ظروف غامضة تمّ إخراجهم بواسطة الصليبيين

---

[1] انظر:ول ديورنت، قصة الحضارة ص16–17، وانظر:وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية ص 22

[2] انظر:ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 5/ 146

[3] ول ديورنت،قصة الحضارة: 22/15.

[4] انظر:ابن الأثير، الكامل 8/ 416–418

[5] ول ديورنت، قصة الحضارة 25/1

في أمان تام، حيث نقلوا إلى عسقلان ومنها إلى مصر دون أن يلحقهم أذى[1]!! وقد ذبح أو أحرق كل من كان في المدينة من المسلمين الذين بلغ عددهم سبعون ألفا، كما أن اليهود لم يسلموا، إذا جمعوا في كنيس لهم وأحرقوا[2].

ويصف ابن الورديّ هذه الأحداث قائلا:(واستمر القدس للمصريين إلى أن حصره الفرنج نيّفاً وأربعين يوماً وملكوه يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان من هذه السنة، وقتل الفرنج في المسلمين أسبوعاً، وقتلوا في المسجد الأقصى فوق سبعين ألفاً،... وتمكّن الفرنج من البلاد، وللمظفّر الأبيوردي[3] في ذلك شعر منه:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ** فلم تبق منا عرضة للمراجم

وكيف تنام العين ملء جفونها ** على هبوات أيقظت كل نائم...)[4].

ويعلّق عبد الجليل عبد المهدي على هذه القصيدة قائلا: (تصوّر هذه القصيدة الفاجعة المذهلة التي حلت بالمسلمين، وتصوّر الحالة الحزينة التي وصلوا إليها. ولقد جعل الشّاعر شعره لونا من الأدب الباكي، وهو يريد أن يستثير من استنجد بهم...)[5]، والغريب في الأمر أنّ حادثة كهذه لم تلق هبّة لدى الشّعراء والأدباء تتوافق وحجم المأساة الفظيعة التي حلّت بالمسلمين في ذلك الوقت، إذ إنّه لم يصل إلينا قصيدة لشاعر معروف يرثي فيها القدس ويستنهض الهمم إلا هذه القصيدة، فهل يا ترى أنّ بعض الّشعر قيل في هذه المناسبة وغيّبته بطون الأهوال؟! أم أنّ هول الكارثة عقد الألسنة عن الكلام والتّعبير؟! أم أنّ المذبحة أتت على كثير من الأدباء والعلماء المرابطين في القدس والّذين لم يستطيعوا النّجاة ليرووا الأحداث بأساليبهم الأدبيّة المعبّرة؟! أسئلة كثيرة يطول المقام عن مناقشتها وإجاباتها، وتحتاج لبحث أدبيّ خاص يجلّيها.

---

(1) ابن الأثير،الكامل 425/8

(2) ول ديورنت، قصة الحضارة 25/1، وانظر: ابن القلانسي، تاريخ دمشق ص222.

(3) هو محمد بن أحمد بن محمد القرشي الأموي، أبو المظفر (... ـــ 507 هــ/... ـــ 1113 م): شاعر عالي الطبقة، مؤرخ وعالم بالأدب. ولد في أبيورد بخراسان وتفي فيها..". من كتبه: (طبقات العلماء من كل فن) إضافة إلى ديوان شعره انظر:الزركلي،خير الدّين بن محمود(2002).الأعلام.ط،(د.م): دار العلم للملايين.15 5/ 316

(4) ابن الوردي،عمر بن المظفر(1996م).تاريخ ابن الوردي.ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 11/2. والقصيدة مذكورة كاملة في: الأبيوردي، محمد بن أحمد (1975). ديوان الأبيوردي. دمشق، مطبعة زيد بن ثابت 2/ 156.

(5) عبد المهدي، عبد الجليل(1988). بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية. عمان، دار البشير للنشر ص19.

ويروي ابن تغري بردي رثاء شاعر آخر، لم يذكر اسمه، لبيت المقدس في قصيدة مشهورة مطلعها:

أحلّ الكفر بالاسلام ضيما   يطول عليه للدّين النّحيب
فحقّ ضائع، وحمى مباح   وسيف قاطع ودم صبيب [1]

وهي قصيدة معبّرة عن ضمير الأمّة الحيّ الّذي انتفض مثقلا بالآهات والحسرات، وصوّر فيها الشّاعر الفاجعة بأسلوب تملؤه الحركة حيث ينقل المتلقّي إلى قلب الأحداث ليجعله شاهد عيان على الفظائع المرتكبة، ممّا يزيد في توجّعه وتفجّعه، ويحفّزه على النّهوض لردّ البغاة ووقف الضّيم.

وقد قصد وفد من وجهاء وعلماء الشّام على رأسهم القاضي أبو سعد الهروي دار الخلافة في بغداد؛ ليستنفروا الخليفة وجنده لنصرة القدس حيث (أوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا، وبكوا، وأبكوا، وذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشّريف المعظّم، من قتل الرّجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال)[2]، فماذا كانت ردّة فعل الخليفة تجاه هذه الاستغاثات والآهات؟! وهل قام بإعلان النّفير العام كخطوة مبدئيّة للإعداد لتحرير بيت المقدس؟! كلّ ما قام به أنه (ندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرّضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء، فساروا في الناس فلم يفد شيئا، فإنا لله وإنا إليه راجعون)[3].

وهذا الواقع المرير الذي كانت تعيشه الأمة، ما كان ليحدث لولا التنازع والاختلاف والتنافر الذي فتّ في عضدها، فعلى الرغم من طلب النّصرة، والخطابة على المنابر في بيوت الله لنصرة بيت المقدس، إلا أنه يمكننا القول إنّ الأمة أصابها الوهن والخور إلى درجة أنّه لم تظهر علامات النّخوة على أيٍّ من السّلاطنة والأمراء لنصرة بيت المقدس، وعاد وفد بلاد الشام خالي الوفاض دون نصير. وبذلك تطوى صفحة التّشرذم والتفتّت والهزائم لتبدأ بوادر الوحدة والنّصر والتّحرير على أيدي الزّنكيين والأيّوبيين والمماليك، وتشرق شمس عهد جديد.

---

(1) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة 5/151-152.

(2) ابن الأثير،الكامل 8 / 425.

(3) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل(1997هـ).البداية والنهاية.ط1، (ب.م): دارهجر للطباعة والنّشر، تح: عبد الله التركي، 166/16.

رابعا: الزنكيُّون

(أثارت الأعداد الكبيرة من اللاجئين الذين تدفّقوا إلى سائر بلاد المنطقة العربيّة مشاعر الغضب والاستياء ضد الحكّام. وفي البداية عّبر الناس عن مشاعرهم الغاضبة في المساجد ومن فوق المنابر في صلاة الجمعة، وبدأت الدّعوة إلى الجهاد تسري بين النّاس مسرى النّار في الهشيم،.... في ظلّ هذا البعث الأيدلوجي ظهر عماد الدين زنكي ليقود حركة المقاومة العربيّة الإسلاميّة ضد الصّليبيين)[1]

وهكذا ظهر الزّنكيون كقوة مخلّصة في وقت عزّ فيه النّصير، وقد بدأ عهدهم بظهور قسيم الدولة آق سنقر، إذ نشأ في كنف السّلطان السّلجوقي ألب أرسلان، وتربّي مع ابنه جلال الدين ملكشاه، واستمرت صحبته له حتى ولي السلطنة بعد وفاة سيّده، فارتفعت منزلته، وسمت مكانته، ونبه شأنه فلقّب بقسيم الدولة[2].

عمل آق سنقر على توطيد حكمه في حلب، وكان في صراع مع تتش أخي السلطان ملكشاه، ولكن بعد وفاة ملكشاه حدث نزاع بين تتش وأق سنقر انتهى بوقوع آق سنقر في الأسر بعد موقعة تلّ السّلطان وقتله[3].

وباعتلاء عماد الدّين زنكي سدّة الحكم في الموصل قامت الدّولة الزّنكية [4]،فجمع القوى الإسلاميّة لضمّ المدن والإمارات والأقاليم [5]،فاستولى على مدن كثيرة، وكان ذروة انتصاراته عليهم الاستيلاء على مدينة الرّها سنة 539هـ، مما سبّب للصّليبيين صدمة نفسيّة شديدة، أدت بهم إلى تدبير المكائد للتخلّص من هذا البطل العظيم.

وقد قتل عماد الدّين زنكي على يد أحد مماليكه بينما كان يحاصر قلعة جَعْبَر عام (541هـ) الواقعة على الفرات بين بالس والرّقة قرب صفّين على الطّريق إلى دمشق[6].

---

[1] قاسم، قاسم علي و علي، علي السيد (ب.ت).الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ص 10-11.

[2] أبوشامة، شهاب لدين عبد الرحمن بن إسماعيل(2002هـ).الروضتين في أخبار الدّولتين النوريّة والصّلاحيّة.ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1/138-139.

[3] طقوش، محمد سهيل(1999هـ). تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام.ط1، بيروت: دار النّفائس ص50-57.

[4] المصدر السابق ص 88.

[5] طقوش، محمد سهيل (1999هـ).تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة. ط1، بيروت: دار النّفائس ص12.

[6]طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص159.

وقد تولّى الأمر بعده نور الدّين حيث بدأت شخصيّته تعزز مكانتها بين الزّعماء الّذين عملوا على توحيد المسلمين، وقد نشأ في كفالة والده،وكان شهمًا شجاعًا ذا همّة عالية،محافظًا على الصّلوات في الجماعات،مقتصدا في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس[1].

واتّبع نور الدين نهج والده في توحيد القوى الإسلاميّة، واتّخذ من حلب مركزا لتحرّكاته ضدّ الفرنجة[2]،وقام بتحرير العديد من المدن،وتوالت انتصاراته فاستولى على دمشق سنة 549هـ، وفي سنة 560 هـ فتح بانياس عنوة[3].

كان نور الدين يتطلّع إلى استرجاع بيت المقدس، موقنا بأن ذلك لن يتمّ إلا بتوحيد مصر وبلاد الشّام. وقد واتته الفرصة حين احتدم النّزاع في مصر الفاطميّة بين الوزيرين ضرغام وشاور، ولاذ به شاور مستغيثا، وسيّر أميرين أيوبيين: شيركوه وابن أخيه صلاح الدّين. وتتطوّر الأحداث فتصبح مصر خالصة لصلاح الدّين[4]، بعد أن اختاره العاضد للوزارة وقيادة الجيش، ولقّبه بالملك النّاصر[5].ولا يلبث نور الدّين أن يصاب بمرض التهاب اللّوزتين عام 569هـ[6]، ويتوفّى نتيجة لذلك.

(ولما توفّي نور الدّين _رحمه الله _ اتّفق الأمراء على ملك ولده الملك الصّالح إسماعيل وهو صغير السّن لم يبلغ الحلم)[7]، وبذلك بدأ نجم الدولة الزنكية بالأفول بعد أن تحكّم الأمراء بالملك الصّالح إسماعيل، وبدأ نجم الدّولة الأيّوبية بالصّعود.

---

(1) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية 482/16

(2)غوانمة، يوسف حسين(1982هـ). إمارة الكرك الأيوبية.ط2،عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، ص44.

(3) أبو زيد، سامي يوسف(2012).أدب الدول المتتابعة الزنكية والأيوبية والمماليك. ط1، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع ص20.

(4) المصدر السّابق: ص20.

(5)انظر:ابن واصل(2004م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.ط1، بيروت: المكتبة العصريّة 1/ 168-170.

(6) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الجزري(1963م). التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل.(ب.ط)،القاهرة: دار الكتب الحديثة، ومكتبة المثنّى، تح: عبد القادر طليمات، ص 161.

(7)ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص1.

المبحث الثاني: التّاريخ السِّياسيّ والعسكريّ للأيُّوبيِّين(567-648هـ)

جاء قيام الدّولة الزّنكية والأيّوبية ومن بعدها دولة المماليك ردًّا على حالة الانقسام والتّشرذم والتّفكّك في مواجهة الأمواج المتتابعة من الغزاة من الغرب والشّرق، كما أنّها كانت محاولة لسدِّ الثّغرة التي سبّبها ابتعاد مؤسّسة الخلافة عن الدّفاع عن أراضي المسلمين بسبب الضّعف والخور اللذين ألما بها.

أولا: نشأة الأيُّوبيِّين

والأيوبيون (منتسبون إلى أيوب بن شاذي، زاد بعضهم ابن مروان...، ويقال: إن مروان من أولاد الخلفاء الأموية،وادعى ذلك إسماعيل بن طغتكين ابن أيوب(1)، وأنكره عمه العادل أبو بكر(2)...، وإنما هو من الأكراد الروادية وهي بطن من الهذبانية، من بلد دوين(3) في آخر أذربيجان من جهة أرّان(4) وبلاد الكُرّج(5)،وكان له من الولد " أيّوب " (6) وهو الأكبر و"شيركوه"(7) فقدم بهما أبوهما العراق...)(8)، والرّاجح عند الباحث أن نسب الأيّوبيين يرجع إلى

(1) المعز إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين، تولى الحكم في اليمن سنة 593هـ بعد موت والده، وهو الذي انتسب للأمويين وتم قتله من قبل مماليكه سنة 598هـ.. ابن خلكان،أبو العبّاس شمس الدّين(د.ت). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان.(د.ط)بيروت:دار صادر 524/2.

(2) أبو البكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي، الملقب بالملك العادل، أخو السّلطان صلاح الدين، خطب له في مصر سنة 596هـ، وفي حلب سنة 598هـ، ثم ملك بلاد اليمن في سنة 612هـ،وكان ملكا ذا رأي ومعرفة تامة، حسن السّيرة، توفّي سنة 615هـ. انظر: ابن خلكان،وفيات الأعيان: 74/5-78.

(3) بلدة عند آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس في أرمينية،وجميع أهل ذلك البلد من الأكراد. انظر:الحمويّ،شهاب الدّين أبو عبد الله(1995م). معجم البلدان.ط2،بيروت، دار صادر 491/2، وبعد التدقيق الشديد فقد وجد الباحث أنّ هذه البلدة تقع إلى الشمال الغربي من أذربيجان داخل الحدود الأرمنية بالقرب من تبليسي عاصمة جورجيا.

(4) اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة (كنجة) وبرذعة (بردة) وشمكور وبيلقان.انظر:الحموي، معجم البلدان: 136/1. وقد زار الباحث هذه المنطقة التي ما تزال موجودة إلى الآن بهذا الاسم، وتمثل الحدود الشمالية الغربية لأذربيجان.

(5)الجميري، محمد بن عبد المنعم (1980).الروض المعطار في خبر الأقطار. ط2، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، 491/1. وأرض الكرج المذكورة هنا هي دولة جورجيا حاليا، وليست المدينة الواقعة بين همذان وأصبهان،وهي تقع على السفوح الجنوبية لجبال القوقاز؛ إذ استوطنها قوم عرفوا بالكرج، انظر:الحموي، معجم البلدان:36/2.

(6) أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين والد السلطان صلاح الدين يوسف؛ كان في أول أمره متسلما قلعة تكريت هو وأخوه أسد الدين شيركوه، وتوفي والدهما شاذي بها، ومولده هو بمدينة دوين من أعمال أذربيجان. واتصل بخدمة نور الدين زنكي، وتوفي في القاهرة سنة 568هـ.. انظر: ابن خلكان،وفيات الأعيان: 260/1.

(7) أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان، أبو الحارث، الملقب بالملك المنصور: أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين، وهو أخو نجم الدين أيوب، أرسله نور الدين على رأس جيش إلى مصر سنة 558هـ نجدة لشاور، وولاه الملك العاضد الوزارة، ولم يقم غير شهرين وخمسة أيام وتوفي فجأة سنة 564هـ،ودفن بالقاهرة ثم نقل إلى المدينة بوصية منه. انظر: الزركلي، الأعلام: 183/3.

(8) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم(1996).شفاء القلوب في مناقب بني أيوب.(ب ط) مكتبة الثقافة الدينية، تحقيق: مديحة الشرقاوي، ص 55-56.، وانظر: أبو شامة، الروضتين 167/2.

الأكراد؛لأنّ المنطقة المذكورة في أذربيجان تعتبر من مواطن الأكراد المعروفة في تلك البلاد، أمّا القبائل العربيّة فقد استطونت في وسط أذربيجان وليس على الأطراف.

وعنما انتقل شاذي إلى منطقة تكريت[1] في العراق مصطحبا ولديه،عيّنه شحنتها مجاهد الدين بهروز [2] حاكما عليها؛نظرا لصلات الصداقة التي تربطهما،ولمّا توفّي خلفه ابنه نجم الدّين أيّوب[3]،ومضى أيُّوب وأخوه إلى زنكي في الموصل فآواهما وأقطعهما إقطاعا عنده [4]. والجدير بالذكر أنّ صلاح الدّين[5] ولد سنة 532هــ في الليلة الّتي خرج فيها والده طريدا شريدا؛ لذلك (قال بعض الأيّوبية: خرجنا من تكريت ليلة ولادة صلاح الدّين، فتشاءموا به. فقال بعضهم: لعلّ فيه الخير وما تعلمون، وكان)[6].

ثانيا: علاقتهم بآل زنكي وبداية النّفوذ

التحق الأخوان بخدمة عماد الدين زنكي، وشاركاه في حروبه ضد الصليبيين كما شاركاه في قيادة القوات العسكريّة، فعيّن أيوب حاكما على دمشق، وشيركوه نائبا عنه، وصلاح الدّين رئيسا لشرطتها[7]،وهكذا نجد أنّ الأيّوبيّين قد اضطلعوا بمهام عظام في فترة حكم نور الدين زنكي أهّلتهم أن يكونوا فيما بعد خلفاء الدولة الزنكية، حيث تمكّنوا من الدّولة وسيطروا على مفاصلها الحيوية، فضلا عن أنهم كانوا يسعون لتحقيق الأهداف نفسها التي كان يسعى لها نور الدين زنكي، وهي توحيد الشام ومصر في سبيل القضاء على الخطر الصليبي.

---

(1) مدينة مشهورة بين الموصل وبغداد.

(2) هو مجاهد الدين جمال الدولة بهروز كان خادما روميا أبيض اللون تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين مفجرت لبهروز قضية في دوين، فخرج منها حياء وحشمة. انظر: ابن خلكان،وفيات الأعيان:256/1، 141/7، **والشحنة**: هو رئيس الشرطة والمسؤول عن الأمن. انظر: المقريزي،تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي(1997م).السلوك لمعرفة دول الملوك. ط1،بيروت، دار الكتب العلمية، تح:محمد عبد القادر عطا 1/ 148.

(3) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان:139/1-140.

(4) انظر: المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر(1997هــ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة405/3. وانظر: ابن الأثير، الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل ص43.

(5) السلطان الناصر، صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، ولد في قلعة تكريت عام (532هــ -1137م)، كان واحدا من أعظم ملوك الإسلام،. كان أبوه نجم الدين،وأهله من قرية دوين.اختاره العاضد للوزارة وقيادة الجيش، ولقبه بالملك الناصر، ثم استقل بملك مصر، وكان الهدف الأكبر أمام مخيلة صلاح الدين (تحرير القدس الشريف)،وهكذا كان أعظم انتصار له على الإفرنج في فلسطين في " يوم حطين " الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى مابعد بيروت. وخلف 17 ولدا وابنة واحدة. انظر: ابن شداد، يوسف بن رافع بن تميم(1994هــ).النوادر السّلطانيّة والمحاسن اليوسفية.ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي.

(6) الحنبليّ،شفاء القلوب: ص 57.

(7) ابن خلكان،وفيات الأعيان: 474/3.

ثالثا: توحيد مصر والشّام

كأنّ الرياح جاءت وفق ما تشتهيه السفن حين جاء شاور[1] يطلب المساعدة من نور الدّين زنكي لاستعادة كرسيّ الوزارة الضّائع في القاهرة [2]، فأسرع نور الدّين منتهزا الفرصة بإرسال شيركوه وابن أخيه صلاح الدّين مع جند الشّام سنة(559هـ) [3]، فأقام شيركوه شاور في الوزارة بعد أن خلع منها[4]،ويتنصّل شاور من وعوده، وتتطوّر الأمور إلى أن يتمكّن أسد الدّين شيركوه وصلاح الدّين الأيُّوبيّ من دخول القاهرة سنة(564هـ)

ويحظى أسد الدين شيركوه بخلعة الوزارة في البلاط الفاطمي ويلقّب بالملك المنصور[5].ولكن شيركوه ما لبث أن توفِّي فاختار العاضد[6] للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدّين، ولقبه بالملك النّاصر[7]، وأكّد ابن شدّاد أنّ صلاح الدّين كان مدركا لأهميّة مصر في صراعه المقبل مع الصّليبيين حيث قال:(لما يسَّر الله لي الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح السّاحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي)[8].

وكان الخطر الرّئيسي الذي واجه صلاح الدّين هو الجيش الفاطمي المؤلّف من عدد كبير من الفرسان من السودان والأرمن؛ ولكنّ صلاح الدّين استطاع التّغلّب عليهم وإخراجهم من القاهرة بعد فشل التّمرّد الذي أشعله الجنود السودان[9]، كما استطاع بحنكته وتعاون القاضي الفاضل[10] معه اكتشاف المؤامرة التي دبّرت لتصفيته سنة 569هـ وإعادة الخلافة الفاطميّة، فما كان منه إلا أن ألقى القبض على رؤوس الفتنة وقام بصلبهم[11].

---

(1) هو شاور بن مجير السعدي، ولي الصعيد الاعلى بمصر في أيام العاضد، استوزر في مصر.اتهم بممالاة الإفرنج ضد أسد الدين شيركوه، وقتله صلاح الدين الأيوبي بعد ان دخل مع عمه شيركوه إلى القاهرة سنة 564هـ. انظر:الزركلي، الأعلام 154/3

(2) انظر: البنداري،الفتح بن علي(1979هـ).. سنا البرق الشامي.(ب.ط)، مصر: مكتبة الخانجي، ص19.

(3)ابن الأثير،الكامل: 305/9.

(4)ابن أيبك، عبد الله الدواداري(1972هـ).كنز الدرر وجامع الغرر.(ب.ط)،القاهرة، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور 26/7.

(5)ابن أيبك الداواداري، كنز الدرر: 35/7.

(6) هو أبو محمدعبد الله الملقب بالعاضد بن يوسف، آخر خلفاء وملوك مصر من العبيديين، ولي الخلافة بعد وفاة عمه الفائز(555هـ) انظر: ابن خلكان،وفيات الأعيان:109/3.

(7) المقريزي، المواعظ والاعتبار 405/3.

(8) ابن شداد، النوادر السلطانية 81.

(9) انظر: قاسم وعلي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري ص29.

(10) هو عبد الرحيم بن علي اللخمي(520-596هـ)، المعروف بالقاضي الفاضل:. ولد بعسقلان (بفلسطين)، ثم انتقل إلى القاهرة وتوفي فيها، كان من وزراء السلطان صلاح الدين، وكان سريع الخاطر في الإنشاء كثير الرسائل. الزركلي، الأعلام 346/3.

(11) انظر:ابن واصل، مفرج الكروب 235/1.

بالإضافة إلى الأخطار الداخلية التي تغلّب عليها صلاح الدين واجه خطر محاولة الإفرنج السّيطرة على مصر وحصارهم لدمياط، فما كان منه إلا أن أعدّ العدّة وطلب المدد من نور الدين زنكي، والّذي بدوره أسرع في إرسال هذه الإمدادات، فلما رأى الإفرنج ذلك انسحبوا وتراجعوا، فاستبشر المسلمون برحيلهم[1]، ولقد شبّه ابن الأثير الصّليبيين بالنّعامة التي خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين[2].

وقد عمد صلاح الدين الأيوبي إلى تدعيم سلطانه السياسي من خلال ترسيخ دعائم المذهب السّنّي؛ فقد أنشأ صلاح الدّين الأيوبي العديد من المدا رس السنّيّة نحو: المدرسة الكامليّة والمدرسة النّاصرية، كما أنه أحلّ القضاة الشافعية محل الشّيعة في جميع البلاد[3].

ولقد صادفت رغبة صلاح الدّين إلحاح نور الدّين زنكي بتغيير خطبة يوم الجمعة، وجعلها باسم الخليفة العباسي المستضيء بدلا من الخليفة الفاطمي العاضد [4].

رابعا: إقامة الخطبة للخليفة العباسي وقطعها عن الخليفة الفاطمي

عزم صلاح الدّين الأيّوبيّ على قطع الخطبة للفاطميّين، وانتدب خطيبا لذلك:(واختلفوا في الخطيب فقيل: إنه رجل من الأعاجم يسمى الأمير العالم، وقيل: هو رجل من أهل بعلبك يقال له محمد بن المحسن بن أبي المضاء البعلبكي...، وأقيمت الخطبة لبني العباس في أول المحرم، والعاضد مريض...، ومات العاضد في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وانقضت دولة الفاطميين من مصر بموته)[5]، وقوبلت الخطبة للخليفة العباسي بسكون وهدوء عجيب، (ولم ينتطح فيها عنزان) كما يقول ابن الأثير في تاريخه[6]، وهذا يدل على نجاح صلاح الدين الأيوبي في استمالة قلوب الناس له من خلال أعماله الرّائدة في التّعليم والإعمار والإنفاق، فضلا عن الشّخصيّة القياديّة العسكريّة الفذّة التي حباه الله بها.

---

(1)انظر:ابن واصل، مفرج الكروب 183/1.

(2)ابن الأثير،التاريخ الباهرص144.

(3)ابن الأثير،الكامل 362/9.

(4) علوان، عبد الله ناصح(1983).صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين.ط5، بيروت، دار السلام، ص36.

(5)ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة 5/ 356، وانظر: ابن الوردي،تاريخ ابن الوردي 77/2.

(6)ابن الأثير، الكامل: 365/9.

كما أنّ هذه الحادثة تدل بشكل قاطع على أن الدّعاء في الخطبة لخليفة معيّن يدل على استمرار الولاء لذلك الخليفة، وأن انقطاع الخطبة لخليفة آخر يشير إلى إعلان انقلاب على ذلك الخليفة، ونزع الشّرعيّة عنه؛ وذلك لأنّ نظام الحكم كان يستمدّ شرعيّته الأساسيّة من العلماء الذين كانوا يمثّلون قوة التّأثير الحقيقيّة في الجماهير.

وبعد وفاة نور الدين محمود (569هـ)استقرّ الأمر لصلاح الدّين الأيّوبيّ في ملك مصر، وصار يرنو لتحقيق حلم الوحدة بين مصر والشام التي اضطربت أوضاعها بسبب وفاة نور الدّين زنكي، وصغر سنّ الصّالح إسماعيل بن نور الدين، إضافة إلى الخطر الصّليبيّ في بلاد الشّام؛ فما كا ن منه إلا أن تحرك من مصر إلى بلاد الشام،ونجح في السيطرة على دمشق دون قتال[1]، واستولى على بعلبك وحمص وحماة وحلب في النهاية بعد عقد صلح مع حاكمها نتج عنه ضمّ حلب إلى الجبهة الإسلاميّة، وكذلك نجح في ضمّ الموصل بالطريقة نفسها[2].

خامسا: معركة حطين وتحرير القدس

بعد أن نجح صلاح الدّين الأيّوبيّ في توحيد الجبهة الإسلاميّة انصرف إلى الهمّ الأكبر الذي كان يسعى له، ألا وهو تطهير بلاد الشّام من الصّليبيّين وتحرير بيت المقدس؛ خصوصا بعد قيام حاكم الكرك المدعو ب" أرناط"[3] بحملة بحريّة على الجزيرة العربيّة هدفها مكّة والمدينة، ممّا أدى بصلاح الّدين إلى أمر أخيه العادل في مصر بإعداد أسطول قويّ لمهاجمة الصّليبيّين وسحقهم، وقد حقّق مراده في ذلك[4].

وقد كان لأعمال أرناط العدوانية الأثر الكبير في توحيد الجبهة الإسلاميّة وإبطال جميع التّحالفات مع الجانب الصّليبيّ، كما أن الغارات العديدة التي قامت بها قوات صلاح الدّين على الجانب الصليبي كانت سببا في حشد القوات الصّليبيّة في(منطقة جبل حِطِّين أو حَطين[5]، في

---

(1)انظر: ابن تغري بردى: النجوم 73/6.

(2) انظر:جبران نعمان، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك،84-89.

(3) هو هو البرنس أرناط (رينو دي شاتيون) صاحب الكرك والشوبك، من مردة الافرنج، اعتزم غزو المدينة المنورة، كان ملوك الفرنجة الذين وقعوا بالأسر في معركة حطين، فقتله صلاح الدين الأيوبي. انظر:ابن خلكان،وفيات الأعيان 176/7.

(4) انظر:قاسم وعلي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري ص 47-48.

(5) هو موضع بين طبريا وعكا بينه وبين طبرية نحو فرسخين،وكان صلاح الدين الأيوبي قد أوقع بالأفرنج سنة 583هـ وقعة عظيمة منكرة ظفر فيها بملوك الأفرنج ظفرا كان سببا لافتتاحه بلاد الساحل. انظر:الحموي، معجم البلدان 274/2.

مكان صخريّ استدرجهم إليه صلاح الدّين، مما أدّى إلى انكشاف استراتيجيّ في الجيش الفرنجيّ. وقد قاتل المسلمون وهم يصيحون صيحة رجل واحد: الله أكبر، فانتصروا)[1]

ويبيّن بيبرس المنصوري الفتوحات التي قام بها صلاح الدين الأيوبي في جبهة الشام بمافيها معركة حطين وفتح القدس قائلا: (وفي سنة 583هـ التقت معه الفرنج في صفورية، فأسر من الأسبتار[2] خلقا كثيرا. وفيها تسلم طبرية. وفيها كانت وقعة حطين، فأخذهم باليد.....، وكانت الوقعة يوم السبت، فلم يفلت من الفرنج إلا آحاد. وفتح عكا ومجدل، ويافا،والناصرة...وغنم من الأموال ما لا يحصى. ثم فتح بيروت،وصيدا...وعسقلان بالأمان.وسار إلى بيت المقدس، ونزل عليه يوم الأحد. وكان فيه ستون ألف مقاتلا، فتسلمه بالأمان بعد أن قرر على الفرنج كل رجل عشرة دنانير، وكل امرأة خمسة، وكل صغير وصغيرة دينارين. وكانت مدّة مقام القدس مع الفرنج إحدى وتسعون سنة. وفتح جبلة بالأمان. وفتح اللاذقية، وحصن الكرك والشوبك، وكوكب بالأمان)[3].

وهكذا يظهر الفرق جليّا بين معاملة الصّليبيّين للمسلمين في القدس عندما دخلوها وارتكبوا ما ارتكبوا فيها من مجازر، وبين معاملة صلاح الدّين الأيّوبيّ لهم حين دخلها بالأمان وعفا عن أهلها مقابل فدية يدفعونها، فمن لم يدفع الفدية كان في عداد الأسرى.

هذا القائد الربَّاني المتحمِّس لدينه ووطنه، لم يلبث وقتا بعد ذلك حتى وافته المنيّة سنة (589هـ) [4]، فدفن في مقبرة خاصّة في دمشق. وبوفاة صلاح الدين أسدلت السّتارة على مرحلة مضيئة من التاريخ الإسلامي، لتبدأ مرحلة من الخلاف والنّزاع واالفتن بين إخوته وأبنائه، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل: (أمّا هذا البيت فإن الآباء فيه اتّفقوا فملكوا، وإن الأبناء

([1]) انظر: طقوش، تاريخ الدولة الأيوبية ص96، وللإحاطة بتفاصيل معركة حطين، انظر:ابن تغري، النجوم الزاهرة 31/6-36.

([2])هي فرقة نشطت منذ سنة 1099م بعد السيطرة الصليبية على بيت المقدس حيث إن تأسيسها يعود إلى 1070م، كانت أهدافها في البدء تقديم خدمات علاجية للحجاج المرضى، ثم أصبحت فرقة عسكرية. انظر: عاشور، الحركة الصليبية 449/1-450.

[3]المنصوري، بيبرس(1993).مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ.ط1،القاهرة:الدار المصرية اللبنانية، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، ص 4.

[4] انظر:المقريزي، السلوك:227/1، وانظر:الحنبلي، شفاء القلوب 183/182.

منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم، فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه)[1].

سادسا: الأيوبيون بعد صلاح الدين

(استقر الأمر بعد وفاته لولده الأفضل (نور الدين علي)[2]وهو ولي العهد وأكبر إخوته...، وبمصر العزيز عثمان[3]، وبحلب الظاهر غازي[4]،وبحران والرها وميارفارقين وجعبر[5] والكرك والشوبك العادل أبو بكر وحماة والمعرة وسلمية[6]. ومنبج المنصور محمد[7]، وبعلبك الأمجد بهرام شاه[8]،وبحمص والرحبة(المجاهد شيركوه"بن محمد بن شيركوه"[9]...)[10]، دبّ الصّراع بين ورثة صلاح الدّين، وأخذ أبعادا عديدة أدّت إلى استفادة الصّليبيّين من هذه الفرقة؛ فقاموا بإرسال الحملة الصّليبيّة الخامسة(613هـ) ومن ثمّ السّادسة(625هـ) في زمن الكامل[11]، والتي كان من نتائجها احتلال دمياط ومن ثمّ عقد صلح لمدة عشر سنوات بين المسلمين والصّليبيّين تنازل الملك الكامل بموجبه عن القدس وبيت لحم، والذي أحدث صدى مروّعا في العالم الإسلاميّ إلى أن توفّي السّلطان الكامل سنة (636هـ) مما أدّى إلى انفراط عقد

---

(1) أبو شامة،الروضتين في أخبار الدولتين 254/4.

(2) هو أبوالحسن علي بن يوسف، تملك دمشق، ثم حاربه العزيز أخوه وقهره، توفي الأفضل في صفر سنة 622هـ. انظر: الذّهبيّ، شميس الدّين أبو عبد الله(2006م).سير أعلام النبلاء.(د.ط)،القاهرة:دار الحديث 21 / 254.

(3) هو االسلطان الملك العزيز أبو الفتح عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر، ولد في جمادى الأولى سنة 567هـ تملك مصر بعد أبيه، مات في العشرين من محرم سنة 595هـ، عاش 28 سنة، انظر: الذهبي،سير أعلام النبلاء 21 / 291_ 292.

(4)هو الملك الظاهر غياث الدين أبو منصور غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد في مصر سنة 568هـ، تملك حلب ثلاثين سنة، و توفي سنة 613هـ، ودامت دولته أربع عشرة سنة.انظر:الذهبيّ، سير أعلام النبلاء:233/21.

(5)قلعة على الفرات بين بالس والرقة. انظر:الحمويّ،معجم البلدان 2/ 142.

(6)بليدة من ناحية البرية من أعمال حماة. انظر:الحموي،معجم البلدان240/3.

(7) هو المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن الأمير نور الدولة شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، كان له صيت كبير في الشجاعة، تملك حماة بعد موت والده. انظر: الذّهبي،سير أعلام النبلاء 203/21.

(8) هو الملك الأمجد (ت628هـ) بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، كان صاحب بعلبك، سكن دمشق و قتله مملوك له. الزركلي،الأعلام:76/2.

(9) هو أسد الدين شيركوه بن محمد، أعطاه صلاح الدين حمص والرحبة بعد وفاة أبيه محمد بن شيركوه سنة 581هـ،فأقام بها وحفظ المسلمين من الإفرنج، ومات بها سنة 637هـ. انظر:ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 316/6.

(10)الحنبلي، شفاء القلوب ص 197.

(11) أبو المعالي محمد بن أبي بكر الملقب الملك الكامل ناصر الدين صاحب الديار المصرية. وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب (ت635هـ). انظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان 89/5-91.

الدّولة الأيّوبيّة مرة أخرى،وتولّى السّلطان الصّالح نجم الدّين أيوب[1]السّلطنة الأيّوبيّة المتّحدة، واتّخذ القاهرة عاصمة له.وتمّ استعادة بيت المقدس من الصّليبيّين بعد أن منوا بهزيمة ساحقة سنة (637هـ). والذي أدى إلى استثارة حفيظة أروبا وتسييرها للحملة الصّليبيّة السابعة بقيادة لويس التاسع[2] سنة(647هـ)، وقد تصدّى لها السّلطان بكل بسالة على الرّغم من مرضه الذي كان يفتك به،إلى أن لاقى ربه في نفس السّنة في قصره بالمنصورة، وقد قامت زوجته شجرة الدر[3] بإخفاء خبر وفاته حتى لا يفتّ في عضد المسلمين، وتمّ النّصر للمسلمين و أسر قائد الحملة الصليبية لويس التّاسع وقضي على جيشه[4].

المبحث الثالث:التاريخ السياسيّ والعسكريّ للماليك البحريّة(648- 784هـ)

[1]السلطان الصالح نجم الدين أيّوب ابن الكامل ابن العادل سلطان الديار المصريّة ومولده بالقاهرة فى سنة ثلاث وستّمائة وبها نشأ، هو الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمّرهم بديار مصر، ومات سنة 647هـ. انظر: ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة 319/6-334.

[2] شجرة الدر الصالحية، أم خليل، الملقبة بعصمة الدين: ملكة مصر.، وتقدمت للملك، فخطب لها على المنابر، وضربت السكة باسمها بعد وفاة نجم الدين أيوب توفيت سنة 655هـ. انظر: الزركلي،الأعلام 158/3.

[3] القديس لويس التاسع ملك فرنسة Saint Louis المعروف بالفرنسيس أسره الملك المعظم توران شاه ابن أيوب.انظر:الزركلي الأعلام 58/1.

[4] انظر: قاسم وعلي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري 88-110.

المماليك: جمع مملوك، وهو اسم المفعول مشتق من الفعل ملك، وتعني في اللغة العبد([1])، أمّا في المعنى الاصطلاحي فقد اقتصر في معظم البلاد الإسلامية على الرّقيق الأبيض ([2])، كما أنّ لفظة المماليك نفسها تعني الّذين يملكون بقصد تربيتهم والاستعانة بهم كجند أو ما شابه ذلك،على عكس لفظة العبيد التي تعني العبودية، فالعبد يولد من الرقيق، بينما يولد المملوك من أبوين حرين([3])،وقد صار رقيقا لأسباب عديدة، منها الأسر في الحروب، أو للشّراء من التّجّار الذين دأبوا على جلبهم إلى البلاد الإسلامية، طالبين مقابلهم أثمانا باهظة([4]).

أولا: نشأتهم

يرجع استخدام المماليك في الجيوش الإسلامية إلى أيام الدولة العباسيّة على الأرجح، حيث كان ذلك واضحا في عهد المعتصم بالله(ت227هـ)، والذي شكّل من المماليك الأتراك فرقا عسكرية، وكان يرسل من يشتريهم، وهكذا أصبح الأتراك عنصرا ذا أهميَّة في المجتمع الإسلاميّ([5])، وبذلك ظلّت الدّول القائمة آنذاك تعتمد على هذا العنصر، حتى جاء الأيّوبيون الذين ساروا على نهج الدّول التي سبقتهم في الإكثار من المماليك الأتراك واستخدامهم في الجيش،فكان جيش صلاح الدين مكونا من عدة فرق منهم، وقام هو بنفسه بشراء مجموعة وكون منهم فرقة يقال لهم المماليك الصلاحية نسبة إليه، وكان أكثر الأيوبيين جلبا للماليك الملك الصّالح نجم الدين أيوب([6]).

والسّلطان الصّالح نجم الدين أيوب(جمع من المماليك الترك ما لم يجمعه غيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه، وسمّاهم البحرية)([7]).وتعود أصول هؤلاء المماليك الذين جاؤوا إلى مصر عن طريق التّجار إلى بلاد القفجاق الواقعة شمالي البحر الأسود، كما تعود أصول غيرهم إلى شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وآسيا الصغرى، وفارس،

---

(1) لسان العرب، ابن منظور: مادة ملك.

(2) عطيّة الله، أحمد (1966هـ).القاموس الإسلامي.ط1،القاهرة: مكتبة النهضة المصرية557/2.

(3)ماجد، عبد المنعم(1982م). نظام دولة سلاطين المماليك،.ط2،القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية 11/1.

(4) انظر: المقريزيّ،السلوك لمعرفة الملوك 441/1،360.

(5) النهار، عمار محمد(2007م). العصر المفترى عليه: عصر المماليك البحرية. (دراسة فكرية)،ط1، دمشق: دار النهضة ص23.

(6) انظر: المصدر السابق: 24/23.

(7) الحنبلي، شفاء القلوب: ص 340.

وتركستان، وبلاد ما وراء النهر، ومنغوليا، وأوروبا[1].ولم يحل ذلك الأصل دون تربيتهم تربية طيبة، وإعدادهم أحسن إعداد لوظائف الحكومة والإدارة والجيش[2].

وقد استطاع المماليك الاستيلاء على الحكم، ليؤسسوا دولة شملت ثلاث مناطق مهمّة:بلاد مصر، و بلاد الشام، وعدد من القلاع ومدن الشمال الحدودية بين جبال طوروس وبلاد ما بين النّهرين شرقا، وبلاد الحجاز في شمال غرب جزيرة العرب[3]. وفي هذا الصّدد يقول ابن إياس:(فمكّن الله لهم الأسباب، وفتح أمامهم الأبواب، وعوّضهم بعد المذلّة والهوان، وفراق الأقارب والإخوان، ودخولهم في الإيمان، فمنهم من يصير أميرا، ومنهم من يصير سلطانا)[4].

ثانيا: تربيتهم وإعدادهم

عني سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك بتربية مماليكهم تربية خاصة، وتثقيفهم وتعليمهم فنون الحرب والقتال، وخصصوا لذلك ثكنات عسكرية في قلعة الجبل عرفت بالطباق[5]،ولم يكن يسمح لهؤلاء المماليك، وخصوصا الصغار منهم بمغادرة تلك الطباق. وقد وصف المقريزي الحياة والعادات ومواد التدريس ومراحله فقال: (كان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، منها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان، وأنزله في طبقة جنسه، وسلمه لطواشي برسم الكتابة، فأوّل ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، ولكلّ طائفة فقيه يأتيها كـــل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن،...وملازمة الصلوات والأذكار،فإذا صار إلى سنّ البلوغ، أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السّهام، ولعب الرّمح، ونحو ذلك فيتسلّم كل طائفة معلّم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه...، وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصيرمن الأمراء، فلا يبلغ هذه إلا وقد تهذّبت أخلاقه،وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه...؛ فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك)[6].

---

(1) انظر: ماجد، نظام دولة سلاطين المماليك 12/1.

(2) العبادي، أحمد مختار.(ب ت). قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة ص95/94.

(3) انظر:.مهدي،شفيق.(2008).مماليك مصر والشام.ط1، بيروت:الدار العربية للموسوعات ص16

(4) ابن إياس،بدائع الزهور: 291/1.

(5) جمع طبقة وهي ثكنات جيوش المماليك بالقلعة، و كانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد . انظر: دهمان، محمد أحمد(1990م) معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ط1،دمشق: دار الفكر ص50، وانظر المعجم العسكري المملوكي. العمايرة، محمد سالم(2011م).المعجم العسكري المملوكي.ط1،عمان، كنوز المعرفة، ص194.

(6) المقريزي، الخطط 372/3-373.

ثالثا: سيطرتهم على الحكم

ظهرت دولة المماليك بموت الصّالح أيّوب سنة (647هـ) قبل أن يتمكّن من ردّ الحملة الصّليبية السّابعة على مصر[1]، فقام بإدارة شؤون الجيش مجموعة من كبار المماليك بمشورة زوجته شجرة الدّر(ت656هـ) إلى أن عاد توران شاه بن الصالح أيوب سنة(ت648هـ)[2] وانتصر على الصّليبيّين بفضل المماليك، إلا أنّه أهملهم وأعرض عنهم، فقتلوه، وولّوا أمرهم شجرة الدّر، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة [3] وكان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدّعاء للخليفة: (واحفظ اللهم الجبهة الصّالحية ملكة المسلمين، عصمة الدّنيا والدّين، ذات الحجاب الجميل والسّتر الجليل، أم خليل المستعصميّة صاحبة السّلطان الملك الصالح)[4]، لكنّ هذا الأمر لم يمرّ بسهولة،وخاصّة بعد اعتراض الخليفة على تولّي شجرة الدّر السلطنة في مصر، إذ أرسل الخليفة العباسيّ إليهم مستنكرا:(إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلا)[5]،ممّا دفع شجرة الدر إلى الاقتران بالمعزّ علي أيبك(ت655هـ)[6] ونزلت له عن الملك، فكانت مدة دولتها ثمانين يوما[7]، لكنها ما لبثت أن دبّرت مكيدة لقتله، ويتمّ قتلها من قبل مماليك المعز، وتتطوّر الأمور إلى أن سيطرقطز[8] على مقاليد الحكم[9].

---

(1) هي الحملة الصليبية التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع بعد مجمع ليون سنة 1249 م، والتي كان الهدف منها إعادة السيطرة على القدس، وتوجهت في بدايتها إلى دمياط وكان نتيجتها هزيمة الجيش الفرنسي على يد المماليك في المنصورة وأسر لويس التاسع. انظر: نعمان جبران، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص207-225.

(2) هو السلطان الملك المعظم توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، آخر ملوك بني أيوب بمصر، قتل من قبل المماليك البحرية سنة 648هـ بعدما أهانهم وهدّد شجرة الدربالقتل. انظر النجوم الزاهرة 6/364-372.

(3) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة 6/373.

(4) انظر: ابن تغغري بردي،النجوم الزاهرة 6/374،ابن كثير،البداية والنهاية 17/308،المقريزيّ، السلوك لمعرفة دول الملوك:1/459،ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور،ص73.

(5) المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك:1/464.

(6) الملك العز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي، كان تركي الأصل والجنس، عرف بين البحرية بأيبك التركماني وتزوج الأمير عز الدين أيبك بشجرة الدر، ونزلت له عن الملك، وقتل بأمر منها سنة 655هـ. انظر: المقريزيّ، السلوك 1/463-494.

(7) المقريزي،السلوك: 1/463.

(8) انظر:المقريزيّ، السلوك 1/507.

(9)المظفر قطز (ت658هـ/1260م) قطز بن عبد الله المعزي، سيف الدين: ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام، كان مملوكا للمعز "أيبك" التركماني، وترقى إلى أن كان في دولة المنصور بن المعز "أتابك"العساكر، ثم خلع المنصور، وتسلطن مكانه (سنة657هـ)، قتل (سنة658هـ) انظر:الزركلي، الأعلام 5/201، ابن إياس، بدائع الزهور 79.

رابعا: المظفر قطز ومعركة عين جالوت

تعرّض المشرق الإسلاميّ لخطر الغزو المغولي[1] الذي كانت جحافله قد اجتاحت معظم بلدان المشرق الإسلاميّ،وتمكّنت في أقل من نصف قرن من تقويض معظم الكيانات السّياسيّة في تلك البلدان[2]، فجمع قطز القضاة والفقهاء وكبار الأمراء وأعيان الدولة في دار السّلطنة بقلعة الجبل، وتحدّث معهم عن الحال وتقدّم المغول نحو بلاد الشّام، وأنّه لا بدّ للبلاد من سلطان قوي يواجه ذلك التّحدي الكبير، فمال أغلب الحضور إلى رأي قطز في أن يتولّى السّلطنة هو للاستعداد لمواجهة محتملة مع المغول، وتولاها فعلا سنة (657هـ)[3].

وكان المغول قد ارتكبوا الفظائع في بغداد في سنة 656هـ، وقتلوا الخليفة حيث يوضّح ذلك صاحب مختار الأخبار(وفي السّنة المذكورة نزل هولاكو على بغداد بجميع عساكره،...وقتلوا أهلها ونهبوهم سبعة أيام، وأخذوا منهم أموالا لا تحصى. وقبض هولاكو على الخليفة، وأمر أن يداس ويرفس إلى أن يموت. ففعل به ذلك...)[4] وقد ذكر المؤرخون تفاصيل تقشعرّ لها الأبدان تصف الوحشيّة التي كان يتعامل بها التّتار، لكن المقام يطول عن ذكرها.

استأنف المغول زحفهم نحو بلاد الشام، والتي بدأت تتساقط الواحدة تلو الأخرى بسبب التّصدّعات في الجبهة الأيّوبيّة، وقد (جاءت الأخبار بأنّ عسكر هولاكو قد وصلوا إلى أطراف دمشق، ونهبوا البلاد وقتلوا العباد، وكان ذلك في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، فلمّا وصل الخبر إلى الديار المصريّة، اضطربت وماجت بأهلها...)[5]، ونتيجة لذلك رفض المماليك الاستسلام للمغول،واتّفق الملك المظفر مع باقي الأمراء على المواجهة ومنع المغول من الوصول إلى مصر؛ فتوجّهوا إلى الشّام للقائهم بعد أن أتمّوا استعداداتهم العسكرية، والتّعبئة المعنويّة التي سنذكر جزءا منها عند الحديث عن الخطابة في العصر المملوكيّ، والتحم الجيشان في عين جالوت سنة 658هـ (فتلاقى هناك عسكر هولاكو وعسكر السّلطان قطز، فكانت

---

(1) عين جالوت اسم لبلدة صغيرة في الريف الفلسطيني تقع بين بيسان ونابلس. وقد أسماها الفرنج بعد احتلالهم فلسطين طوبانيا.انظر: قاسم، قاسم عبده (1998م)عصر سلاطين المماليك. ط1،القاهرة:عين للدراسات الاجتماعية والإنسانية ص67.

(2)ينحدر المغول من قبائل بدوية عاشت في منغوليا، ومنشوريا وسيبيريا، وعرفو بتربيتهم للخيل والجمال والثيران والغنم، وبأنهم جند متميزون يحسنون ركوب الخيل واستعمال القسي والسهام، وقد عرفوا فيما بعد بالتتار، كما اشتهروا بأنهم من أكثر الفاتحين وحشية في التاريخ. من أشهر قادتهم: جنكيز خان، هولاكو، تيمور لنك. **انظر: الموسوعة العربية العالمية.**

(3) حسن، صفوان طه (2010م). تاريخ الأيوبيين والمماليك. ط1، عمان: دار الفكر، ص 149.

(4) بيبرس الدوادار،مختار الأخبار ص10.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور 79.

بينهما ساعة تشيب فيها النّواصي، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عدده، فكانت الكسرة على التّتار،فكسروهم وشتّتوهم إلى بيسان...،ثم وقعت بينهما وقعة ثانية على بيسان أعظم من الأولى، فقتل من التّتار نحو النّصف، وغنم عسكر السّلطان منهم غنيمة عظيمة...)[1].

وهذه نتيجة المعركة باختصار والتي مثّلت بداية النّهاية لإمبراطورية المغول التي نشرت الذعر والخوف في جميع بقاع الأرض، فتصدّى لها المماليك وجرّعوهم مرارة الكأس التي جرّعوها للعالم في حقبة صبغها المغول بلون الدّم ورائحة الرّماد. أمّا السّلطان قطز، فقد قتل غيلة سنة(658هـ)، فخلفه الظاهر بيبرس[2] الذي حكم بين (658هـ-667هـ)[3].

خامسا: دولة المماليك بعد عين جالوت

لقد كانت هذه المعركة من أكثر المعارك حسما في التاريخ، إذْ أسفرت عن هزيمة ساحقة للمغول، كما أنّها جعلت سلطنة المماليك في مصر وبلاد الشّام القوّة المسيطرة، إذ بدأت شمس المماليك تسطع بقوّة في سماء مصر والشّام وتنتشر رويدا رويدا إلى باقي الدول المحيطة. والدولة المملوكية تعد من أغنى الدول بحكامها الأقوياء، أمثال الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون[4]، والأشرف خليل[5] والذين قضوا على بقايا الصّليبيين، وأوقفوا الزّحف المغوليّ على بلاد المسلمين. والذين تولوا بعدهم كثيرون[6]، منهم من لم يتولّ السّلطة إلا بضعة أيّام، أو أشهر معدودات، ومنهم من تولاه صبيا[7].وبعد وفاة الظّاهر بيبرس شهدت دولة المماليك ازدهارا آخر دام لمدّة مئة سنة إبّان حكم أسرة قلاوون، حيث تمّ إخراج الصّليبيّين من آخر معاقلهم على السّاحل الفلسطيني حيث فتحت عكا سنة 690هـ على يدي السّلطان خليل بن قلاوون، وتمّ

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور ص80.

(2) سامي أبو زيد، أدب الدول المتتابعة ص25، وانظر:ابن إياس، بدائع الزهور ص80.

(3)هو الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي(625-676هـ) ركن الدين، الملك الظاهر: صاحب الفتوحات والأخبار والآثار، وتولّى بيبرس سلطنة مصر والشام سنة(658هـ)،ولقّب بالملك الظاهر. توفي في دمشق ومرقده فيها معروف. انظر الأعلام: 79/2.

(4) هو السلطان الملك المنصور محمد بن حاجي قلاوون النجمي، السلطان الملك المنصور(620-689هـ)أول ملوك الولة القلاوونية بمصر والشام. كان من المماليك، كان من أجل ملوك"المماليك" قدرا ومن أكثرهم آثارا. انظر: الزركلي، الأعلام 203/5.

(5) الأشرف خليل بن قلاوون الصالحي (666-693هـ) ولي بعد وفاة أبيه (689هـ)واستفتح الملك بالجهاد وقاتل الإفرنج، فاسترد منهم عكا وصور وصيدا وبيروت وجميع الساحل، وكان شجاعا مهيبا، قتل بمصر. انظر: الزركلي،الأعلام 231/2.

(6) تولى الحكم في هذه الفترة خمسة وعشرون سلطانا بدءا بشجرة الدر (ت648هـ) وختاما بالصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان(ت783هـ). انظر: سلام،،محمد زغلول(د. ت). الأدب في العصر المملوكي.(د.ط) الاسكندرية: منشأة المعارف ص29.

(7) انظر: ضيف، شوقي (ب.ت).تاريخ الأدب العربي. ط3،القاهرة، دار المعارف 36/7-39

إيقاف الزّحف المغولي بالكامل في عهد السّلطان محمد بن قلاوون[1] الذي يعتبر من أزهى عصور هذه الدولة حيث كانت معركة مرج الصفّر(شقحب) سنة 702هــ على مقربة من دمشق آخر المعارك الهامّة في الصّراع الذي كان دائرا بين دولة المماليك والمغول[2].

وقد بدأ عهد من الانحدار يدبّ في أوصال الدولة المملوكية بعد وفاة السّلطان محمد بن قلاوون (ت741هــ)، حيث كان آخر سلاطين دولة المماليك البحرية السلطان الصّالح صلاح الدّين حاجي بن شعبان[3] والذي حكم حتى سنة (783هــ)[4]، وهو عهد بداية حكم المماليك البرجية[5].

---

[1] هو الملك الناصر محمد (684ه-741هــ)، ابن السلطان المنصور، وهو التاسع من ملوك الترك، بدأ نجمه يلوح بعيد مقتل أخيه الأشرف، كان ملكا مهيبا،، عزل مرتين من السلطة، لكنه عاد قويا وضرب على يد خصومه بالحديد والنار، انتصر على التتار في معركة شقحب(702هــ) الفاصلة، وكان من أجل الملوك قدرا، وأعظمهم نهيا وأمرا. انظر: ابن إياس،محمّد بن أحمد(1960م).بدائع الزهور في وقائع الدهور.(د.ط)، القاهرة:مطابع الشعب:148-149

[2] جبران،دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص329.

[3] هو السلطان الملك الصالح صلاح الدين أمير حاج ابن السلطان شعبان حسن ابن السلطان الملك الناصر محمد المنصور قلاوون،، تسلطن بعد وفاة أخيه الملك المنصورسنة 783هــ، وهو آخر بني قلاوون. انظر: ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة 206/11-215.

[4] المصدر السّابق 214/11.

[5] امتد حكمهم من سنة أربع وثمانين وسبعمائة للهجرة (784هــ) إلى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة(923هــ)، والمماليك البرجية معظمهم من أصل جركسي. وعرفوا بهذا الاسم لأنهم سكنوا أبراجا بقلعة القاهرة. وأول سلطان لهم الظاهربرقوق (ت801هــ)، ثم تولى بعده جمع من السلاطين. انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي 34/7.

الباب الثالث

الحياة العلميّة والأدبيّة في العصرين الأيُّوبي والمملوكيّ الأوّل

المبحث الأوّل: العصران الأيّوبيّ والمملوكيّ الأوّل بين الانحدار والتّطوّر

المبحث الثاني: الحياة العلميّة والأدبيّة في العصر الأيّوبيّ وعوامل ازدهارها

المبحث الثالث: الحياة العلميّة والأدبيّة في العصر المملوكيّ الأوّل وعوامل ازدهارها

المبحث الأول: العصران الأيّوبيّ والمملوكيّ الأوّل بين الانحدار والتّطوّر

كثيرة هي التّسميات التي أطلقها بعض الباحثين والأدباء على هذين العصرين، فمنهم من يسمهما بالانحدار والتراجع، ومنهم من يصفهما بالاجترار والتّجميع الموسوعيّ، وآخرون يبالغون في نعتهما بالتقليد والجمود[1].

ومن هذه الانطباعات السابقة وصف بروكلمان الإنتاج العلمي في هذين العصرين بأنه:(إنتاج يكاد يكون خلوا من الأصالة والإبداع بالكلية)[2]، ويقول فيلب حتّي عن عصر المماليك بأنه:(عصر تجميع وتقليد، أكثر منه عصر توليد وإبداع)[3]. أما جوزيف بارلو فيصف الثقافة العربية في عصر المماليك أنها كانت (تعيش منطوية على نفسها مع تنازلها عن مكانتها إلى الثقافات الفارسية والتركية)[4].

وذلك راجع إلى اعتقاد ترسّخ لدى كثير منهم بأنّ سقوط بغداد عام 656هـ كان حدًّا فاصلاً صارما بين قوة الدولة العربية الإسلاميّة ممثلة في الدّولة العباسيّة، وبين ضعفها وانحلالها وانهيارها ممثلة في عصر الدّول والإمارات حيث الأيوبيون والمماليك والعثمانيّون. ومن ثمَّ كان كذلك الحدّ الفاصل ــ في زعم الكثيرين ــ بين مرحلتي قوّة الأدب العربيّ وضعفه. وتلك رؤية استشراقية، غير موضوعية، بدأها كارل بروكلمان وتبعه فيها آخرون.

ويرى نبيل أبو علي أن السّبب في نشر هذه الاعتقادات هو كون الحكّام في تلك الفترة من أصول غير عربيّة، بالإضافة إلى نيلهم شرف الدّفاع عن العروبة والإسلام في فترة

---

[1] : مادة الأدب بين قرنين(بحث)، صديقة الرحيلي :online available
https://www.google.jo/?gfe_rd=cr&ei=4MhFU5eTPJCrjweazoH4CQ#q

[2] بروكلمان، كارل (1968م).تاريخ الشعوب الإسلامية.ط5، بيروت، دار العلم للملايين. تر: نبيه فارس، منير البعلبكي. ص 371. والغريب أن بروكلمان ناقض نفسه عندما نشر مجلدا كاملا من موسوعته تاريخ الأدب العربي يتعلق فقط بفهرسة مخطوطات وعلماء عصر المماليك.

[3] حتى، فيليب (1983م). تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. تر: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة. ص1.

([4] بورلو،جوزيف(2001م). الحضارة الإسلامية. دمشق، دار الكتاب العربي، تر: ريمة الفوال، ص 240-242.

الحروب الصليبيّة والغزو المغولي، ممّا أدّى إلى تنامي الحقد ضدّهم والسّعي لتشويه هذه الحقبة المشرقة عن طريق إطلاق الأحكام الخاطئة على أدب تلك المرحلة[1]

ولعل بعض المشتغلين بأدب تلك المرحلة عمد إلى إطلاق عبارة (عصر الانحطاط) على الأدب الأيّوبي والمملوكيّ لأنّه_في رأيهم_ لم يكن عصر أصالة وإبداع في العلوم عامة، كما أنّه بالمقارنة مع الأدب الأمويّ والعباسيّ لم يكن في المستوى نفسه من حيث البلاغة والفصاحة، لكن الباحث يرى أن هذا حكم عام ينبيء عن عدم اطّلاع حقيقيّ على أدب تلك المرحلة الذي حفل بالأعمال المبدعة.

وقد واجه هذه الادّعاءات عدد من الباحثين الجادين الموضوعيين، منهم: محمد عبد المجيد الطوانسي حيث قال:(ذلك الأدب الذي أصابه كثير من الظّلم في الأحكام، والإهمال في الدّراسات، رغم ما عج به من شعراء وكتاب لا يقلون عن أسلافهم) [2]، وعمّار محمد النّهار الذي دافع عن الأدب والعلوم في العصر المملوكيّ قائلا:(فلقد شهد عصر المماليك انتعاشا فكريا عظيما يوازي في كثير من تفاصيله ما شهدته الحضارة العربية الإسلامية من نهضة في عصورها المختلفة)[3] وكذلك محمود رزق سليم إذ يقول عن هذا العصر:(فقد راعني ما أصابه من جفاء، وهالني ما ناله من صدّ، وما رمي به حينا من أنّه عصر ظلمة وتأخّر، وانحطاط وتقليد، مع أنّه جليل الخطر، عظيم الأثر...)[4] وهذا ما ذهب إليه عمر موسى الباشا في وصف هذا العصر في الشّام ومصر مقارنا إياه بالعالم الغربيّ حيث يقول: (هكذا كانت بلاد الشّام في هذا العصر تنشر من مسجدها الجامع مع الجامع الأزهر في القاهرة أنوار المعرفة على العالم قاطبة في وقت كان الجهل يخيّم على العالم الغربي كله)[5].

والحقيقة أن العصر المملوكي تعرّض للظّلم أكثر مما تعرّض له العصر الأيّوبيّ؛ وذلك بحجّة أنّ الكثير من سلاطين المماليك كانوا لا يجيدون العربيّة بخلاف الأيّوبيّين الذين

---

[1] أبو علي، نبيل(2007م). المعطى الدلالي لشعر المديح وطابعه الديني في عصر سلاطين المماليك والعثمانيين. مجلةالجامعة الإسلامية، سلسة الدراسات الإنسانية، مجلد 15، عدد 2 ص 142.

[2] الطوانسي، محمد عبد المجيد (ب.ت).دراسات في أدب مصر الإسلامية. (ب.ط) القاهرة.: إدارة تبادل المطبوعات،المقدمة.

[3] النهار، عمار محمد (2012م). الدراسات النظرية الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية. مجلة دراسات تاريخية، عدد 17+18 (حزيران – كانون الثاني)، ص 246

[4] سليم، محمود رزق(1962م). عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ط2، القاهرة، مكتبة الآداب. المقدمة

[5] الباشا، عمر موسى (1972م). الأدب في بلاد الشام. ط2، دمشق، المكتبة العباسية ص 108.

كان بعضهم يعدّ من الأدباء والشّعراء، كما أنّ العصر المملوكيّ شهد انتشارا واسعا للألفاظ الأعجميّة أكثر ممّا كان عليه في العصر الأيّوبيّ حيث كانت اللّغة الرسميّة للسّلاطين هي اللّغة العربيّة، وأيًّا كان الأمر فإنّ العلم والأدب في أيّ عصر ما هما إلا انعكاس للحضارة التي تمثّلت فيهما، والمتمعّن في التّاريخ الإسلاميّ يعلم مدى الازدهار والتّقدّم والرّقيّ الذي حظي به العصران في جميع نواحي الحياة، والذي لولاه لما تجلّت الانتصارات والفتوح العظيمة التي ما زالت تروي قصص الحضارة الخالدة التي شيّدها الأيّوبيون والمماليك في مصر والشّام، وهي حضارة ما زالت آثارها شاهدة على تلك المرحلة الذهبية من تاريخ الأمة، فلقد شهدت مصر و بلاد الشّام في العصرين الأيّوبي والمملوكي الأوّل تقدّماً ورقيّاً وازدهاراً ونشاطاً عظيماً في الحياة العلميّة والأدبية؛ بدليل كثرة المراكز العلميّة والتّعليمية المتعدّدة والمتنوّعة، وكثرة العلماء المتعدّدي المواهب والفنون، وكثرة مؤلّفاتهم، وأثر هؤلاء العلماء في واقع أمتهم، وقيامهم بما أوجبه الله عليهم من تعليم وإرشاد،ووقوفهم في مقدّمة شعبهم وأمتهم في وجه الصليبيين والمغول.

أمّا بالنّسبة لما أثير عن ذلك العصر بأنّه عصر اجترار وتقليد، فهذا لا نسلّم به على إطلاقه؛ لأنّه يمكن أن يكون هناك إعادة لتدوين المعلومات التي ساهم الغزو التتري بإتلافها، لكن هذا لا يعني أن أقلام الإبداع قد توقّفت عن الإتيان بما هو جديد، وفي هذا يقول عمّار النّهار: (وإنّ من أعظم إيجابيّات علماء ذلك العصر أنّهم أعادوا وبزمن قياسيّ جميع ماخسرناه من التّراث والفكر العربيّ الإسلاميّ الذي تعرّض للنّهب والإحراق والإغراق والإتلاف على يد المغول، وتابعوا فوق ذلك مسيرة التّأليف والإبداع) [1]، وفيما يتعلق باتّهام هذين العصرين بأنهما عصرا مختصرات وشروح؛ فإنّ بعض هذه المختصرات والشّروح كانت تبدو أفضل من الأصول وأغزر، نحو: شرح ابن عقيل على الألفيّة، وشرح الإمام النّووي على صحيح مسلم.

والباحث يرى أنّ هذين العصرين تعرّضا لأحكام نقديّة عامّة، من خلال ما أشيع عنهما من أحكام عامّة تفتقر إلى الموضوعيّة والدّقّة في اتّباع منهج البحث العلميّ السّليم، والتي ربّما تكون قد أصدرت بقصد تشويه تاريخ تلك المرحلة المشرقة من قبل المستشرقين، أو عن غير قصد نتيجة للتّقليد الأعمى وعدم التحرّي في إصدار الأحكام المتسرّعة.

([1])عمار محمد النهار، مجلة دراسات تاريخية، ص 247.

المبحث الثاني: الحياة العلميّة والأدبيّة في العصر الأيوبيّ وعوامل ازدهارها

ازدهرت الحياة العلميّة والأدبيّة في هذا العصر، فكانت امتدادا للنّهضة العلميّة في العصر العباسيّ، على الرّغم من الأحداث الكبرى التي دهمت العالم الإسلاميّ آنذاك، والتي كانت عاملا من عوامل النّهضة العلميّة والأدبيّة لانصراف العلماء والأدباء للتّحفيز على المقاومة وبيان فضل الجهاد. وما الخُطب التي نحن بصدد دراستها، ورسائل القاضي الفاضل وغيرها من الفنون الأدبيّة إلا خير دليل على ذلك.

وقد وسم العصر الأيوبيّ بأنه عصر إحياء للفكر والثّقافة الإسلاميّة والعربيّة، كما كان عصر إحياء سياسيّ [1]؛ وذلك راجع إلى عدّة عوامل خارجيّة وداخليّة، أمَّا العوامل الخارجيّة فتتلخّص في الغزو التتريّ الذي أتى على الإرث العلميّ والحضاريّ الذي كانت تتميّز به الحواضر الإسلاميّة في بلاد الشرق وعلى الأخصّ بغداد، مما أدّى إلى هجرة العلماء الذين نجوا بأرواحهم إلى مصر والشّام ليسهموا بالنّهضة العلميّة المقبلة، نذكر منهم قاضي قضاة دمشق ابن خلِّكان، وإمام المحدّثين صدر الدين البكري. وهنالك في المغرب كارثة أخرى حيث انقسمت الأندلس إلى دويلات، فاحتلّ العدوّ كثيرا من بلدانها، ممّا أدّى إلى هجرة الكثير من العلماء إلى مصر والشام، نذكر منهم ابن مالك، وابن دحية، وابن حيّان[2].

والعوامل الدّاخلية تتركّز في اهتمام بني أيّوب بالأدباء والعلماء، وتشجيعهم، وإنزالهم المنزلة الرفيعة التي تليق بهم[3]، فقد كان صلاح الدّين الأيّوبي يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار[4]، وكذلك خصّص صلاح الدّين لأرباب العمائم –وهم رجال الدين– إقطاعا وراتبا يتجاوز مائتي ألف دينار، وربما كانت ثلاثمئة ألف دينار[5]. ولم يقتصر

---

[1] سلام، محمد زغلول(1990م). الأدب في العصر الأيوبي.ط3، مصر: منشأة المعارف ص85

[2] انظر: عمر موسى باشا،الأدب في بلاد الشام، ص 106-107.

[3] ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة 56/6-57.

[4] النوادر السلطانية، ابن شداد ص 66.

[5] علي، محمد كرد(د.ت). خطط الشام.ط2، دمشق: مكتبة النوري، 39/4.

الأمر على صلاح الدّين الأيوبيّ، بل تعدّاه إلى معظم السّلاطين الأيوبيين؛(فالملك العادل أبو بكر أيّوب أخو السّلطان صلاح الدّين كان شديد الحبّ والاهتمام بهم)[1]، وقد كان سلاطنة الأيّوبييّن- بخلاف المماليك- يشاركون مشاركة فعليّة في العلم والأدب ويصنّفون فيهما، بينما كان سلاطنة المماليك يكتفون بالتّشجيع وإغداق الأموال، وفي هذا يقول عبد اللّطيف حمزة:(وهنا لا نصادف ملكا من ملوك هذه الدّولة الأيّوبيّة أو أميرا من أمرائها قليل العناية بالعلم والاحتفاء بالأدب. بل أوشك أن يكون كلّ واحد من هؤلاء إمّا شاعرا، وإمّا فقيها، أو محدّثا، أو رجلا ذا تصانيف علميَّة أدبيَّة...)[2]، فهاهو المعظّم عيسى اشتهر بتعمّقه بالفقه والشعر وأنّه كان (فقيها أديبا فاضلا...، شرح "الجامع الكبير" وصنف في العروض، وله كتاب "السهم المصيب في الرد على الخطيب"...، وقد كان المعظم جعل لمن يحفظ "الجامع" مائتي دينار) [3]، أما الملك الكامل محمّد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيّوب فممّا حكي عنه أنّه كان يعظِّم أهل السنَّة، ويسعى إلى الاجتماع بالعلماء[4]، وقد عرف عن المنصور الأوّل صاحب حماة أنّه كان من كبار العلماء، وكان في خدمته من العلماء والفقهاء والنّحاة وغيرهم قريب من مائتي متعمِّم، وصنّف الملك المنصور عدة مصنّفات مثل المضمار في التّاريخ وطبقات الشّعراء...[5].

وما ذكرناه لا يمثِّل إلّا القليل من المواقف والأحداث التي تدلّ على انشغال سلاطين الأيُّوبيِّين بالعلم وتشجيعهم له، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في تطور الحياة العلميّة والأدبيّة وازدهارها، وقد عمّ هذا الازدهار جميع مجالات الحياة، نذكر منها:

أوَّلا: المجال الأدبيّ واللغويّ:

كانت السّليقة العربية لدى سلاطين هذه الدَّولة، وتقديرهم البالغ للعلوم والآداب، وملكاتهم الأدبيّة أمرا معروفا لديهم متوارثا عن أجدادهم؛ ممّا ساعد على وجود نهضة أدبيّة

---

[1] حمزة، عبد اللطيف (2000م). الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية.(ب. ط)، (ب. م): الهيئة المصرية العامة للكتاب ص30، وقد أسهب عبد اللطيف حمزة في بيان حب السلاطنة الأيوبيين للعلم والعلماء في الصفحات 30-31.

[2] حمزة،الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ص29.

[3] ابن قطلوبغا، زين الدين أبو العدل (1992م).تاج التراجم.ط1،دمشق: دار القلم، تح: محمد خير رمضان، 226/1.

[4] حمزة،الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ص 30.

[5] أبو الفدا،عماد الدين إسماعيل (ب.ت). المختصر في أخبار البشر. ط1، مصر: المطبعة الحسينية المصرية 3 / 125، وأبو الفدا(ت 732هـ) صاحب كتاب المختصر كان من أمراء الأيوبيين المهتمين بالعلم والتأليف، وقد كان حاكما لحماة، وكان محبا لأهل العلم مقربا لهم، كما كان عنده علم بالطب والحكمة والفقة وعلم الهيئة... انظر: المختصر 1/1.

واسعة شملت النّثر والشّعر، وجسّدت الحوادث الجسام التي حفّزت الأدباء على التّعبير. وقد ازدهر الشّعر في هذا العصر، ونبغ من البيت الأيوبيّ في الشّعر جماعة من الملوك والأمراء كالأمير تاج الدين بوري بن أيوب (ت579هــ) وله ديوان شعر [1]، وعز الدين فرخشاه (ت578هــ) حيث كان شجاعا شاعرا [2]، والملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك (ت 638هــ) فقد (كان أديباً فاضلاً شاعراً، له ديوان شعر موجود بأيدي الناس)[3].وغيرهم الكثير من الشعراء والأدباء[4].

ولقد أحبّ بنو أيّوب الأدباء وقرّبوهم (فقد كان صلاح الدّين كثيرا ما يجلس إلى العلماء والفقهاء والأدباء ليستمع إلى آرائهم، ويصغي إلى إنشاد الشّعر في أعقاب الانتصارات،...)[5]، ولا غرابة أن يقول صلاح الدّين مخاطبا بعض جنده:(لا تظنّوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم القاضي الفاضل)[6]

ثانيا: مجال إنشاء المدارس ودور العلم

كانت الدّولة الأيّوبيّة أوّل دولة أنشأت المدارس بمصر، ووقفت عليها الأوقاف التي تضمن حياتها بعد موت منشئها[7]، وقد تطرّق ابن جبير للكلام عن هذه المدارس وهو يذكر مناقب الإسكندريّة فقال:(ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه، المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطّبّ والتّعبّد، يغدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد مسكنا يأوي إليه، ومدرّسا يعلّمه الفن الذي يريد تعلّمه...) [8]، كما أنّ ابن جبير ذكر أنّه رأى بدمشق عندما زارها عشرين مدرسة ومارستان، بله المساجد الكثيرة، تقوم بالإنفاق على من يؤمّها طلبا للعلم من الأوقاف الكبيرة [9].

---

(1) ابن خلكان،وفيات الأعيان 290/1.

(2) ابن الوردي،تاريخ ابن الوردي 90/2.

(3) الكتبي، محمد بن شاكر(1973م).فوات الوفيات.ط1، بيروت: دار صادر، تح: إحسان عباس. 1/ 226-228.

(4) سلام، الأدب في العصر الأيوبي ص95.

(5) مرآة الزمان: 473/1.

(6) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة: 157/6.

(7) مصطفى، محمود (1967م). الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي. (د ط) دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ص272.

(8)ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي (د.ت). رحلة ابن جبير. ط1، بيروت: دار بيروت، ص15.

(9)المصدر السابق ص 255.

وقد حرص صلاح الدّين الأيوبي وخلفاؤه من بعده على توفير مصدر دخل ثابت يكفل لمنشآتهم التّعليميّة الاستمرار في تقديم خدماتها؛ ومن أجل ذلك رصدوا لها الأوقاف الوفيرة التي تضمن للملتحقين بها العيش في مستوى مناسب يمكّنهم من الانصراف إلى طلب العلم دون عناء كبير[1]؛ ممّا كان له الأثر الكبير في تفعيل الحياة العلميّة والحركة الثّقافية، وقد دفع هذا الوضع الكثير من طلّاب العلم في مختلف أنحاء الدّولة الأيّوبيّة آنذاك إلى أن يجعلوا من بلاد الشام، في كثير من الأحيان مقصد استقرارهم واشتغالهم بالعلم، لما زخرت به من مراكز تعليميّة، تحفل أغلبها بكافة سبل الرّعاية والتّشجيع التي كانت تقدم للنّازلين فيها[2].

وقد عني الملك النّاصر صلاح الدّين، بعد تحريره بيت المقدس من الصّليبيين، بإعادة الحياة العلميّة الدّينيّة إلى المسجد الأقصى أيضا، فأزال الآثار الصليبيّة منه ورتّب للمسجد الأقصى إماما وأقام على خدمته السّدنة بما فيهم الخطباء والمدرّسين [3].

ودرّس بالمسجد الأقصى الحسن بن الخطير بن أبي الحسين النّعماني الحنفي (ت598هـ)، وكان مبرّزا في النّحو واللّغة العربيّة والعروض والقوافي والشّعر، [4]، وغيرهم الكثير من العلماء والأدباء.

من أبرز المدارس التي أنشأها الملك النّاصر صلاح الدّين ولعبت دوراً مهمّاً في تخريج العلماء والفقهاء، المدرسة الصلاحيّة، حيث كانت أهمّ مؤسّسة تعليميّة في بيت المقدس، فبعد الفتح الإسلاميّ لبيت المقدس سنة 583هـ، جلس صلاح الدّين (وفاوض جلساءَه من العلماء والأكابر والأمراء والأتقياء الأخيار في أن يبني مدرسة للفقهاء الشّافعية ورباطاً للصّلحاء

---

(1) السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي(1413هـ).طبقات الشافعية الكبرى.ط2، مصر:هجر للنشر والتوزيع، تح:محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو. 7/ 340. أحمد، أحمد بدوي (د.ت).الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر ص 5-6.

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر 157/2.

(3) عبد المهدي، عبد الجليل حسن(1980م).الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي. ط1، عمان:مكتبة الأقصى، ص 54.

(4) الحموي،،شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت(ت 626هـ) (1999م). "معُجم الأُدباء.ط1، بيروت: مؤسسة المعارف "تح: عمر فاروق الطباع 213/3-214.

الصّوفيّة)([1]) وتنوّعت الموضوعات العلميّة التي كان العلماء يدرّسونها بالمدرسة الصلاحيّة،بين العلوم الشّرعيّة عامّة،وعلوم اللّغة العربيّة، والتّاريخ، والمنطق، وعلم الكلام([2]).

ولم يقتصر بناء المدارس على صلاح الدّين الأيّوبيّ، بل ساهم في هذا العمل أبناؤه وأمراؤه وأعيان الدّولة. ومن هذه المدارس: المدرسة الكامليّة والتي أنشأها الملك الكامل محمد بن الملك العادل سنة 621هــ ([3])،والمدرسة العادليّة الصّغرى التي بنتها زهرة خاتون بنت الملك العادل ، وغيرها الكثيرات ([4]). ولم يكن العلماء بمنأى عن هذا المشهد، حيث قام الضّياء المقدسيّ([5]) بإنشاء المدرسة الضيائيّة([6]). وهذا يدل على مدى الاهتمام الكبير الذي أبداه الأيّوبيّون وأمراؤهم والعلماء بإنشاء المدارس ودور العلم؛ لما لها من أثر كبير في نشر العلم والنور، والتي أدّت بدورها إلى إرساء روح المقاومة في مواجهة الموجات الصّليبية والتّتريّة الغاشمة.

ثالثا:مجال العلوم والمعارف

وهذا مجال واسع جدا، إذ يشمل العلوم الدّينية واللّغوية والطّبيّة والرّياضيّة والطّبيعيّة، والإسهاب في هذه العلوم ربما يستغرق صفحات كثيرة لا تتناسب والمقصد الأساسيّ من هذا البحث، لكنّ الباحث يرى المرور على بعض الأمثلة من هذه العلوم لبيان مدى التطور والازدهار العلميّ الذي حظي به هذا العصر.

فقد مرّ معنا في مجال العلوم الدّينيّة حرص الأيّوبيّين على العلم، وتكريمهم للعلماء، وكان القرآن الكريم موضع عناية فائقة لديهم، و كان صلاح الدّين يستقرئ من يحضره بالليل الحزبين والثّلاثة والأربعة وهو يسمع([7])،كما لقي الحديث النّبويّ الشّريف اهتماما كبيرا حيث يذكر السّيوطيّ أنّ صلاح الدّين رحل بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من الحافظ

---

(1) النعيمي،عبد القادر بن محمد، (ت 978هــ) (1990م).الدارس في تاريخ المدارس. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، تح: إبراهيم شمس الدين 485/1.، محمد كرد علي، "خطط الشام 121/6.

(2) عبد المهدي، عبد الجليل حسن(1981م).المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي. ط1،عمان: مكتبة الأقصى، 199/1.

(3)السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر(1967هــ).حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة.ط1،مصر،دار إحياء الكتب العربيّة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. 262/2.

(4) النعيمي: الدارس 278/1. والنعيمي يذكر العديد من النساء اللواتي ساهمن في البناء أو في وقف الأوقاف على هذه المدارس.

(5)أبو عبد الله، محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن الصالح الحنبلي، ولد بالدير المبارك بقاسيون سنة 569هــ، كان عالماً ورعاً زاهداً ومؤرخاً مجاهداً في سبيل الله. انظر: النعيمي، الدارس 72/2.

(6) الكتبي، فوات الوفيات: 427/3.

(7) ابن شداد،النوادر السلطانية 36/1.

السّلفيّ(1)،وكان الملك الكامل محبا للحديث وأهله حريصا على حفظه ونقله(2). أمّا الفقه فقد حظي باهتمام السّلاطين والأمراء. ومن مشاهير الفقهاء: العزّ بن عبد السلام(3)، وكمال الدين محمد بن عبد الله بن قاسم الشّهرزوري(4) وغيرهم كثيرون.

وازدهرت العلوم التّاريخية والاجتماعية، وتنوّعت التّصانيف سواء في التّاريخ العامّ أو التّاريخ الخاصّ بالبلدان أو السّير أو الطّبقات أو الوفيات، ومن الذين صنّفوا في التّاريخ العام حسب توالي السّنين: عزّ الدّين علي بن الأثير (ت 630هـ)(5) مصنّف كتاب "الكامل في التّاريخ"، وانصرف آخرون إلى التّاريخ الخاصّ: منهم أبو شامة المقدسي(6) في كتابه "الروضتين في أخبار الدّولتين النورية والصلاحية".

واهتمّ المسلمون بعلم الفلك، وبتقاويم البلدان والأقاليم؛ فقد روى أسامة بن منقذ أن لوالده معرفة بعلم الفلك (7)، كما ازدهر علم الطب وصناعة العقاقير، واشتهر من الأطباء: ابن البيطار(ت 646هـ)(8) وابن أبي أصيبعة(ت 668هـ)(9) صاحب كتاب " عيون الأنباء في

---

(1) هو أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي (ت 576هـ)، محدث جاب البلاد في طلب الحديث ثم استقر بالاسكندرية منذ سنة 511هـ إلى أن توفي فيها، قصده الناس من الأماكن البعيدة،. انظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان 105/1-107.

(2)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 228/6.

(3) سنفرد له ترجمة في فصل أشهر خطباء العصر الأيوبي.

(4)أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي ولد سنة (492هـ) بالموصل. وكان فقيها أديبا شاعرا كاتبا، وتوفي سنة (572هـ) بدمشق،. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان 241/4-245.

(5) عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الموصلي الشيباني، المعروف بـ ابن الأثير الجزري، ولد في جزيرة ابن عمر سنة (555هـ)،ثم رحل إلى الموصل واستقر بها، له مؤلفات في التاريخ، توفي في الموصل سنة (630هـ). انظر: ابن خلكان،وفيات الأعيان 140-142.

(6) شهاب الدين أبو القاسم، المقدسي الأصل، الدمشقي الدار، المعروف بأبي شامة. ولد سنة (599هـ) بدمشق وتوفي فيها سنة 665هـ. كان فقيها مؤرخا مقرئا نحويا.ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، ومشيخة الإقراء بالتربة الأشرفية. انظر: الأعلام: 299/3

(7) ابن منقذ، أسامة بن مرشد (ت584هـ)(ب.ت).الاعتبار.(ب.ط).مصر، مكتبة الثقافة الدينية، تح: فيليب حتي ص56.

(8) العلامة ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي النباتي الطبيب، ابن البيطار، ". انتهت إليه معرفة الحشائش، وكان أحد الاذكياء، وخدم الملك الكامل، وابنه الملك الصالح، توفي في دمشق سنة (646هـ). انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء: 256/23-257.

(9) أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة: الطبيب المؤرخ، زار مصر سنة 634هـ وأقام بها مدة سنة.ولد في دمشق وتوفي في صرخد سنة (668هـ). انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 229/7.

طبقات الأطبّاء". وشهدت علوم اللّغة العربية اهتماما كبيرا لارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم، ومن أشهر علماء اللغة: ابن الحاجب([1]) وابن مالك([2]).

([1]) ابن الحاجب عثمان بن عمر، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب(570 – 646 هـ): فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية. ولد في أسنا، ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق ومات بالاسكندرية. من مصنفاته: "الكافية في النحو " انظر:الزركلي، الأعلام 211/4.

([2]) محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين(600 – 672 هـ): أحد الائمة في علوم العربية، ولد في جيان (بالاندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه (الالفية) في النحو، وله (تسهيل الفوائد)، والكثير من الكتب اللغوية الأخرى. انظر: الزركلي،الأعلام:233/6.

المبحث الثالث: الحياة العلمية والأدبية في العصر المملوكي الأوّل وعوامل ازدهارها

لقد كانت دولة المماليك من حيث طبيعتها امتدادا طبيعيّا للأيّوبيّين ولمن سبقهم من الملوك والسّلاطين؛ وهذا يشيرإلى ازدهار العلوم والآداب في هذه الدّولة، إذ إنّ العلماء بنوا على النّهضة العلميّة الفتيّة في الدّولة الأيّوبيّة وأفادوا منها، وحاولوا التّميّز في نهضتهم من خلال العلماء المهاجرين من الأندلس وبغداد والذين أثروا بعلمهم وخبراتهم الحضارة المملوكيّة، ناهيك عن الامتداد الواسع للدّولة المملوكيّة، والذي بدوره ساهم في مزيد من التّقدّم والازدهار من خلال التمازج الحضاري والثّقافيّ والفكريّ.

كما أنّ أصول المماليك غير العربية وتربيتهم الدّينية جعلتهم يهتمّون اهتماما بالغا بتعليم اللّغة العربيّة وإبقائها اللّغة الرسميّة للدّولة، ناهيك عن العلوم الدّينيّة والتّاريخيّة وغيرها من العلوم؛ لكي يحظوا بتأييد ومساندة العلماء وأهل الحلّ والعقد في الاحتفاظ بالسّلطة، ممّا أدّى إلى ازدهار علميّ شمل جميع مجالات الحياة.

ولا أدلُّ على الازدهار من شهادة ابن فضل الله العمري[1](ت749هـ) صاحب "موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" حيث يقول: (وأبتدئ بالقاهرة التي هي اليوم أمّ الممالك وحاضرة البلاد، وهي من وقتنا دار الخلافة وكرسيّ الملك ومنبع العلماء...)[2]، أمّا عبد الرحمن بن خلدون[3] فيقول معرّفا بحضارة القاهرة: (ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أمّ العالم، وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصّنائع) [4]، وهذه الشّهادات لا تدلّ إلا على تطوّر وازدهار تميّزت به عاصمة المماليك على نظيراتها.

([1])أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين(700 – 749 هـ): مؤرخ، حجة في معرفة الممالك والمسالك وخطوط الاقاليم والبلدان، إمام في الترسل والانشاء، مولده ومنشأه ووفاته في دمشق.أجل آثاره (مسالك الابصار في ممالك الامصار). انظر: الزركلي، الأعلام 268/1.

([2]) العمري،أحمد بن يحيى (1988م). التعريف بالمصطلح الشريف. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، تح: محمد حسين شمس الدين ص217.

([3]) (ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيليّ (732 – 808هـ) المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق. انظر:الزركلي، الأعلام 330/3.

([4]) ابن خلدون، عبد الرحمن(1988م). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر.ط2، بيروت: دار الفكر،تح: خليل شحادة، ص479. والمصطلح عليه باسم "تاريخ ابن خلدون"

وفي ميدان الفكر قد امتاز العصر المملوكيّ بأنّه عصر الموسوعات الكبرى في الآدب والتّاريخ والتّفسير والفقه والحديث وغيرها، نحو: مقدّمة ابن خلدون، والبداية والنّهاية، والفتاوى لابن تيميّة،ومسالك الأبصار وغيرها. وهناك جانب آخر من الحضارة المملوكيّة لم يلتفت إليه الكثيرون ونعني به الجانب العسكريّ، ذلك أنّ الانتصارات المذهلة التي حققها المماليك من سنة 658هـ ـ 702هـ قد تحققت بسبب الشجاعة والعقيدة ونتيجة ازدهار ما يسمى بلغة اليوم بالصناعات الهندسيّة والعسكريّة، التي مكّنت المسلمين من تحرير قلعة عكّا في فلسطين([1]).

ولقد سار سلاطين المماليك على نهج أسلافهم الأيّوبيّين في تشجيع العلم والعلماء مع أنّهم لم يضارعوهم في المستوى العلميّ والأدبيّ، إلّا أنّهم حاولوا تعويض ذلك من خلال الحثّ على العلم وتحفيز العلماء وتوفير الظّرروف المناسبة للتّعلم، كما أنّهم كانوا يوقّرون العلماء ويحرصون على استشارتهم وكسب رضاهم؛فها هو السلطان قطز قد عقد مجلسا لاستشارة العلماء وعلى رأسهم العزُّ بن عبد السَّلام في أخذ أموال التُّجَّار لمواجهة التَّتار ([2])، كما أنّ السُّلطان المنصور بن علي بن أيبك التُّركمانيّ قد تمّ عزله وتولية قطز باستشارة القضاة لصغر سنّه([3])، وقد عقد مجلس استشارة آخر في عهد السّلطان النّاصر محمد بن قلاوون لاستشارة العلماء وعلى رأسهم ابن دقيق العيد([4]) في أخذ الأموال من النّاس لمواجهة التتار([5])، والذي بدوره أفتى بوجوب أخذ الأموال من الأمراء والسّلاطين ومن ثمّ طلب الأموال من التّجّار والشّعب، وقد تمّ احترام فتواه وعمل بها.

وكان بعض السّلاطين على قدر من العلم، فقد روى محيي الدّين بن عبد الظّاهر عن الملك الأشرف خليل بن قلاوون أنّه ما رأى ولا سمع بأحسن من فهمه، إذ كان يُعَلِّم على المراسيم، يقرأها جميعا، ويفهم ما فيها، ويقول: (بل كان يخرج علينا بأشياء كثيرة في صنعة الإنشاء ونرى فيها الصّواب منه([6]) وهو أول سلطان حشّى في مراسيمه بين السّطور بخطّ يده)([7])، وهذا يدلُّ على ضلوعه في اللّغة والأدب.

([1])النهار،العصر المفترى عليه: عصر المماليك البحرية ص14.

([2])سأذكر القصة بتفاصيلها عند بحث موضوع الخطابة في العصر المملوكي، انظر ابن إياس، بدائع الزهور ص78.

([3])المصدر السابق ص78.

([4])ستأتي ترجمته في "الخطباء من الاعيان" الخطابة في العصر المملوكي.

([5]) القصة مذكورة بالتفصيل في:المقريزي، السلوك 327/2.

([6])ابن إياس،بدائع الزهور ص107.

([7])المصدر السابق ص 102.

أمّا السّلطان بيبرس الجاشنكير([1]) فقد كان موصوفا بالعقل التّام والفقه. وقد كان السّلطان النّاصر محمّد يحضر مجالس العلم، ويخلع على العلماء، فلما افتتح الخانقاه التي أنشأها بجوار القصر بسرياقوس، وسمع السّلطان هناك على القاضي بدر الدّين بن جماعة عشرين حديثا، خلع على قاضي القضاة بدر الدين وعلى جماعة من الشّيوخ، وفرّق من الذّهب والفضّة على المشايخ ثلاثين ألف درهم([2])، وفي رواية أخرى ستّين ألف درهم([3]).

وهذا الاهتمام الذي أولاه سلاطنة المماليك وأمرائهم للعلم والعلماء كان من أهمّ الأسباب الّتي أدّت إلى الازدهار العلميّ والأدبيّ في هذا العصر، بالإضافة إلى العوامل التي ذكرناها في البداية من هجرة العلماء من بغداد والأندلس إلى القاهرة والشّام، والتّنوّع الثّقافيّ والحضاريّ الذي شهده ذلك العصر.

وسيمرّ الباحث على أهمّ المجالات التي كانت شاهدة على هذا التّطور والتّقدّم:

أولا: مجال التعليم (المدارس والمراكز العلمية)

اهتمّ المماليك بالتّعليم أيّما اهتمام، حيث كانت الحلقة الأولى في التّعليم تتمثّل في الكُتّاب الذي يتلقّى فيه الصِّبية تعليمَهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، ومن ثمّ المدارس التي انتشرت انتشارا واسعا، حتّى إنّ بطوطة عبّر عن دهشته من كثرتها قائلا:(لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها)([4]) وكذلك قول القلقشندي: (وفي خلال ذلك ابتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها)([5])، ويذكرالقلقشندي أن المدارس في مصر كانت قليلة في العصر الفاطميّ بل تكاد تكون معدومة، والدّولة الأيوبيّة كانت الفاتحة لباب الخير، والغارسة لشجرة الفضل([6])، ثم جاءت الدولة التركية(فأربت على ذلك وزادت فابتنى الظاهر بيبرس" المدرسة الظّاهرية" بين القصرين بجوار "المدرسة الصّالحية"،... ثم ابتنى الظّاهر برقوق "مدرسته

([1]) المظفر بيبرس بيبرس الجاشنكير المنصوري، ركن الدين (000 – 709 هـ): من سلاطين المماليك بمصر والشام.تسلطن سنة (708هـ) ولقب بالمظفر، توفي على يد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة(709هـ). انظر: الزركلي:الأعلام: 2/ 78-79.

([2]) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي:269/2.

([3]) المقريزي، الخطط والآثار 294/4.

([4]) ابن بطوطة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم(1997م).تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ص203/1.

([5])القلقشندي، أبو العباس أحمد (د.ت). صبح الأعشى في صناعة الإنشا. (د.ط) بيروت: دار الكتب العلميّة، 416/3.

([6]) انظر: المصدرالسابق 414/3-415.

الظّاهرية" بين القصرين فجاءت في نهاية الحسن والعظمة، وجعل فيها خطبة...)[1]، وما ذكره القلقشندي يدل بشكل واضح على الاهتمام الكبير الذي أولاه المماليك لبناء المدارس، وعبارته الأخيرة تدل على أن بعض هذه المدارس كانت تمارس فيها الخطابة أيضا.

ويذكر النّعيميّ في بداية كتابه أسماء العديد من دور القرآن ودور الحديث التي كانت متخصّصة في تعليم القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف، منها: دار القرآن السنجاريّة، ودار الحديث الأشرفيّة [2].

وكما عاينّا مشاركة المساجد ودور القرآن الكريم والحديث الشّريف في نشر العلم في العصر المملوكيّ الأوّل، فقد كان للخوانق[3] والزوايا[4] والرّبط[5] دور كبير في ازدهار الحركة العلميّة والأدبيّة في مصر والشّام في هذا العصر. وهذه الزّوايا والرّبط بالإضافة إلى دورها الدّيني، فقد كان لها دور تعليميّ ودور اجتماعيّ في إيواء الفقراء والمساكين[6].

وقد ذكر النّعيمي[7] العديد منها، وكذلك المقريزي[8] وفي ذلك كفاية لمن أراد الاستزادة.

ثانيا:العلوم الدينيّة:

وهي كثيرة ومتنوّعة، ومن خلالها أبدع العلماء الكّتاب مواضيع وأبواب لم تكن معروفة قبل ذلك، في الدّراسات الفقهية، وعلوم القرآن الكريم، وعلوم الحديث النّبويّ الشّريف، ومعظم الكتب التي نعتمد عليها في تدريس العلوم الدينيّة واللّغوية كانت من نتاج هذا العصر. وسآتي على ذكر أمثلة مقتضبة خوف الإطالة:

---

(1) المصدر السابق 3/416-417، وانظر: الخطط للمقريزي 4/199-266 حيث يعقد فصلا خاصا يذكر فيه المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(2) انظر:النعيمي، الدارس 1/11-15.

(3) مفردها خانقاه "وهي كلمة فارسية معناها بيت، وقيل أصلها خونقاه، أي: الموضع الذي يأكل فيه الملك، وقد أحدثت الخوانق في حدود الأربعمائة هجرية، وجعلت لتخلو الصوفية فيها لعبادة الله تعالى". انظر: الخطط للمقريزي 4/280-302.

(4) كلمة تطلق على كل مسجد صغير فيه أحد الرجال المشهورين بالتقوى و الصلاح و العبادة، و يقوم بوظيفة الوعظ و الإرشاد لمن يتردد عليه، ولا يوجد فيه منبر أو مئذنة، وقد يوجد فيه محراب. انظر معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي حرف الزاي.

(5) في مصطلح أهل دمشق كالخانقاه: دار لنزول الصوفية يقيمون فيها عاكفين على العبادة و هم من الرجال و بعض النساء المتعبدات أحياناً،ولهم غرف صغيرة للتعبد.انظر: المصدر السابق حرف الراء.

(6) انظر: عبد الجليل عبد المهدي،الحركة الفكرية في ظل االمسجد الأقصى ص74-78.

(7)انظر: النعيمي،الدارس في تاريخ المدارس 2/109-231.

1_علوم القرآن:

كعلم القراءات والتفسير وعلم إعراب القرآن وغيرها من العلوم التي وجدت لخدمة القرآن الكريم. ففي علم القراءات لقيت القصيدة المعروفة بالشّاطبية[1] اهتماما بارزا من علماء العصر المملوكيّ سواء بشرحها أو بالكتابة على غرارها[2]، وهي من نظم القاسم بن فيرة بن خلف الشّاطبيّ (ت590هـ)[3].

وقد ظهر في العصر المملوكيّ عدد من كبار المفسّرين منهم: القرطبيّ حيث ألّف كتاب الجامع لأحكام القرآن[4] وهو من أهمّ تفاسير آيات الأحكام،وأبو حيّان الغرناطي[5] صاحب تفسير "البحر المحيط" والذي يعتبر من أروع التّفاسير التي تركّز على الجانب اللّغويّ.

2_علوم الحديث:

اهتمّ المماليك بعلم الحديث، وأنشأوا دورا خاصّة لتدريسه كما أسلفنا، فزادت العناية به وكثر المحدِّثون الذين اهتمُّوا بعلوم مصطلح الحديث، وعلوم المتن والسند. وأشهر كتب المصطلح التي تناولوها بالشّرح والاختصار هي " مقدّمة ابن الصّلاح في علوم الحديث "[6] حيث اختصرها الكثيرون أبرزهم محيي الدّين النّووي[7]..وقد كان الزّركشي[1] هو الأوّل الذي ألّف في الأحاديث المشتهرة في كتابه " اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة"[2].

---

(1) انظر: الخطط للمقريزي 302/4-307.

(2)هي قصيدة: حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني، ولها شروح كثيرة أحسنها وأدقها شرح الشيخ برهان الدين بن إبراهيم الجعبري 732هـ وهو شرح مفيد مشهور سمّاه " كنز المعاني". انظر: خليفة، حاجي(د.ت). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.(د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت 646/1.

(3) انظر: العطاري، جلال يوسف (1995هـ).النثر الفني في العصر المملوكي الأول. رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية ص 35.

(4) (000 - 671 هـ) محمد بن أحمد بن أبي بكر الاندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين.رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها. انظر: الأعلام 322/5.

(5) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الشيخ الإمام الحافظ العلامة فريد العصر وشيخ الزمان، أثير الدين أبو حيان الغرناطي قرأ القرآن بالروايات، وأما النحو والتصريف فهو إمام الدنيا فيهما، وله اليد الطولى في التفسير، مولده بغرناطة سنة (654هـ)وتوفي بالديار المصرية في أوائل سنة (745هـ)رحمه الله تعالى. انظر:فوات الوفيات 71/4-72.

(6)ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) ابن عثمان بن موسى، المعروف بابن الصلاح(577 - 643 هـ) : أحد الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه، ولد في شرخان (قرب شهرزور)،.وانتقل إلى دمشق، فولاه الملك الأشرف تدريس دار الحديث، وتوفي فيها.له كتاب " معرفة أنواع علم الحديث " يعرف بمقدمة ابن الصلاح. انظر: الزركلي،الأعلام 207/4.

(7)يحيى بن شرف بن مري بن حسن، النووي، الشافعي، محيي الدين(631 - 676 هـ): علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران) واليها نسبته. له كتاب شرح مسلم في الحديث. انظر:الزركلي، الأعلام 149/8.

3_ علم الفقه:

نشطت الدّراسات الفقهية أيّما نشاط وفق المذاهب الأربعة كما أسلفنا الذّكر عند كلامنا عن المدارس، فمعظم الكتب المعتمدة في تدريس المذاهب الأربعة كانت قد ألّفت في هذا العصر، منها على سبيل الذّكر لا الحصر:

"المنهاج" للإمام النووي في المذهب الشّافعي،وقد برع العزّ بن عبد السّلام في الفقه حتى إنه أبدع باباً جديداً فيه لم يسبقه إليه أحد؛ هو (باب المقاصد)، حيث أرجع الفقه كله إلى اعتبار المصالح ودرء المفاسد(3).وقد برز الفقيه الشافعي عبد الرحيم بن عمر الأسنوي(ت772هـ)،وكتابه " الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النّحوية من الفروع الفقهية " (4)،أول كتاب يجمع بين دفّتيه الفروع الفقهيّة منزّلة على القواعد النّحويّة(5).

ثالثا: علم التّاريخ

اهتمّ علماء العصر المملوكيّ بالتّاريخ سواء أكان عامًّا أم خاصًّا لفترة محدَّدة، كما كانت هناك كتابات متخصِّصة في السّير وتراجم الأعلام والأعيان، فمن العلماء من اتجه إلى التّاريخ العام نحو سبط ابن الجوزي الّذي ألّف "مرآة الزّمان"في أربعين مجلّدا(6)، ومِمّن اتَّجه إلى التّاريخ الخاصّ بالإسلام الإمام الذهبيّ في كتابه "تاريخ الإسلام" الذي يربو عن عشرين مجلّدا، وألف ركن الدّين بيبرس الدّوادار(7)"التّحفة الملوكيّة في الدّولة التّركيّة". ومن المؤرِّخين من اهتمّ بتاريخ التراجم، نحو ابن خلِّكان(8) في كتابه"وفيات الأعيان".وكما نرى فلقد كثرت المؤلفات في فنّ

---

(1) محمد بن بهادر بن عبد الله العلامة المصنف الزركشي ولد سنة (745هـ)أخذ عن الشيخين جمال الدين الإسنوي وسراج الدين البلقيني **كان فقيها أصوليا أديبا فاضلا**. توفي سنة (749هـ).انظر: ابن قاضي شهبة،أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر(1987م).طبقات الشافعية.ط1،بيروت: عالم الكتب، تص: عبد العليم خان، 168/3.

(2) الزركشي، أحمد بن بهادر(1996هـ).اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة.ط1،المكتب الإسلامي، بيروت. تح: محمد الصباغ.

(3) السيوطي،عبد الرحمن(1990م) الأشباه والنظائر. ط1،بيروت، دار الكتب العلمية. ص8.

(4) انظر: الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن (1985هـ).الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النّحوية من الفروع الفقهية.ط1،عمان: دار عمار، تح: محمد حسن عواد. وانظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية 101/3.

(5)عمار محمد النهار:الدراسات النظرية الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية ص251.

(6)انظر: كشف الظنون 1647/2. وقد اختصره قطب الدين البعلبكي (ت726هـ) في كتاب "ذيل مرآة الزمان" وقال عنه: (رأيت أن أجمع التواريخ مقصدا وأعذبها موردامرآة الزمان).

(7)بيبرس المنصوري الدوادار، ركن الدين(000 – 725 هـ): مؤرخ من الامراء بمصر. وكان من مماليك المنصور قلاوون، له تصانيف، منها)، و (التحفة الملوكية في الدولة التركية – خ). وكان الأمير من بقايا الخير. انظر:الزركلي، الأعلام 80/2. وانظر: النويري، شهاب الدين أحمد(2004م). نهاية الأرب في فنون الأدب.ط1،دار االكتب العلمية، بيروت،تح:مفيد قمحية،138/33.

(8)أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان قاضي القضاة شمس الدين الإربلي الشافعي؛ ولد باربل سنة (608هـ) كان فاضلاً بارعاً متقناً بصيراً بالعربية،علامة في الأدب والشعر، وصنف كتاب وفيات الأعيان توفي سنة(681هـ).انظر: الكتبي، فوات الوفيات:110/1.

التّاريخ في عصر المماليك، وفي فن التّراجم خاصّة أكثر من غيره، وبات ذلك سمة مميّزة لعصر المماليك، وجلُّ كتب التّراجم التي نعتمد عليها الآن كانت قد أُلِّفت في العصر المملوكيّ.

رابعا: علوم اللّغة العربيّة(النّحو والمعاجم والأدب)

أدّى الشعور بأهمّيَّة النّحو في فهم القرآن الكريم إلى نهضة حقيقيّة في هذا العلم، تمثّلت في الاهتمام بالكتب القديمة في النّحو بالشّرح والتّعليق،وتأليف العديد من الكتب الحديثة في هذا المجال. ومن عمالقة النّحو في هذا العصر: ابن مالك (ت 672هـ) الذي ألّف كتبا عديدة، منها: " ألفية ابن مالك"، و"الخلاصة"، و"الكافية الشافية"، وابن هشام[1] (ت761هـ) وله مؤلفات جليلة منها: "قطر النّدى"،"شذور الذهب".

أمّا بالنِّسبة للمعاجم فقد تعدّدت مناهج التّصنيف في هذا العلم وازدهرت بشكل كبير، ومن أهمِّ الكتب التي أُلِّفت في هذا العصر " لسان العرب" لابن منظور (ت711هـ)[2]، وقيل عنه إنَّه أعظم كتاب أُلّف في مفردات اللّغة العربيّة وهو أكبر معجم لغويّ ظهر في الأزمنة الماضية،وهو في الوقت نفسه كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وآداب وشرح للحديث الشّريف وتفسير للقرآن الكريم[3]. أما بالنّسبة للأدب فقد ازدهرت بعض علومه خصوصا فنّ الكتابة، وبلغ الكتَّاب منازل رفيعة لدى سلاطين المماليك قاربت منازل أصحاب السّيوف وكبار القضاة، وقد كان رئيس الكّتاب منذ العصرالفاطميّ وخلال فترة العصر الأيّوبيّ صاحب ديوان الإنشاء، وكان بمنزلة الوزير، بل ربّما ارتفع عن منزلة الوزارة إلى مرتبة نائب السّلطان، واستحدث المماليك منصباً جديدا في الكتابة إلى جانب صاحب ديوان الإنشاء أو كبير الكتّاب هو " كاتب السّر" أو رئيس الدّيوان السّلطاني[4]، ومن أشهر كّتاب العصر المملوكيّ؛ محيي الدّين عبد الله بن عبد الظّاهر (ت692هـ)[5]، والملقّب بشيخ أهل الترسُّل. كما أنّ العصر المملوكي شهد إبداع فنّ

([1])عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري(708هـ – 761هـ)، النحوي الفاضل العلّامة المشهور أبو محمّد أتقن العربية ففاق الأقران بل الشيوخ،قال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنّه ظهر بمصر عالم بالعربية، يقال له ابن هشام، أنحى من سيبويه. انظر: السيوطي، جلال الدين (1979هـ). بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنُّحاة. ط2، دار الفكر، دمشق، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،1/ 68-70.

([2]) ابن منظور (630 – 711 هـ) محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، صاحب (لسان العرب): الامام اللغوى الحجة.ولد بمصر وخدم في ديوان الانشاء بالقاهرة،وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد. انظر:الزركلي، الأعلام 108/7.

([3]) انظر ابن منظور، جمال الدين محمد(1997م) **لسان العرب**. ط1، دار صادر، بيروت، مج 1،المقدمة،ص ٥،٦، وانظر الكتاب.

([4])سلام، محمد زغلول(د.ت)الأدب في العصر المملوكي.(د.ط) منشأة المعارف، الاسكندرية، 17/2.

([5]) ستأتي ترجمته في " الخطابة في العصر المملوكي" في " الخطباء من الأعيان"

المفاخرات الذي عدّه الباحثون قريبا لفنّ المناظرات، وتطرّقت المفاخرات إلى كل مناحي الحياة، واتّسمت بالطّرافة نحو " المفاخرة بين مكة والمدينة"([1]).

وشهد شعر المديح –خصوصا في مجال الجهاد– ازدهارا واضحا لتوفّر دواعيه القويّة؛ فقد (راجت سوق المديح الذي يمجّد البطولة والجهاد في سبيل الله، وتغنَّى الشعراء بانتصارات قادة المسلمين على الصليبيّين والتّتار)([2])، وأسوق مثالا واحدا لشعر المديح والجهاد لشهاب الدين محمود([3]) حيث يقول مادحا الظّاهر بيبرس بانتصاره على الروم والتّتار بعدما أعادوا تجمّعهم عند نهر جيحان([4]):

لما تراقصت الرؤوس وحركت	من مطربات قسيّك الأوتار
خضت الفرات بسابح أقصى منى	هوج الصبا من نعله الآثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى	بحراً سواك تقلّه الأنهار

خامسا: العلوم الطبيعية والرياضية والطبية

ازدهرت العلوم الطّبيعية ازدهارا واضحا في هذا العصر؛ فقد ازدهر علم الّرياضيات بسبب ارتباطه بعلم الميراث؛ فهذا صفيّ الدّين الحنبليّ كان علّامة في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة([5])، وقد ازدهر علم الهندسة كما أسلفنا، ومن المشتغلين به الحكيم ابن الأكفاني([6]) الذي كان إماما في الهندسة والحساب، كما كان إمام عصره في الطّب حيث كان يعمل في البيمارستان المنصوري، فقد كانت صناعة الطّب أيضا من أشرف الصّنائع، وقد كانت

---

(1) Onlie available: http://daharchives.alhayat.com/issue_archive/Hayat حيث يعنى الباحث محمد الششتاوي بجمع أول سلسلة تضم المفاخرات التي ألفت في العصر المملوكي والعصر العثماني.

(2) نبيل أبو علي، المعطى الدلالي لشعر المديح ص150.

(3) ستأتي ترجمته في "الخطابة العصر المملوكي" في " الخطباء من الأعيان"

(4) انظر: الكتبي،فوات الوفيات 240/1.

(5) عبد المؤمن بن عبد الحق صفي الدين الحنبلي، ولد سنة 658هــ في بغداد،كان علامة بالفرائض والحساب، وكان شيخ العراق على الإطلاق. توفّي سنة 739هــ. انظر: الشوكاني، محمد بن علي(د.ت).البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.(د.ط) دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 404/1.

(6) ابن الأكفاني الحكيم شمس الدين أبو عبد الله الأنصاري المعروف بابن الأكفاني، فاضل جمع شتات العلوم وبرع في علوم الحكمة خصوصا الرياضي فإنه إمام في الهيئة والهندسة والحساب، أمّا الطب فإنه كان أمام عصره. انظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(2000م).الوافي بالوفيات.ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت،تح: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى 20/2–25.

هذه الصناعة متقدّمة في العصر المملوكيّ الأوّل، فكان هناك أنواع من التخصُّصات في الطِّبِّ وهي: الباطنيّة والجراحة والعظام وطبّ العيون، بالإضافة إلى الصيدلة[1].

ومن العلوم الطّبيعيّة التي عرفت في ذلك الوقت علم الفلك والهيئة والأرصاد والتّقاويم، وقد كثر المشتغلون بهذه العلوم، أشهرهم: المنجم اليشكريّ الذي كانت له اليد الطّولى في علم الفلك والتّقاويم [2].

وخلاصة القول إنّ هذا العصر شهد نهضة علميّة وأدبيّة لا ينكرها إلّا معاند، وما ذكرته لا يمثّل إلّا أقلّ القليل ممّا تميّز به ذلك العصر الذي شهدت على تقدُّمه ورقيِّه الإنجازات البديعة التي تمّت فيه.

---

(1) انظر:القلقشنديّ، صبح الأعشى 251/11.

(2)انظر:الصفدي، الوافي بالوفيات 116/22.

الفصل الثاني

الخطابة:تعريفها،وأهميّتها وأركانها،ومكانتها.

المبحث الأوّل: تعريف الخطابة لغة واصطلاحا

المبحث الثاني: أهميّة الخطابة وأركانها وبناء الخطبة

المبحث الثالث:الوعظ الديني والخطابة

المبحث الأول: تعريف الخطابة لغة واصطلاحا

أوّلا: لغة

يرجع لفظ "خطابة" إلى الجذر اللغوي "خ ط ب"، وسوف نقوم برحلة لغويّة تاريخية لاستعراض المعاني المختلفة التي أوردها علماء اللغة لهذا الجذر، لكي نقف على المعنى اللغوي له والتطوُّر الذي لحق به وعلاقته بالمعنى الاصطلاحيّ للخطابة.

قال الخليل(ت170هـ): (الخَطْب: سَبَبُ الأَمر. وفلانٌ يخطُبُ امرأةً ويختطبها خِطْبةً. والخِطاب: مراجعة الكلام، والخُطبة: مصدر الخطيب) [1]. ونلاحظ أنَّ الخليل اقتصر في معنى "الخطب" على "سبب الأمر"، وهو ما تابعه عليه الأزهريّ والجوهريّ، إلا أنّهما ذكرا ضمنا المعنى الآخرالذي تطوّر إليه وهو: "الأمر" كما سيأتي.

أمّا أبو منصور الأزهري(ت370هـ) فقال: (قال الليث: الْخطْبُ سبب الأمر.تقولُ: ماخَطْبُكَ؟ أي: ما أمْرُك؟ وتقولُ: هذا خَطْبٌ جليلٌ وخَطْبٌ يسيرٌ.. وجمعه خُطُوب.والْخُطِبَةُ مَصْدرُ الخطيب. قلت: والذي قال الليث.. أنَّ اُلخْطَبَة مصدَر الخطيب: لايجوز إلاَّ على وجهٍ واحد، وهو أن الْخطْبَةَ: اسمٌ للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر) [2]. وهنا نلاحظ أنّه يلمّح ضمنا بأنّ معنى"الخطْب" هو "الأمر" مجرّدا من أيِّ وصفٍ، كما أنَّه يبيِّن عِلَّة الاعتقاد بأنّ لفظ "الخُطبة" مصدر وليس اسما،وهو ماخالفهم فيه المتأخِّرون كما سنرى.

ولا يبتعد الجوهري(ت393 هـ) كثيرا عمّا قاله الأزهريّ حيث قال:(الخَطْبُ: سَبَبُ الأَمْر. تقول: ما خطبك؟. وخَطَبْتُ عَلى المنبَر خطبة بالضم، وخاطبه بالكلام مخاطبة وخِطابا)[3].

أمّأ ابن فارس(ت395هـ) فيقول:("خطب" الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلامُ بين اثنين، يقال خاطبهُ يُخاطِبه خِطاباً، والخُطْبة من ذلك. والخُطْبة: الكلام المخطوب به.. والخطب: الأمرُ يقع؛ وإنما سُمِّي بذلك لِمَا يقع فيه من التَّخاطب والمراجعة) [4].

والملاحظ هنا أنّ ابن فارس يقتصر في معنى الخَطْب على "الأمر" مضيفا وصف "يقع" ولا يذكر من معانيه "سبب الأمر"، وهذا تطوّر آخر طرأ على معنى الكلمة. كما أنَّه بيّن عِلَّة تسمية الأمر بالخطْب رابطا ذلك بالمعنى الأساسيّ للجذر"خطب" وهو:"الكلام بين اثنين"، ولا

---

(1) الفراهيدي،كتاب العين، مادة خطب.

(2) الأزهري،تهذيب اللغة،مادة خطب.

(3) الجوهريّ،الصحاح، مادّة خطب.

(4) ابن فارس،معجم مقاييس اللغة، مادة خطب.

يخفى ما في ذلك من إبداع ورقِيٍّ في التفكير، وألفاظ "الخَطْب" و"الخُطْبة" و"الخِطْبة" كلُّها تتطلَّب المراجعة والكلام بين طرفين.

وإذا انتقلنا إلى القرن الخامس، نجد الراغب(ت502هـ) يساوي في المعنى بين "الخطْب" و"المخاطبة" و"التخاطب" حيث يقول: الخَطْبُ والمُخَاطَبَة والتَّخَاطُب: المراجعة في الكلام. والخَطْبُ: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب[1].

وهذا تطوُّر واضح على معنى "الخطْب"؛ إذْ صارمرادفا "للمخاطبة" و"التخاطب"،كما أنّ الرّاغب قيّد المعنى المتعارف عليه للخطب وهو "الأمر" بأنّه يجب أن يكون عظيما يكثر التخاطب فيه.

وابن منظور(ت711هـ) لا يتَّفق مع الرّاغب في أنّ "الخطْب" يجب أن يكون أمرا عظيما، بل يمكن أن يكون بسيطا كذلك، ويورد المعنى الآخر للخطب الذي ذكره اللغويُّون من قبل وهو "سبب الأمر"، كما أنَّه يذكر أنّ "الخطْب" يمكن أن يكون بمعنى الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، أو الشّأن أو الحال[2]. وهكذا نرى أنَّ ابن منظور يلخِّص ما ذكر من معان في لفظ "الخَطْب"، والذي يُعدُّ أصل المادَّة اللغويّة لكلمة "الخطابة"، لكنَّه لم يذكرْ أنَّ "الخطب" يمكن أن يكون مرادفا "للمخاطبة" و"التخاطب" كما ذكر الراغب الأصفهانيُّ من قبل.

والمتفحِّص في المعاني اللغويَّة لمادّة "الخطْب" يجد تناسقا واضحا بينها وبين المعنى الاصطلاحي "للخطابة"؛ فالخطابة تحتوي على أمر عظيم له سبب يتطلّب التَّخاطب بين طرفين، كما أنَّ لها حالا معيّنة وشأنا عند الناس.

ويورد ابن منظور(711هـ)المعنى اللغوي "للخطابة" قائلا: (وخَطَب الخاطِبُ على المِنْبَر واخْتَطَب يَخْطُبُ خَطابَةً واسمُ الكلامِ الخُطْبَة...، ورَجُلٌ خَطِيبٌ حَسَن الخُطْبَة وجَمْع الخَطِيب خُطَباءُ وخَطُبَ بالضم خَطابَةً بالفَتْح صار خَطِيباً...) [3]؛ فهي إذا مصدر للفعل "خَطَبَ" أي:قال خُطبَةً، أو هي مصدر للفعل "خَطُبَ" أي: صار خطيبا.

---

[1] الراغب الأصفهاني،المفردات غريب القرآن، مادة خطب.

[2] انظر:ابن منظور، لسان العرب، مادة خطب.

[3]ابن منظور، لسان العرب، مادة خطب.

ونلاحظ ممَّا ساقه ابن منظور أنّه لا يميل إلى رأي المتقدِّمين القائل بأنَّ "الخُطبة" هي مصدر، وإنّما هي اسم للكلام المسجوع المنثور، وهو رأي تبنَّاه الفيومي(ت770هـ) صاحب المصباح المنير حيث يقول: (خَطَبَ الْقَوْمَ وَعَلَيْهِمْ مِنْ بَابِ قَتَلَ خُطْبَةً بِالضَّمِّ وَهِيَ فُعْلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ نَحْوُ نُسْخَةٍ بِمَعْنَى مَنْسُوخَةٍ وَغُرْفَةٍ مِنْ مَاءٍ بِمَعْنَى مَغْرُوفَةٍ وَجَمْعُهَا خُطَبٌ مِثْلُ: غُرْفَةٍ وَغُرَفٍ...) [1].

والخطابة بهذا المعنى اللغوي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمعنى الاصطلاحي لها، والذي سنوضحه في السطور القادمة.

ثانيا: اصطلاحا

للخطابة تعريفات عديدة اصطلح عليها العلماء المتقدّمون والمتأخِّرون، وسنحاول في هذه السطور القليلة استعراض بعض هذه التعريفات للوقوف على أهمِّ سمات الخطابة.

ونبدأ بأفلاطون حيث يقول معرِّفا الخطابة:(فنّ القول،وبهذا الوصف يجعل من يملكون ناصيته بارعين في الكلام) [2] فهو يقرِّر هنا أنّ الخطابة فنٌّ من الفنون يتعلّق بالكلام.

ويعرِّف ابن رشد(ت595هـ) الخطابة قائلا:(والخطابة هي قوة تتكلّف الإقناع الممكن في كلِّ واحد من الأَشياءِ المفردة)[3]. ونلاحظ من تعريف ابن رشد للخطابة أنّه يركِّز على الهدف من الخطابة وهو الإقناع، والإقناع في الخطابة لا يتخصّص في علم معيَّن، بل في أيِّ مقولة كانت وفي أيِّ جنس كان.

أمّا الجرجانيّ(ت816هـ) فيعرف الخطابة على النحو التالي:(هو قياس مركّب من مقدِّمات مقبولة، أو مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعّاظ) [4]، وهو تعريف كما نرى يجاري أهل المنطق في تعريفاتهم؛ فهناك مقدّمات مقبولة حول موضوع معيّن من شخص موثوق به، تهدف

---

(1) الفيومي،المصباح المنير، مادة خطب.

(2) طاليس، أرسطو(1986م).فنّ الخطابة.(د.ط) بغداد: دار الشؤون الثقافية، ص14.

(3) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد(د.ت).تلخيص الخطابة. بيروت: دار القلم،، تح: عبد الرحمن بدوي، ص7

(4) الجرجاني، علي بن محمّد(د.ت).معجم التعريفات.(د.ط) القاهرة: دار الفضيلة، تح: محمد صدِّيق المنشاوي، ص 87.

للوصول إلى نتائج معيّنة تتعلّق بالترغيب والترهيب والإقناع.وقد عدّها النويري من العلوم المنطقيات الخمسة التي ذكرها في كتابه نهاية الأرب[1].

وإذا انتقلنا إلى العلماء المحدثين، فلا نلاحظ أنّهم ابتعدوا كثيرا عن تعريفات العلماء السابقين. ويوردالحوفي التعريف التالي للخطابة:(فنٌّ مشافهة الجمهور، وإقناعه واستمالته)[2]. وهذا التعريف يشير إلى ما قاله العلماء السابقون من حيث المشافهة والإقناع.

وقد عرَّف محمد أبو زهرة الخطابة قائلا:(الخطابة مصدر خطب يخطب أي صار خطيبًا، وهي على هذا صفة راسخة في نفس المتكلم يقتدر بها على التصرف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعه[3]. وهنا نرى أنّ أبا زهرة يقرِّر أنَّ الخطابة يجب أن يرافقها استعداد فطريّ لإلقاء الكلام وفصاحة مكتسبة للتصرّف في فنون القول، والهدف منها إقناع المتلقّين.

فالخطابة في رأي الباحث هي: فنٌّ نسج الكلام وإلقائه بتصرُّف مبدع في فنون الفصاحة والبلاغة، للتّأثير في نفوس المتلقِّين أو وعظهم أو إقناعهم واستمالتهم لفكرة معيّنة تلهمهم للتغيير.

المبحث الثاني: أهميَّة الخطابة وأركانها وبناء الخطبة

أوّلا: أهميَّة الخطابة

تعدُّ الخطابة مظهرا من مظاهر الرقيِّ الإنساني وعلامة على تطوُّر المجتمعات وسموِّ فكرها، ولهذا عُنِيَ بها كل شعبٍ، واهتمت بها كل الأمم في كل زمانٍ ومكانٍ، واتخذتها أداةً لتوجيه الجماعات، وإصلاح المجتمعات.

---

[1] نهاية الأرب 191/15.

[2] الحوفي، أحمد محمد(د.ت).فنّ الخطابة. ط4،مصر: دار النهضة، ص 5.

[3] أبو زهرة، محمد،(1980).الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب. ط 2، دار الفكر العربي،ص19.

وللخطابة مكانة مهمَّة في العلوم الأدبية؛ إذْ إنّها تعدُّ مستودع أسرار اللُّغة والفصاحة والبيان، فقد كان الخطباء المشهورون من أفصح الناس وأبلغهم كما أنَّها تبيّن مقدرة الخطيب على امتلاك نواصي الكلام ومفاتيحه، وفي هذه المعاني يقول صاحب صبح الأعشى: (قال أبو جعفر النحاس وهي من آكد ما يحتاج إليه الكاتب وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب في مشاهدهم وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم. بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب)[1]. وهكذا نرى مدى أهميَّة الخطابة حيث عدَّت أهمّ من الكتابة، كما أنّهم يرون أنّ الكتَّاب يستلهمون أفكارهم من الخطباء، وهم تبع لهم في البيان والبلاغة، وهذا في رأي الباحث منطقي حيث إنَّ اللغة ظهرت في بداياتها على شكل أصوات وكلمات وعبارات وجمل تناقلتها الأجيال مشافهة قبل ظهور الكتابة.

هذا وقد عدّها بعض الأدباء وسيلة لاكتساب الفصاحة والبلاغة فقد روى ابن طباطبا العلويّ أنّه (يحكى عن خالد بن عبد الله القسري فإنه قال: حفّظني أبي ألف خطبة ثم قال لي: تناسها، فتناسيتها، فلم أرد بعد شيئا من الكلام إلا سهل علي، فكان حفظه لتلك الخطب رياضة لفهمه، وتهذيبا لطبعه وتلقيما لذهنه، ومادة لفصاحته، وسببا لبلاغته ولسنه وخطابته) [2].

وقد قام القلقشندي بعقد مقارنة بين الخطب والرسائل مبيّنا أنهّما لا يختلفان إلاّ في كيفية إيصالهما للمتلقّين، كما أنّه أشار إلى حاجة الكتَّاب الماسَّة للخطابة، وبيان أثرها المهم على تطوير مهارة الكتابة، وقد وضَّح ذلك قائلا: (وإنَّ الخطب يشافه بها بخلاف الرسالة، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة، وحينئذ فإذا أراد الكاتب نقل الخطبة إلى الرسالة أمكنه ذلك فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة، وعلم مقاصد الخطابة وموارد الفصاحة ومواقع البلاغة، وعرف مصاقع الخطباء ومشاهيرهم اتسع له المجال في الكلام وسهلت عليه مستوعرات النثر وذلّلت له صعاب المعاني، وفاض على لسانه في وقت الحاجة ما كمن في ذلك بين ضلوعه فأودعه في نثره وضمّنه في رسائله فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط المعاني البديعة ومشقة التعب في تتبّع الألفاظ الفصيحة التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد ولا يسمح خاطره بنظيرها ولو دأب)[3]. فهو يبين أنّ مكامن الفصاحة والبلاغة

---

[1] القلقشنديّ، صبح الأعشى 253/1.

[2] ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد(د.ت).عيار الشِّعر.(د.ط)، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص15.

[3] القلقشندي،صبح الأعشى271/1.

التي يرومون الوصول إليها تتمثّل في الخطابة، فالاطلاع على خطب السابقين من الفصحاء والبلغاء هو السبيل الأمثل للوصول إلى تلك الغاية.

وقد عدّها النويري من العلوم المنطقيَّات الخمسة حيث قال: (وأما العلوم المنطقيات فخمسة أنواع: الواحد معرفة صناعة الشعر، وأنواع البديع كالتكافؤ و... والثاني معرفة صناعة الخطابة. والثالث صناعة الجدل. والرابع صناعة البرهان. والخامس صناعة المغالطين في المناظرة والجدل) [1]، وهذا يتّفق مع تعريف الخطابة الذي أشرنا إليه سابقا حيث تعتمد الخطابة على مقدّمات منطقيّة للوصول إلى النتائج المبتغاة.

وقد أشار القلقشندي إلى شِدَّة الحاجة إليها في كثير من المكاتبات المهمّة في الدولة، حيث عدَّها جزءا من أجزاء الكتابة؛ وهذا يبيِّن ما آلت إليه الخطابة فيما بعد من أنَّها أصبحت تكتب وفق قوانين الكتابة وأصولها ثمَّ يقوم الخطيب بإلقائها إمّا مشافهة – وهو الغالب– وإمَّا قراءة من المكتوب،وفي ذلك يقول: (إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها يحتاج الكتّاب إليها في صدور بعض المكاتبات وفي البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير على ما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وما لعله ينشئه من خطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك)[2]، وهذا ما نعاينه بالفعل عند قراءتنا لافتتاحيات الكتب أو بعض العقود والمصالحات وغيرها من صنوف المكاتبات الرسميّة في الدولة.

وما أشرنا إليه يبيِّن الفائدة الأدبيَّة للخطابة على اعتبار أنّها تمثِّل فنًّا أدبيًّا نثريًّا راقيا، ولا يخفى ما للخطابة من أهميَّة جليلة في الإرشاد الدِّيني؛ حيث تُعدُّ المحفِّز الرئيسيَّ لفعل الفضائل والبعد عن المنكرات، ويقول ابن رشد موضحا هذه الأهميَّة: (قال: وللخطابة منفعتان: إِحداهما إِنَّ بها يحث المدنيّين على الأَعمال الفاضلة، وذلك أنّ الناس بالطبع يميلون إِلى ضدّ الفضائل العادلة....، و المنفعة الثانية أنه ليس كل صنف من أصناف الناس ينبغي أن يستعمل معه البرهان في الأَشياءِ النظرية التي يراد منهم اعتقادها)[3]، وفي هذا بيان لأهميَّة العاطفة التي

---

(1) النويري،نهاية الأرب 191/15.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى 271/1.

(3) ابن رشد،تلخيص الخطابة ص5.

تدفع النّاس المتلقِّين لفعل الخيرات، وهذا الأسلوب قد ينفع الناس الذين لم يعتادوا على الإقناع المنطقي الذي يبنى على الأدلَّة والبراهين.

والخطابة كانت وما زالت تحتلُّ أهميِّة مميَّزة في التَّشجيع على الثبات والمقاومة والتَّحرير، وفي التاريخ الماضي والمعاصر الشواهد الكثيرة التي سنذكر بعضها في بحثنا هذا نحو: خطبة صلاح الدين الأيّوبي في حصار عكَّا، وخطبة قطز قبل معركة عين جالوت، وخطبة ابن تيمية قبل معركة شقحب[1].

كما أنّ وظيفة الخطابة في الدّولة الإسلاميّة في العصرين الأيُّوبي والمملوكي الأوَّل كانت تُعَدُّ من أشرف الوظائف، وقد عبّر القلقشنديُّ عن هذا المعنى قائلا: (أما الّتي هي عامّة في أشخاص فمنها الخطابة، وهي في الحقيقة أجلُّ الوظائف وأعلاها رتبة إذ كان النبي يفعلها بنفسه، ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمن بعدهم)[2].

والخطابة الدينية في المساجد باسم خليفة ما كانت تعد بمثابة إعلان البيعة والولاء والطاعة لذلك الخليفة، والتوقُّف عن الخطابة باسم خليفة ما كان يعدُّ نزْعا ليد الطاعة وإعلانا للتمرُّد على ذلك الخليفة، ولا أدلُّ على ذلك من قصَّة قطع الخطبة عن الخليفة الفاطميّ العاضد بن يوسف آنفة الذكر، وحادثة قطع الدعاء في خطبة العزّ بن عبد السلام عن سلطان دمشق الأيُّوبي المتحالف مع الصّليبيين والّتي سنأتي على ذكرها في الباب القادم؛ وذلك إن دلَّ على شيء فإنَّما يدلُّ على أهمِّيَّة الخطابة الدينيَّة في إضفاء الشّرعيّة على الخلفاء والسلاطين.

وقد ساهمت الخطابة أيضا في عمليَّة الدفاع عن الأفكار والعقائد، ونشر القيم الفاضلة، ومحاربة الرذائل والفواحش وإقناع الجماهير ببعض الآراء والأفكار السياسيّة، وتقريب وجهات النّظر والمناظرات والفوائد الأخرى الكثيرة التي سنشير إليها في مبحث ألوان الخطابة.

---

[1] شقحب كجعفر، موضع قرب دمشق، وهي قرية صغرة قبلي دمشق على تخوم أرض حوران تبعد عن دمشق 37 كيلو مترا. وشقحب تقع تحت جبل غباغب وهي قرية في أول عمل حوران، انظر: معجم البلدان (184/4).

[2] القلقشندي،صبح الأعشى 4/40.

ثانيا: أركان الخطابة وبناء الخطبة

للخطابة ثلاثة أركان أساسيَّة لا تنعقد دونها، وهذه الأركان تتمثَّل في: 1. الخطيب 2. الخطبة 3. الجمهور.وهذا تقسيم منطقي راعاه الفلاسفة والعلماء السابقون، وفي ذلك يقول ابن رشد: (وذلك إنَّ الكلام مركَّب من ثلاثة: من قائل وهو الخطيب، ومن مقول فيه وهو الَّذي يعمل فيه القول، ومن الَّذين يوجَّه إليهم القوْل وهم السّامعون. والغاية بالقول إنَّما هي متوجِّهة نحو هؤلاء السَّامعين.)[1].

فالكلام المقنع الذي يراد توجيهه إلى جمهور من الناس لجعلهم يعدلون عن بعض العادات والسلوكيات، أو لدفعهم للقيام بأعمال الخير والإحسان هو الخطبة، والشخص المتقن لهذا الفن والذي يستطيع أن يشافه الناس، ويخاطبهم ولديه القدرة على التأثير بهم هو الخطيب، وجمهور المتلقين الذين يراد التأثير بهم ودفعهم نحو الإيمان بفكرة معيّنة هم المستمعون. وعلم الخطابة يحيط هذه الأركان الثّلاثة بالدّراسة والتّدقيق؛ لكي تكون الخطبة منظّمة الأسلوب، واقعيّة الأهداف، مقنعة مؤثِّرة.

والخطبة في أسلوبها تتطابق مع فنِّ الكتابة، وفي ذلك يقول القلقشندي: (قال أبو جعفر النحاس وهي من آكد ما يحتاج إليه الكاتب...وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب)[2]. وقد قال أبو هلال العسكري(ت395هـ) في الصناعتين: (والرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل قال والفرق بينهما أن الخطبة يشافه بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة)[3].

وكلام العسكري واضح في أنَّه يرى أنَّ الخطابة أساس لفنَّي الكتابة والرسائل، كما أنَّه يرى تشاكل فنّي الخطابة والرسائل، وإمكانيَّة تحويلِ كلٍّ منهما للآخر في أسهل كلفة؛ وهذا ربّما

---

[1] تلخيص الخطابة ص 13، وانظر: طاليس، أرسطو (1979م).**الخطابة**(.د.ط)، بيروت، دار القلم، تح: عبد الرحمن بدوي،ص16.

[2] القلقشندي،صبح الأعشى 254/1.

[3] العسكري، أبوهلال الحسن بن عبد الله(1986م).**الصناعتين الكتابة والشعر**.(ب.ط)، بيروت:المكتبة العصرية، تح:علي محمد البجاوي، أبو الفضل إبراهيم، ص42

يفسّر لنا نهج معظم كاتبي الرّسائل في كتاباتهم أسلوب الخطباء، وكذلك الكتّاب الذين يصدّرون كتبهم بمقدّمة غالبا ما يطلقون عليها اسم "خطبة الكتاب"؛ فأسلوبها مشابه إلى درجة كبيرة لأسلوب الخطبة.وفيما يقوله العسكريُّ نظر؛ إذ يقول محمد سلّام معترضا:(وفي رأينا أنّ فنّ الخطابة يعتمد بالدّرجة الأولى على الارتجال وسرعة البديهة، والانفعال بالموقف. وبهذا تختلف الخطبة عن الرسالة المكتوبة)[1]، كما أنَّ أبا زهرة بيّن بعض الفروق بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي حيث يمكن أن نجملها فيما يلي: كلمات الخطيب تمرُّ على اللّسان قبل أن يلقيَها، كما أنّ طريقة إلقائها تجعل لها أثرا وجرسا في نفسه، وألفاظ الخطبة ومقاطعها تختلف عن مقاطع الرِّسالة.والخطبة قد تحتوي على تكرار لبعض العبارات بأساليب بلاغيَّة مختلفة لتقريرها في نفوس الحاضرين، أمَّا الكتابة فإنَّ أكثر الإطناب فيها يكون بالتحليل والتقصِّي والاستقراء، لكن هذا لا يمنع من وجود بعض التّشاكل في الأسلوبين[2].

والّذي يراه الباحث أنّ ما ذكره العسكريُّ ومن بعده القلقشنديُّ من وجود هذا التّشاكل بين الأسلوبين راجع إلى ما يقصدانه من الخطابة؛إذ إنَّهما كانا يقصدان الخطابة المكتوبة المعدّة قبل الإلقاء على الأرجح، والّتي تتشابه كثيرا في صياغتها مع الأساليب الكتابيّة ولم يقصدا الخطابة الّتي تعتمد على الارتجال في الإعداد والإلقاء. وفي كلام العسكريّ إشارة إلى أنّ الخطابة هي أساس الفنون النّثريّة؛ إذْ إنّ الكلام ظهر قبل الكتابة كما هو متعارف عليه بين اللغويّين، فالخطابة المتقنة هي النموذج الذي يجب أن يحتذى للوصول إلى كتابة تتجلَّى فيها صور الإبداع وبراعة التعبير.

وفي تبيين أهميّة الخطابة للكُتّاب يقول القلقشندي:(فإذا أكثر صاحب هذه الصِّناعة من حفظ الخطب البليغة، وعلم مقاصد الخطابة وموارد الفصاحة ومواقع البلاغة، وعرف مصاقع الخطباء ومشاهيرهم، اتسع له المجال في الكلام، وسهلت عليه مستوعرات النثر، وذلّلت له صعاب المعاني وفاض على لسانه في وقت الحاجة ما كمن في ذلك بين ضلوعه فأودعه في نثره وضمّنه في رسائله، فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط المعاني البديعة، ومشقة التعب في تتبع الألفاظ الفصيحة، التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد ولا يسمح خاطره بنظيرها ولو

(1) سلام،الأدب في العصر المملوكي 11/2.

(2) انظر:أبو زهرة،الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب ص123.

دأب)[1]، وفي هذا حجة بيّنة في أنَّ الاطّلاع الجيد على الخطب البليغة، وحفظها وتعاهدها بالدّراسة والتحليل الأدبي الهادف، يؤدّي لبلوغ الكاتب مقامات رفيعة في الفصاحة والبلاغة.

وقد بيّن أبو هلال العسكري(ت395هـ) في كتابه "الصناعتين" الأسس الّتي تقوم عليها الخطابة حيث قال:(رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحها رواية الكلام وحليّها الإعراب وبهاؤها تخير الألفاظ)[2]، وهو هنا يبيِّن أنّ الاستعداد الفطريّ من أهمِّ الصفات التي يجب أن تتوفّر في الخطيب، كما أنّ الممارسة وحفظ الشواهد وإتقان النَّحو واختيار الألفاظ المناسبة للمعنى المراد وللسياق الواردة فيه سمات أساسيّة لا ينبغي أن نغفل عنها.

ويمضي القلقشندي في ذكر صفات الكلام الذي تعشقه الأذن عند سماعه في الخطابة وفي فنون النثر (وما كان من الكلام لفظه سهلا ومعناه مكشوفا بيّنا فهو من جملة الرديء المردود لا سيّما إذا ارتكبت فيه الضرورات، فأمّا الجزل المختار من الكلام فهو: الّذي تعرفه العامّة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها. وأجود الكلام ما كان سهلا جزلا لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودا مستكرها، ومتوعرا متقعِّرا)[3].فكيف يكون الكلام مقنعا إذا لم تفهمه العامّة؟!، بل كيف يحكم على قول بأنّه جزل فصيح إذا كان من وحشيِّ الكلام؟!؛ لأنَّ الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره وفهمه.

أمّا بالنِّسبة لبناء الخطبة فهو يماثل بناء الفنون النَّثريّة الأخرى، حيث تحْتوي الخطبة على: المقدِّمة والعرض والخاتمة، وهذا البناء المنطقي ذكره أرسطو في كتابه الخطابة، إلا أنَّه زاد في تقسيمه الدليل على ما يقوله، لكي يصل إلى الهدف المنشود من الخطابة وهو الإقناع حيث قال عارضا للمكوِّنات الأساسيَّة للخطبة: (الاستهلال والعرض والدليل والخاتمة، أمَّا

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى 254/1.

(2) العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر ص58. وانظر: الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر(2002م).**البيان والتبيين**. (ب.ط)، بيروت:دار ومكتبة هلال 59/1. وتمام الرواية كما يلي:(تخليص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر في عيون الناس عي، ومس اللحية هلك، والخروج مما بنى عليه أول الكلام إسهاب. وسمعته يقول: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليّها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ)

(3) القلقشندي،صبح الأعشى 254/1.

التفنيد في شأن الأدلَّة، والمساجلة ليست إلَّا توسُّعا في أدلَّة الخطيب، ومعنى هذا أنّه ما هو إلا جزء من الأدلّة)[1]

فهو هنا يقسِّم الخطابة إلى أربعة أقسام :هي: مقدمة الخطبة أو التمهيد لموضوعها، ويليها عرض الموضوع، ثم التدليل عليه، ودفع ما قد يرد عليه من اعتراضات، ثم ختام الخطبة بالوصول إلى النّتيجة التي يريد الخطيب تثبيتها في أذهان المتلقِّين،ومحاولة إقناعهم بها و استمالتهم إليها. وهذا هو ما درج عليه اللاحقون في التقسيم العام للخطابة، إلّا أنّهم لم يذكروا التدليل لأنّه مفهوم ضمنا من خلال المقصد الأساسي للخطابة وهو الإقناع.

والخطابة صِنو الشعر، وفرع أساسيٌّ للأدب العربيّ القديم، وكانت دائما تتبادل السبق والنفوذ مع الشعر، وكانت تعدُّ الوسيلة الأنجع لتحقيق غايات العظماء؛ فقد سارت منذ القدم في ركاب الثورات والنهضات، كما أنها كانت سلاحا ماضيا في الدعوات.

والصفحات القادمة ستشكِّل إضاءة على الخطابة في عصرين لامعين في التاريخ الإسلامي لطالما كان للخطابة فيهما باع طويل في توجيه دفَّة الحوادث العظام، كما أنّها مثّلت انعكاسا فنِّيًّا راقيا للفنون الأدبيّة النَّثريّة التي راجت في هذين العصرين.

المبحث الثالث: الوعظ الديني والخطابة

كان الوعظ الدينيّ يمارس في العالم الإسلاميّ طوال الأزمنة، حيث كانت البلدان الإسلاميّة تموج بالوعظ الدِّينيّ في خطب الجمعة والعيدين وغيرها من المناسبات الدِّينيّة، وإن لم

([1]) أرسطو طاليس الخطابة،، ص.22. وانظر: الشايب، أحمد(2003م).الأسلوب.ط2،القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة ص116.

تنقل لنا كتب الأدب إلّا القليل منها [1]، لكثرتها وصعوبة الإحاطة بها. وهذا الوعظ الّذي كان يمارس في خطب الجمعة والعيدين كان يلتزم بالبناء الفنّي للخطبة، كما أنّ الخطباء كانوا يحرصون على أدائه بأسلوب فصيح بليغ يراعي السّمات الفنّيّة للخطابة، كما أنّهم كانوا في الغالب يبذلون جهدا في إعداده مسبّقا[2]؛ فكثيرا ما نرى عبارة "كان يخطب من إنشائه" في التّرجمة لخطباء هذا العصر[3].

وكان الوعَّاظ يركِّزون في وعظهم على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وتقويم الأخلاق والسّلوك،والنّقد لمظاهر الانحلال والفساد في المجتمع، وذلك عن طريق تفسير القرآن الكريم وسرد قصص الأنبياء والصّالحين، والاهتمام بأدب الرقائق وما إلى ذلك.(ويرى الوُعَّاظ أن لا نجاة للنّاس إلّا بالتَّمسُّك بعرى الدِّين، والفِرار إلى كهفه المتين)[4].

وما يعنينا هنا مجالس الوعظ الّتي كانت تقام في غير خطب الجمع والعيدين،والتي لم تكن تقتصرعلى المساجد، فهي وإن لم تبلغ منزلة الخطابة في الجمع والأعياد من حيث الالتزام ببناء الخطبة، والحرص على السّمات الفنِّيّة والبلاغيّة وقوّة الأسلوب[5]، إلاّ أنّها كانت تضارع الخطابة في أنّ معظمها كان يلقى ارتجالا، وفي سيطرة العاطفة الدّينيَّة عليها، وفي أهدافها الّتي ترمي إلى محاولة التّأثير على السّامعين من أجل استمالتهم لفكرة معيّنة، أو نهيهم عن فعل معيّن، ناهيك عن كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة الشّريفة وهي سمة من سمات الخطابة في هذا العصر.

والّذي يراه الباحث أنّ معظم ما كان يمارس في هذه المجالس يعدُّ شكْلا من أشكال الخطابة، للأسباب السّابقة ولأنّ العلماء الّذين كانوا يمارسون الوعْظ ليسوا أقلّ منزلة في علمهم وفصاحة لغتهم من الخطباء، لكنّهم سمُّوا بالوُعَّاظ من باب التّغليب؛ أي أنّ معظم الخطب الّتي كانوا يلقونها تركّزت على الوعظ الدّينيّ، ولأنّهم لم يتقلّدوا منصب الخطابة كوظيفة رسميّة.

والرّحَّالة ابن جبير(ت614هـ) في رحلته إلى بغداد سنة(580هـ) عرض لنماذج من الوعظ الدِّينيّ الّذي كان يُمارس في هذه المجالس، مبيّنا الصُّورة الّتي كان يسير عليها مجلس

---

(1) انظر: ضيف، شوقي(ب.ت).تاريخ الأدب العربي عصر الدُّول والإمارات.ط3،دار المعارف، القاهرة ص325.

(2) حمزة، عبد اللطيف (1949). أدب الحروب الصليبية. ط 2، دار الفكر العربي، مصر. ص206.

(3) الحنبلي،الأنس الجليل 135/2، ابن خلكان،وفيات الأعيان 322/7.

(4) سلام، الأدب في العصر المملوكي ص123.

(5) لأنّ الوعّاظ ما كانوا يرومون جمال الخطاب وفصاحته بقدر رغبتهم الشّديدة في القضاء على مظاهر الفساد والضّعف والتخاذل والانحلال في المجتمع، وهذا يحتاج إلى مباشرة واسترسال في الخطاب.

الوعظ من بدايته إلى نهايته، حيث قال في وصف مجلس وعظ الشيخ رضى الدِّين القزوينيّ[1]:(حضرنا مجلسا بالمدرسة المذكورة...،فصعد المنبر، وأخذ القرّاء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوّقوا وشوّقوا...، ثمّ اندفع الشيخ الإمام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرّف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عز وجل، وإيراد حديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتكلُّم على معانيه. ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب، فأجاب وما قصّر، وتقدّم وماتأخّر، ودفعت إليه عدّة رقاع منها، فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كلٍّ واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها...، وحان المساء فنزل وافترق الجمع....)[2].

فقد بيّن ابن جبير الطّريقة الّتي كانت تنظَّم فيها مجالس الوعْظ، حيث كانت تبدأ بالقرآن الكريم، ومن ثمّ تكون هناك خطبة وعظيّة هادئة تتناسب ومجلس الوعظ، وتتضمّن تفسيرا لكتاب الله سبحانه وتعالى، وعرضا لبعض أحاديث النّبيِّ صلى اللّه عليه وسلّم، ومن ثمّ يقوم الواعظ بالإجابة على أسئلة الحاضرين إلى أن ينفضّ المجلس عند المساء. والّذي يهمُّنا أنّ ابن جبير صرَّح بأنّ هذه المجالس تحتوي على خطبة بعد الاستماع لقراءة القرآن الكريم.

وقد بيّن لنا ملامح هذه الخطبة حين تحدّث عن مجلس العلّامة جمال الدّين أبي الفضائل ابن علي الجوزيّ[3] معدِّدا مزاياه الدّالة على تمكُّنه في العلم واللّغة وموضِّحا لخطبته حيث قال: (...فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشّأن في إيراد خطبته، عجلاً مبتدراً، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه درراً، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقراً، وأتى بها على نسق القراءة لها، لامقدِّماً ولا مؤخِّراً. ثمّ أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها... فكيف ينتظمها مرتجلاً، ويورد الخطبة الغرّاء بها عجلاً...،ثم إنّه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بيّنات من الذّكر...)[4]، والّذي أورده دالٌّ على أنّ أئمَّة الوعظ ليسوا أقلّ شأنا من أئمّة الخطابة في مقدرتهم اللُّغويّة والعلميّة، وفي المهارة الفائقة الّتي كانوا يتميّزون بها في

---

[1]أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني رضي الدين القزويني(512 – 590 هــ): واعظ، عالم بالحديث، من أهل قزوين مولدا ووفاة. انظر:الزركلي، الأعلام 96/1.

[2]ابن جبير، رحلة ابن جبير 81/1.

[3] أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادى. (510–597هــ)..بن محمد بن أبي بكر الصديق، الفقيه الحنبلي الواعظ. له " زاد المسير في علم التفسير "، وله " المنتظم " في التاريخ، ولد وتوفّي في بغداد، وسبطه هو أبو المظفر يوسف بن قز أوغلي سبط ابن الجوزيّ. انظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان 142/3.

[4]ابن جبير،رحلة ابن جبير 82/1.

التّأثير على الجماهير وإقناعهم، كما أنّه يدلُّنا بشكل واضح على أنّ الوعظ الدِّينيّ في مجالس الوعظ كان يمارس بأسلوب خطابيّ ارتجاليّ ذي وقع قويٍّ، ثمّ يعود إلى نبرة هادئة ترقِّق القلوب وتنعش الأرواح. وهذا النّص يمثِّل وثيقة تاريخيّة وأدبيّة تبيّن لنا الكيفيّة الّتي كانت تنظّم فيها المجالس الوعظيّة.

وخلاصة القول إنّ الخطابة والوعظ بينهما عموم وخصوص، فليست كلُّ خطابة وعظ، بينما يعدُّ معظم الوعظ الدّينيّ ضربا من ضروب الخطابة للأسباب سالفة الذّكر، وإلى هذا الرأي ذهب عبد الرّحيم حمدان في قوله: (تعدُّ المواعظ الدِّينيّة والوصايا الخلقيّة لوناً من ألوان الخطب، ترتبط معها بأقوى رابطة، لأنّ الموعظة هي الهدف الأوّل للخطيب، وقد اتّخذها الوعّاظ الزّهاد مادة أساسية لخطبهم)[1]، وكذلك شوقي ضيف حيث قال: (أما خطابة الوعاظ فيظهر أنه ظل لها غير قليل من الازدهار)[2].

أمّا مجالس الوعظ التي كانت تعقد في هذا العصر، فقد رأينا أنها كانت تتضمّن ثلاثة مكوّنات أساسيّة وهي: قراءة القرآن، الخطبة الوعظيّة، والإجابة عن أسئلة الحضور. ومنه يتّضح أنّ الخطابة الوعظيّة كانت من أهمّ المكوّنات الّتي كانت تقوم عليها تلك المجالس.

---

[1] حمدان، عبد الرحيم. الخطابة الدّينية في الأندلس الخطابة الزهديّة أنموذجا (on-line)available http://www.diwanalarab.com/spip.ph article34941p?

[2] انظر: شوقي ضيف،الفن ومذاهبه في النثر العربي 126/1.

الفصل الثالث

الخطابة في العصر الأيّوبي

المبحث الأول: عوامل ازدهار الخطابة ودواعيها.

المبحث الثاني: أشهر خطباء العصر.

المبحث الثالث: ألوانها ونماذج من خطب هذا العصر.

المبحث الرّابع: السّمات الفنّيّة والأدبيّة

المبحث الأول: عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأيُّوبيّ ودواعيها

اشتمل العصر الأيُّوبيّ على أحداث عظيمة رسمت وجها منيرا للتاريخ، وساهمت في إلهاب العواطف، وتفجير المشاعر، وإيقاظ الأماني التي بدأ أدباء هذا العصر بتجسيدها في شعرهم ونثرهم، فبدؤوا يشيدون بالسلاطين والملوك والقادة أمثال نور الدين و صلاح الدين والملك العادل؛ لذلك لا نستغرب عندما نرى أنّ كثيرا من الفنون النثريَّة في هذا العصر كانت منصبَّة على وصف الانتصارات والفتوحات العظيمة، وعلى التحريض على المقاومة والتحرير؛ فقد بعثت الحروب الصليبيّة في الأدب الحياة، ووفّرت للأدباء المخزون الصادق من المعاني والأفكار، فأصبح الأديب يستمدُّ من الأحداث الإلهام والأمل، ويحدوه دافع قويٌّ للكتابة والتّعبير.

وقد زاد إقبال الأدباء في هذا العصر على الإنتاج النّثري بشكل عام؛ وذلك يرجع إلى عدّة عوامل أهمُّها: عدم حصول الشعراء على المميّزات نفسها التي كانوا يحصلون عليها في العصر العبّاسي حيث كانوا مقرّبين من الحكّام والسّلاطين كالمتنبّي وأبي تمّام وغيرهم، بينما انعكست الصورة في العصر الأيوبي حيث أصبح الأدباء المتخصِّصون في الفنون النّثريّة هم المقرّبون لدى السّلاطين والحكّام؛ فأسامة بن منقذ، والقاضي الفاضل، وابن شداد[1]، والعماد الأصفهاني[2] كانوا من خاصّة صلاح الدين الأيوبيّ، وتقلّدوا مواقع مهمّة في القضاء و الدّواوين وقيادة الجيش. وهناك أسباب كثيرة أخرى أدّت إلى زيادة الاهتمام بالنثر في هذا العصر يطول المقام عن ذكرها[3].

وعلى قلّة الخطب التي استطاع الباحث أن يطّلع عليها،وذلك لأسباب عديدة سيجلِّيها الباحث في الباب الذي يبْحَث فيه نماذج من هذه الخُطَب، إلّا أنّ الخطابة ازدهرت في هذا العصر، وقد لعبت عدّة عوامل دورا واضحا في هذا الازدهار، وفيما يلي أهمُّها:

---

[1] ستأتي ترجمته في "الخطباء من الأعيان" في هذا العصر.

[2] أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبو الفرج الملقب عماد الدين، الكاتب الأصبهاني(519-697هــ).كان العماد المذكور فقيهاً وأتقن فنون الأدب، وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه. صار من جملة الصدور المعدودين، يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم.. انظر: ابن خلكان،وفيات الأعيان 152/5.

[3] للاستزادة انظر: سلام،الأدب في العصر المملوكي15/3-20..

أوّلا: ازدهار فنّ النثر بعامّة لا سيّما الرسائل

فقد شهدت الفنون النّثريّة انتعاشا وازدهارا كما أسلفنا؛ وزاد الإقبال على التفنُّن في الكتابات النّثريّة وخصوصا الرسائل الدّيوانيّة والإخوانيَّة، وتُعَدُّ رسائل القاضي الفاضل خير مثال عليها[1]. وفنُّ الرَّسائل بينه وبين الخطابة تناغم وتقارب كبير في أسلوب الصِّياغة والإنشاء كما صرَّح بذلك أبو هلال العسكريُّ والقلقشنديّ.

ثانيا: النَّهضة العلميَّة والأدبيّة في هذا العصر.

فقد شهد هذا العصر نهضة علميّة وأدبيّة رائدة واكبت النّهضة السِّياسيّة والحربيّة الّتي سادت هذا العصر، وهذه النّهضة أبرزت لنا العديد من العلماء والقضاة والأدباء القادرين على إبهار الألباب بكلماتهم السّاحرة؛ ولا أدلُّ على ذلك من اجتماع العديد من العلماء والقضاة والأدباء الّذين كانوا يطمحون لإلقاء خُطبة فتح القدس في حضرة صلاح الدِّين الأيُّوبيُّ[2].

ثالثا: الحركة النّشطة في بناء المساجد والمدارس والزّوايا والرُّبط

وقد بيَّنَّا في باب النّهضة العلميّة والأدبيَّة مدى حرص الأيُّوبيِّين على بناء المساجد والمدارس والزّوايا، والّتي كانت تمثِّل منارات علم وأدبٍ ومنابع لإحياء جيل جديد من العلماء المتمرِّسين في الدِّين واللُّغة، والدّاعين لمبادئ المنهج السُّنِّيّ خاصّة في مصر بعد أن تمّ إزالة آثار الدَّولة الفاطميَّة بالتَّدريس والوعظ والخطابة في المساجد والمدارس، كما أنَّ هذه الأماكن شكَّلت بؤر تنافس بين العلماء للحصول على مناصب الإفتاء والوعظ والخطابة والتدريس فيها، حيث كانت توقف لها أوقاف مجزية، ويمنح الخطباء والمدرِّسون فيها مرتَّبات محفِّزة.

رابعا: تقريب السلاطين الأيُّوبيِّين للعلماء والقضاة والخطباء وتقليدهم مناصبّ هامَّة في الدَّولة

فما عاد العلماء والخطباء مهمَّشين، ومضطهدين كما كان عليه الحال في بعض أدوار الدَّولة العبَّاسيَّة، لكنَّهم أصبحوا من خاصّة السّلاطين وأعّيان الدَّوْلة كما ذكرنا سابقا عن ابن شدّاد والعماد الكاتب والقاضي الفاضل؛ فقد كان القاضي الفاضل المستشار الأول لصلاح الدِّين الأيُّوبيّ وكان له دور كبير في الانتصارات التي أحرزها السلطان. وقد بيَّن مرتبته العظيمة

---

[1] انظر: الحريري، سلطان عبد الرؤوف(2000هـ).**أدب الرسائل في العصر الأيُّوبيّ القاضي الفاضل نموذجا**. (رسالة دكتوراة)
[2] انظر :ابن خلكان، وفيات الأعيان 230/4.

قائلا: (لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل)[1]، ولم تقتصر جهود القاضي الفاضل على فترة حكم صلا ح الدين الأيّوبيّ، بل كانت له مكانة كبيرة بين السلاطين الذين خلفوا صلاح الدين؛ فقد (توجّه إلى الملك العزيز عثمان بمصر...،وصار الملك العزيز لا يصدر أمراً إلا عن رأيه ومشورته)[2].

وقد استمرّت مكانة ابن شدَّاد عند الملوك الأيُّوبيِّين الّلاحقين كذلك، وهذا ما يؤكّده صاحب وفيات الأعيان حيث قال: (وفي سنة إحدى وتسعين، يعني وخمسمائة، اتصل القاضي بهاء الدين أبو المحاسن بخدمة الملك الظاهر، وقدم إليه إلى حلب وولاه قضاءها ووقوفها...، وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشاورة)[3].

وقد نال الواعظ زين الدّين بن عليّ بن نجا[4] مكانة عظيمة عند السلطان صلاح الدين الأيُّوبي خصوصا بعد كشفه للمؤامرة الخبيثة الّتي كانت تستهدف صلاح الدّين الأيُّوبي حيث (اجتمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد، وأن يفتكوا بصلاح الدين، وكاتبوا الفرنج، منهم القاضي المفضل ضياء الدين نصر الله بن عبد الله بن كامل القاضي...، والفقيه عمارة بن علي اليماني...، فوشى ابن نجا بخبرهم إلى السلطان...)[5]، وأمر السلطان بالقبض عليهم وقضى عليهم وسكنت الفتنة. وقد (كان كبير القدر، معظما عند صلاح الدين،... وكان صلاح الدين يكاتبه، ويحضره مجلسه، وكذلك ولده الملك العزيز من بعده)[6]، (وقال له الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين: إذا رأيت مصلحة في شيء فاكتب إليّ بها، فأنا ما أعمل إلا برأيك)[7].

ومنزلة سلطان العلماء الشّيخ العز بن عبد السّلام معروفة لدى السلاطين الأيُّوبيّين والمماليك من بعدهم، ويبيّن صاحب طبقات الشَّافعيّة هذه المنزلة قائلا: (ومما يدل على منزلته الرفيعة عندهم أن الملك الظاهر بيبرس لم يبايع أحدا من الخليفة المستنصر والخليفة الحاكم إلا

---

(1) الزركلي،الأعلام 346/3.

(2) ابن اصل، مفرج الكروب 12/3.

(3) ابن خلكان،وفيات الأعيان 89/7.

(4) انظر: الذهبي،سير أعلام النبلاء 393/21، وتأتي ترجمته في مبحث "أشهر خطباء هذا العصر"

(5) المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك 162/1.وانظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان 530/2.

(6) سير أعلام النبلاء 395/21.

(7) انظر: ابن الحسن، زين الدين بن عبد الرحمن الحنبلي(2005هـ).ذيل طبقات الحنابلة.ط1، الرياض: مكتبة العبيكان 532/2.

بعد أن تقدّمه الشيخ عز الدين للمبايعة ثم بعده السلطان ثم القضاة)[1] وموقفه مع الأمراء المماليك الأتراك في إجبارهم على شراء أنفسهم وتهديدهم بالخروج من القاهرة وخروج سكّان القاهرة خلفه([2]) يدلُّ على المرتبة المتميِّزة التي كان يتمتع بها العلماء والخطباء في ذلك الوقت.

خامسا: توافر دواعي الخطابة ومحفّزاتها

فالحروب الصّليبيّة الشّرسة الّتي شنَتها أروبًا بمباركة من البابا ضدّ المشرق الإسلاميِّ كان لها الأثر الكبير في استنهاض همم العلماء للقيام بالحشد والاستنفار والحضِّ على المقاومة، خاصّة وأنّ الحروب الصليبيّة تمّ إعلانها من قبل البابا نفسه واتّخذت الصّليب شعارا لها وجعلت الهدف الظاهريّ لها إنقاذ القدس والانتقام للحجّاج النّصارى، ما أدّى إلى ردّة فعل قويّة لدى العلماء والخطباء والسلاطين الّذين ما آلوا جهدا في إلهاب المشاعر وإيقاد الحميّة بخطاباتهم الهادفة لإقناع المسلمين بوجوب المقاومة والدّفع نحو التَّحرير. وخطبة صلاح الدِّين الأيُّوبيّ في حصار عكّا خير مثال على ذلك[3].

كما أنّ الغزو التتريّ ببربريّته وهمجيّته وبشاعة الجرائم الّتي اقترفها كان ملهما لقرائح الخطباء الأدبيّة الَّتي جادت بما لديها من كلمات فصيحة بليغة للإبقاء على جذوة المقاومة والتصميم على دحر الأعداء، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك خطبة خطيب قونيا سنة 654هـ[4]، والّتي حثّ فيها المسلمين على الدّفاع عن دينهم وأعراضهم والحفاظ على بلادهم. وكذلك آخر خطبة خطب فيها ببغداد لإظهار الحسرة والألم على مصاب المسلمين[5]، وتعدُّ خطبة ابن المنير الاسكندرانيّ[6] من أفضل ما قيل في هذه المناسبة، والّتي سيشير إليها الباحث في الخطابة في العصر المملوكي.

وقد لعبت الخلافات المذهبيّة والعقائديّة دورا لا بأس به في تطوُّر الخطابة؛ فقد انبرى مجموعة من العلماء للدّفاع عن مذاهبهم الفقهيّة والعقائديّة لا سيّما ما يتعلّق بمسائل الأسماء

---

(1) السبكي، تاج الدين(1413هـ).طبقات الشافعية الكبرى. ط2،هجر للطباعة والنشر، تح: الطناحي، محمود محمد و الحلو عبد الفتاح. 215/8.

(2) انظر: المصدر السابق 216/8.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة 177/1.

(4) العيني، عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك) 155/1، ذكرها في حوادث سنة 655هـ.

(5) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة 51/7.

(6) ستأتي ترجمته في" الخطابة في العصر المملوكي" في أشهر خطباء ذلك العصر.

والصّفات بين الحنابلة والشّافعيّة، ولا أدلُّ على ذلك من الخلاف الذي كان دائرا بين الواعظين الكبيرين زين الدين ابن نجا والشهاب الطوسي[1]، إذ (ذكر أبو شامة: أن الشهاب الطوسي لما دخل مصر كان يجري بينه وبين زين الدين العجائب من السُّباب ونحوه، فإن الطوسي كان أشعريًا، وهذا حنبلي. وكلاهما واعظ.قال: وجلس ابن نجية يومًا في القرافة بالجامع، فوقع عليه وعلى جماعة ممن عنده السقف، فعمل الطوسي خطبة، وذكر فيها قوله تعالى " فخرَّ عليهم السَّقْفُ مِنْ فَوْقهم "[2]...)[3] وهذا يدلُّ على احتدام الخلاف المذهبي بين العلماء حتى ماعادوا يتحرّجون من التّصريح بهذه الخلافات على المنابر وفي مجالس الوعظ. وخلاف العزِّ بن عبد السّلام مع الحنابلة في مسائل العقيدة كان جليًّا حيث كتب كتابا لتوضيح العقيدة للملك الأشرف بن موسى العادل يبيِّن فيه اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة[4]، ولا بُدَّ أنَّه كان يذكر ذلك في خطبه الَّتي لم يتوصّل الباحث إلاَّ إلى اثنتين منها. وقد لا حظ الباحث وجود ظاهرة معاكسة لظاهرة التناظر والاختلاف بيْن المتضادِّين، ألا وهي ظاهرة مدح عالم لعالم آخر في خطب خاصّة ينشئها لهذا المقصد، نحو ثناء سبط ابن الجوزي على الشيخ ابن عبد السلام في خطبته[5]، وتشجيع النّاس على قراءة كتبه، وكذلك ثناء ابن نجا الواعظ على الحافظ عبد الغني المقدسيّ[6]في حفظه وسعة علمه على المنبر في مسجد القرافة[7]، وهي ظاهرة تشير إلى مدى الاحترام الذي كان سائدا بين العلماء، كما أنّها أثرت مجال الخطابة في ذلك العصر.

وللأحداث السِّياسيّة دور لا بأس به في الاهتمام بالخطابة في العصر الأيُّوبيّ؛ فقد أنهى صلاح الدّين الأيُّوبيّ حكم الخليفة العاضد الفاطمي بقطع الخطبة له وإنشائها للخليفة العبّاسيّ

---

(1) الشهاب الطوسي الشيخ الامام، العالم العلامة، شيخ الشافعية، شهاب الدين، أبو الفتح، محمد بن محمود الخراساني الطوسي(522-696هـ) . وعظ بجامع مصر مدة: مات بمصر وحمله أولاد السلطان على رقابهم، رحمه الله.انظر:الذهبي، سير أعلام النبلاء 389/21.

(2) سورة النَّحل 26.

(3) الحنبلي،ذيل طبقات الحنابلة 535/2..

(4) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 218/8.

(5) انظر: المصدرالسابق 239/8، وسيذكر الباحث هذه الخطبة في مبحث خطب العصر الأيُّوبيّ.

(6)هو عبد الغني بن عبد الواحد.ابن علي الحافظ الإمام محدث الإسلام تقي الدين أبو محمد المقدسي الجماعيلي(541-600هـ).صاحب التصانيف. وصنف في الحديث كتبا منها " الكمال " وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مات بمصر. انظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله (1998هـ).تذكرة الحفاظ.ط1، لبنان: دار الكتتب العلمية، تح: عبد الرحمن العثيمين 535/2.

(7) انظر:الذهبي، سير أعلام النبلاء 452/21.

كما أسلفنا على عادة الخطباء في ذلك الوقت، كما أنّ الصّالح[1] إسماعيل بن نور الدّين زنكي قام بإلقاء خطبة في أهل حلب يستحثُّهم فيها على مقاومة جيش صلاح الدّين الأيُّوبيّ وعدم الاستسلام له نتيجة للخلافات السِّياسيّة الّتي نشبت بينهما[2]. وهاهو العز بن عبد السّلام يخطب خطبة عصماء اعتراضا على تسليم الصالح إسماعيل بن العادل[3] قلعة صفد للصليبيين، ولم يدع له في تلك الخطبة[4]، وقد تعرّض للسّجن والنَّفي جرّاء ذلك. وقد قام بالإنكار على الصالح نجم الدِّين أيُّوب حين خرج في زينته على قومه وجنده والأمراء تقبّل الأرض بين يديه، فقام بنصيحته وتذكيره بالمنكرات الّتي ترتكب في دولته[5].

كما أنَّ السفارات والوفود نشطت في ذلك الوقت، مما تطلّب ارتجال الكلام أحيانا بخطبة أو بموعظة، وسفارة كمال الدين ابن العديم من قبل السلطان الناصر يوسف[6] إلى الخليفة العبّاسي وخطبته التي ألقاها أمام الخليفة خير مثال على ذلك [7] والتي سيذكرها الباحث خلال الحديث عن خطب السّفارات في العصر الأيوبيّ، وهو يذكر في بغية الطّلب أنه أرسل عدّة مرات في مثل هذه السفارات، وكذلك ضياء الدين ابن الشّهرزوري الّذي استنتبّت له السفارة إلى ديوان الخليفة العباسي في آواخر عهد السّلطان صلاح الدين الأيوبيّ وأصبحت وظيفة مُقرَّة[8]، ويذكر ابن كثير أنّ (الخطيب شمس الدين ابن الوزير أبو الضياء خطيب الديار المصرية، وابن وزيرها، كان أول من خطب بديار مصر للخليفة المستضئ بأمر الله العباسي، بأمر الملك

---

(1) الملك الصالح إسماعيل بن محمود بن زنكي: من ملوك بني زنكي في الشام والجزيرة(558 – 577 هـ).بويع له بدمشق بعد وفاة أبيه (سنة 569 ه) وهو ابن إحدى عشرة سنة. وامتنع عليه الصالح في حلب، فقاتله. ثم صالحه على أن يبقى فيها، واستمر الصالح في حلب إلى أن توفي شابا. انظر: الزركلي،الأعلام: 327/1.

(2) انظر: ابن واصل،مفرج الكروب في أخبار بني أيوب 23/2.

(3) هو إسماعيل بن محمد بن أيوب بن شاذي، أبو الفداء، الملك الصالح.استولى على دمشق وحكمها، وعسف رعيتها وظلمهم، وخاف من الصالح أيوب فصالح الصليبيين،ووقع في أسر الصالح نجم الدين أيُّوب، وسجن في قلعة الجبل، ثم خرج وخنق، وذلك في سنة ثمان وأربعين وستمائة. انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد(د.ت). بغية الطلب في تاريخ حلب.(د.ط)، دمشق: دار الفكر 1808/4.

(4) انظر:الزركلي، الأعلام 21/4، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، 110/2.

(5) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 211/8.

(6) هو الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين(627– 659هـ) ولي حلب بعد موت أبيه العزيز، وعمره سبع سنين ثم ملك حران والرها والرقة وملك حمص، ثم ملك دمشق، قتل مع أخيه الظاهر على يد هولاكو في أذربيجان. انظر:أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر 211/3.

(7) انظر: النويري،نهاية الأرب 243/29.

(8) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين 284/2، الحنبلي، مجير الدين(199هـ).الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل(.ب.ط)، مكتبة دنديس، عمان،تح: عدنان يونس نباتة، 341/1.

صلاح الدين، ثم حظي عنده حتى جعله سفيرا بينه وبين الملوك والخلفاء...، ثم جعل الناصر مكانه الشهرزوري المتقدم بمرسوم السلطان، وصارت وظيفة مقررة.)[1].

وفي تعيين السّلطان النّاصر صلاح الدّين الأيُّوبيّ في منصب السّفارة خطيبا وقاضيا دليل قويٌّ على أهميَّة الخطابة لمثل هذه الوظيفة؛ لأنَّها تحتاج إلى لباقة في الكلام، وقوّة في الحجّة وقدرة على الإقناع لا يتقنها إلَّا الخطباء المفوّهون، كما يدلُّ على المنزلة المتميّزة الّتي حظي بها الخطباء في ذلك الزّمان ما أدّى إلى زيادة الاهتمام بالخطابة وازدهارها.

وقد كان لعلماء آخرين دور مهمّ في هذه السّفارات التي لم تكن تخلو من الخطابة لإيصال المقصود، نذكر منهم شيخ الشيوخ صدر الدين محمد وسبط بن الجوزي وابن شدّاد[2] والفقيه عيسى الهكاري[3].

والدواعي الدينيّة لم تكن غائبة عن المشهد؛ إذ لعبت دورا كبيرا في ازدهار الخطابة في العصر الأيُّوبيّ بسبب اختلاط المسلمين بالصّليبيين في بعض المدن، ما أدّى إلى ظهور عادات وسلوكيّات تنافي مبادئ الدّين الحنيف والّذي أوجب على الخطباء التَّدخُّل لإنقاذ المجتمع الإسلاميّ من مظاهر الفساد التي علقت به. كما أنّ حالة التّقهقر التي عاشتها الأمَّة أمام الصليبيِّين والمغول أدّت بالخطباء إلى إرجاع الأمر للبعد عن الدِّين والانغماس في الفساد والشهوات سواء على مستوى الحكّام أو المحكومين، والشيخ ابن عبد السلام كان له دور كبير في نصيحة الشعب والخلفاء في عدم الاسترسال في المعاصي وضرورة العودة إلى الله[4]، ولا تزال مواعظ سبط ابن الجوزي وابن نجا تمثِّل نبراسا في الإصلاح الدّينيّ الذي سعى معظم العلماء في ذلك الوقت لتحقيقه للوصول إلى مجتمع نقيٍّ قادرعلى النهوض من جديد.

وعلى الرّغم من الأحداث القاسية الّتي كانت تفرض جوًّا من التوتّر والترقّب على المشهد،إلّا أنّه قد وصلتنا بعض النُّصوص الّتي تشير إلى ممارسة الخطابة الاجتماعيّة؛ فالخطابة ظاهرة اجتماعيّة تنمو بنموّ المجتمع وترقى برقيّه وتنضج بنضوجه، والمناسبات الاجتماعيّة تستمرّ في الانعقاد على الرّغم من قساوة الظروف وحالة الاستنفارالدّائم، فظهرت خطب النِّكاح

---

(1) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية 521/16، وكذا في الروضتين في أخبار الدَّولتين 284/2.

(2) انظر: البواعنة، لؤي(2006م).دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي.(ب ط)، دار اليازوري العلميّة، ص 324-329.

(3) انظر: أبو شامة،الروضتين 183/2

(4) السبكي، طبقات الشافعيّة الكبرى 241/8.

الّتي كان يهتمُّ بها لإشهار هذه المناسبة اجتماعيًّا، فقد أُنتدب محمد بن عبد المحسن ابن الرفاء [1] والد الشرف الأنصاري شيخ شيوخ حماة[2] من قبل الديوان العزيز ببغداد لعقد نكاح بعض مماليك الخليفة على بعض جواريه، فارتجل بديها خطبة من روائع الخطب في العقود[3] وقد مورست الخطابة في مناسبات دينيّة أخرى، ولكن طريقة ممارستها كانت تتمّ بأسلوب جمعيّ، حيث كان يشارك فيها معظم أفراد المجتمع نحو:الخطابة والوعظ في مجالس الاحتفال بالمولد النّبوي[4]، والخطابة بمناسبة السنة الهجريّة الجديدة، حيث كانوا يقرنون بين كلّ هذه الظواهر ومظاهر البعد عن الله في المجتمع،كما أنَّ بعض خطب التّأبين انتشرت في ذلك الوقت لإظهار الحزن والأسى على فقد عزيز، ولاغتنام الفرصة للتذكير بمناقبه والدُّعاء له، وقد عثرت على خطبة لابن نجا في تأبين ابنه[5] سيتمُّ عرضها في مبحث الخطابة الاجتماعيّة في العصر الأيُّوبيّ.

وهذه العوامل والدّواعي جعلت الخطابة تصيب حظّا وافرا من الازدهار والرّقيِّ، وذلك من حيث المكانة الّتي حظيت بها في مختلف مناحي الحياة: الحربية والسِّياسيَّة والدّينية والاجتماعيّة والتعليميّة؛ إذْ كانت من المناصب الرَّفيعة في الدَّولة الّتي لا ينالها إلّا منْ وصف بالفصاحة والبلاغة وغزارة العلم وقوّة الدِّين، وسنحاول في الصفحات القادمة بيان أهمّ الصّفات الّتي كان يتمتّع بها الخطباء، وسنفرد مبحثا للكلام عن أشهرهم في هذا العصر.

---

[1] (ابْن الرفاء) والد شيخ الشيوخ شرف الدين محمد بن عبد المحسن القاضي الفقيه زين الدين (556–616هـ)ولد في دمشق وهو والد شيخ الشيوخ عبد العزيز، ولي القضاء والأوقاف بحماة، وقد كانت له اليد الطولى في الترسل. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات 23/4،اليونيني: ذيل مرآة الزمان 277/2–293 ومن الجدير بالذكر أنّ ابنه الشرف الأنصاري لُقِّب بابن الرّفاء أيضا.

[2] هو الصّاحب شيخ الشيوخ الشرف الأنصاري، أبو محمّد عبد العزيز بن محمّد(586–662هـ). نشأ في مملكة حماة الأيُّوبيّة، كان أديبا شاعرا خطيبا،وله اليد الطولى في الترسُّل والنظم. توفِّي في حماة. انظر: السبكي،طبقات الشافعية الكبرى 258/8،الصفدي، فوات الوفيّات 354/2،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 214/7.

[3] انظر: الباشا،الأدب في بلاد الشام ص324 نقلا عن اليونيني، قطب الدين موسى(1992م).ذيل مرآة الزمان.ط2، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي 293/2.والباحث سيذكر هذه الخطبة في نماذج الخطابة الاجتماعيّة من هذا العصر.

[4] انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء 234/22–237. حيث يذكر أنّ السلطان الملك المعظم مظفر الدين أبو سعيد كوكبري بن علي ابن بكتكين صاحب إربل الملك زين الدين علي كوجك(ت630هـ) كان يحتفل بالمولد (و احتفاله بالمولد فيقصر التعبير عنه، كان الخلق يقصدونه من العراق والجزيرة وتنصب قباب خشب...ويعمل عدة خلع للصوفية، ويتكلم الوعاظ في الميدان، فينفق أمولا جزيلة...) وهذا يدلُّ على أنّ الخطابة كانت تمارس في هذه المناسبة.

[5] انظر: الحنبلي،ذيل طبقات الحنابلة 535/2.

المبحث الثاني: أشهر خطباء هذا العصر

أوّلا:أهمّ الصّفات الّتي يجب أن يتحلّى بها الخطباء

كانت الخطابة في هذا العصر تمارس من قبل فئتين من الخطباء بشكل عام: فالفئة الأولى هي فئة الخطباء والوعّاظ المعيّنين من قبل الدّولة في هذه الوظيفة في مساجد تابعة لسلطة الدّولة مقابل أجر يخَصَّص لهم فضلا عن الميِّزات الأخرى، وغالبا ما كان يتمُّ انتقاؤهم من العلماء والمدرّسين أو القضاة ومفتي المذاهب، وقد أشار القلقشندي إلى شرف هذه الوظيفة[1]، والفئة الثانية هي فئة السّلاطين والأمراء وأصحاب المراتب الرَّفيعة في الدّولة والّذين غالبا ما كانوا يمارسون الخطابة الحربيّة قبل المعارك بشكل ارتجاليٍّ لتحريض النَّاس على الجهاد وتحفيزهم على الثبات عند اللِّقاء، وقد مورست الخطابة الوعظية من قبل شيوخ الطرق الصوفيّة لإرشاد مريديهم على نطاق ضيّق.

وسنأتي في هذا المبحث على ذكر أمثلة للخطباء المعينين من قبل الدولة،وللخطباء من الأعيان والقادة، ومن ثمّ سنذكر الخطباء الوعّاظ الّذين كرّسوا أنفسهم للوعظ الدِّينيّ، وذلك بعد أن نستعرض أهمّ الصِّفات الّتي يجب توافرها في الخطباء بشكل عامّ، ومن ثمّ أهمّ الصّفات الّتي ذكرها علماء هذا العصر في تراجمهم للخطباء المشهورين الّذين برعوا في هذا الفنّ.

فمن الصِّفات العامَّة الّتي يجب توافرها في الخطباء: قوّة الملاحظة، وحضورالبديهة، وطلاقة اللّسان، ورباطة الجأش، والقدرة على مراعاة مقتضى الحال. ولقوّة العاطفة وسعة الاطِّلاع والالتزام الدِّينيّ[2] أثر كبير في التأثير على الجماهير وإقناعهم بفحوى الخطاب.أمّا خطباء هذا العصر (فلم يتولّ مزاولة هذا الفنّ الأدبيّ في المساجد الكبيرة إلّا من عرف عنهم طول الباع في حفظ القرآن وفي العربيّة وفي فصاحة اللّسان وفي علوم الدِّين. فهم قد جمعوا إلى البراعة في الخطابة، بين مناصب القضاة والمفتين والفقهاء والأساتذة في المعاهد المشهورة)[3]

---

[1] انظر باب أهمِّيّة الخطابة في هذا البحث.

[2] أبو زهرة، أبوالخطابة: أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب55-59.

[3] الساريسي، نصوص من الأدب الإسلامي في عصر الحروب الصّليبيّة ص118.

وقد ذكرنا سابقا قول أبي هلال العسكريّ عن الخطابة مبيّنا أهم ما يجب أن تتضمّنه حيث بيّن أنّ أساسها هو الطبع ووجود الاستعداد الفطريّ لدى الخطيب، وقوامها الممارسة، وتقويتها تتمُّ بالشواهد والمرويّات والّتي تعتمد على سعة الاطّلاع، وزينتها تكون بمراعاة الدّقة اللُّغويّة وقواعد الإعراب وتخيُّر الألفاظ المناسبة للمعاني المطروحة في الخطبة، مما يتطلّب حرص الخطيب على امتلاك هذه الصّفات والتّمثُّل بها.

وقد ذكر العلماء الّذين ترجموا لبعض الخطباء صفات لهم سنأتي على أهمّها؛ فقد قال صلاح الدِّين الصَّفدي[1] واصفا القاضي محيي الدّين بن زكي:(والقاضي محيي الدِّين بن زكي من بيت القضاء والحشمة والأصالة والعلم وكان حَسَنَ اللّفظ)[2]؛ فكونه من بيت القضاء والحشمة يعبِّر عن أصله الطّيِّب الّذي يورثه الثِّقة بين النّاس، كما أنّ العلم الّذي يفيض في كلام الخطيب ولفظه الحسن ذا الإيقاع المناسب صفات مهمّة تورث الخطيب القبول والإقبال عليه.

وأذكر في هذا المقام جانبا آخر من الصّفات الّتي كانت يتفرّد بها بعض الخطباء نحو العزّ بن عبد السّلام حيث مدحه صاحب طبقات الشّافعيّة قائلا: (ولا رأى من رآه مثله علما وورعا وقياما في الحق وشجاعة وقوة جنان وسلاطة لسان...)[3]؛ فهذه الصِّفات لم يتحلّ بها جميع الخطباء في ذلك الوقت لأنّها تحتاج لشجاعة وصبر على الأذى لا يطيقه إلّا الخواصّ.

ونلاحظ أنَّ العماد الكاتب ركَّز على ميِّزات أخرى لدى الخطيب الحصكفيّ[4] توافق مذهبه في الكتابة حيث قال واصفا إيَّاه: (كان علّامة الزمان في علمه، ومعرّي العصر في نثره ونظمه، له التّرصيع البديع والتّجنيس النفيس، والتّطبيق والتّحقيق، واللّفظ الجزل الرّقيق، والمعنى السّهل العميق،...)[5]، وجلُّ هذا الوصف الّذي ذكره العماد الكاتب يركِّز على براعة الخطيب في انتقاء الألفاظ وتنسيقها بطريقة ماهرة مراعيا فيها الصّنعة اللَّفظيّة والمحسِّنات

---

[1] صلاح الدين الصفدي (696 – 764 هـ) خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين: أديب، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صفد (بفلسطين). وتولى ديوان الانشاء في صفد ومصر وحلب، له زهاء مئتي مصنف، منها (الوافي بالوفيات – خ) كبير جدا، في التراجم. انظر: الزركلي،الأعلام 315/2.

[2] الوافي بالوفيات 122/4

[3] انظر:السبكي، طبقات الشافعيّة الكبرى 209/8.

[4] انظر: الزركلي،الأعلام 148/8. ستأتي ترجمته في مبحث " أشهر خطباء هذا العصر"

[5] انظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان 206/6

البديعيّة الّتي بالغ العماد الكاتب في التزامه بها[1]، ورفض العزُّ بن عبد السّلام أنْ ينسج خطبه منقادا إليها[2].

وسنمرُّ في الصّفحات القادمة على أهمّ الخطباء في هذا العصر غير مسهبين في العرض؛ لكي يتسنّى لنا الحديث عن فنون الخطابة وعرض بعض النماذج لكلّ فنّ ما أمكن.

ثانيا: أهمُّ الخطباء الّذين تقلّدوا منصب الخطابة رسميًّا

1.**محيي الدّين ابن الزّكي(550 – 598 هـ)**[3]: وهو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبدالعزيز بن علي بن الحسين بن محمد القُرشيّ،الملقب محيي الدين، المعروف بابن زكي الدين فقيه خطيب أديب، حسن الإنشاء. كانت له عند السلطان صلاح الدين منزلة رفيعة.ولد ابن زكي في دمشق سنة 550هـ، وهو من أسرة مشهورة بالقضاء، تولى ابن الزّكي القضاء نيابة واستقلالاً، فقد ذُكر أنه تولى القضاء بدمشق نيابة عن الشّيخ شرف الدّين عبدالله بن محمد بن هبة الله بن عصرون[4]، ويذكر ابن كثير أنه قد ولي قضاء دمشق، ثم أُضيف إليه قضاء حلب وقد مدح صلاح الدين الأيُّوبيّ بعد فتح حلب بقصيدة في سنة تسع وسبعين منها ذلك:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر   مبشرا بفتوح القدس في رجب

فاتفق فتح القدس في رجب بعد أربع سنين[5] وشهد فتح بيت المقدس فكان أول من خطب بالمسجد الأقصى بعد ما تطاول كثير من الحاضرين لها فلم يتقدّم عليه غيره وأتى بتلك الخطبة البديعة المفتتحة بتحميدات الكتاب العزيز[6]

---

[1] انظر في مؤلّفات العماد الكاتب نحو: الأصبهاني، عماد الدين الكاتب(2004هـ).الفتح القسي في الفتح القدسي.ط1، مصر: دار المنار. فهو يبالغ فيه في استخدام المحسنات البديعيّة.

[2] انظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعيّة 110/2.

[3] انظر ترجمته في: انظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان 229/4،،الذهبي، سير أعلام النبلاء 358/21، 359، 144،السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 157/6، الأعلام 280/6.

[4] بن أبي عصرون عبد الله بن محمد بن هبة الله التميمي، شرف الدين أبو سعد، ابن أبي عصرون(492 – 585 هـ): فقيه شافعي، من أعيانهم. ولد بالموصل. واستقر في دمشق، فتولى بها القضاء سنة 573.انظر:الزركلي، الأعلام 124/4.

[5] الذهبي،سير أعلام النّبلاء:260/21.

[6] السبكي،طبقات الشّافعيّة الكبرى 158/6.

واشتغل ابن الزكي بالتدريس إذ إنه درَّس في عدد من المدارس بدمشق[1]، وتوفي في السابع شعبان سنة 598هـ وله ثمان وأربعون سنة. وقد وصلت إلينا خطبة واحدة له وهي خطبة الفتح المشهورة في السابع والعشرين من رجب سنة 583هـ، على الرّغم من أنّه خطب في المسجد الأقصى لثلاث جمع بعدها حسب ما تذكره بعض المصادر[2].

2. **العزُّ بن عبد السلام** (577 – 660 هـ)[3]: عبد العزيز بن عبد السّلام بن أبي القاسم بن الحسن السُّلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد.ولد ونشأ في دمشق.وزار بغداد سنة 599هـ، فأقام شهرا. وعاد إلى دمشق، فتولّى الخطابة والتّدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي[4]، وبرع في المذهب، وفاق فيه الأقران والأضراب وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد وصنف التصانيف المفيدة،وابن دقيق العيد هو الذي لقّبه بسلطان العلماء[5]. وقد قام العز بن عبد السلام بدور كبير في إزالة بعض البدع في الخطابة؛ فقد (أزال كثيرا من البدع التي كان الخطباء يفعلونها من دق السيف على المنبر وغير ذلك وأبطل صلاتي الرغائب ونصف شعبان ومنع منهما...)[6]، وأضاف ابن قاضي شهبة في البدع الّتي أزالها قائلا: (فأزال كثيرا من بدع الخطباء ولم يلبس سوادا، ولا سجع خطبته بل كان يقولها مسترسلا، واجتنب الثناء على الملوك، بل كان يدعو لهم،...ولم يكن يؤذن بين يديه يوم الجمعة إلا مؤذِّن واحد...)[7]، وهذا يدلّ على التزامه بالسّنَّة وبلوغه مرتبة الاجتهاد، كما أنّه يعدُّ المجدِّد

---

(1) انظر:النعيمي، الدارس 216/1-225

(2) انظر:أبو شامة،الرَّوضتين 248/3.

(3) الزركلي، الأعلام 21/4،ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعيّة 109/2،السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 209/8-256، النويري،نهاية الأرب 29/ 176-191.

(4) الزركلي، الأعلام 21/4.

(5) ابن قاضي شهبة،طبقات الشافعية 110/2، ومن تصانيفه (" التفسير الكبير " و " وقواعد الشريعة – خ " " و " قواعد الاحكام في إصلاح الانام – ط " فقه، و " بداية السول في تفضيل الرسول – ط) انظر: الزركلي،الأعلام 21/4.

(6) السبكي،طبقات الشّافعيّة الكبرى 210/8.

(7) ابن قاضي شهبة،طبقات الشافعيّة، 110/2. والدُّعاء للسُّلطان في الخطبة فيه خلاف بين العلماء حيث إنَّ(أول من دَعَا للخليفة فِي الْخطْبَة ابْن عَبَّاس، دَعَا لعَلي بن أبي طَالب رَضِي الله عَنْهُمَا فِي خطبَته وَهُوَ عَامل لَهُ على الْبَصْرَة،فَقَالَ:اللَّهُمَّ انصر عليا على الْحق. الثَّانِيَة أَن يلْتَزم فِي الْخطْبَة التنويه بمقام الْملك والاشادة باسم الْقَائِم بِهِ وَفِيه تَعَارَضَت أنظار الشُّيُوخ فَمن مُنكر لَهُ وحاكم عَلَيْهِ بالبدعة لعدم الْعَمَل عِنْد الْأَوَّلين كالشيخ عز الدّين وَمن تبعه وَمن مصوِّب وَمن مُعْتَقد لاستحسانه...) انظر: ابن الأزرق، محمد بن علي(ب.ت).بدائع السّلك في طبائع الملك.ط1،وزارة الإعلام، العراق، تح: علي النّشّار. 244/2

المبدع في مجال الخطابة؛ إذْ إنّه لم يسجع في خطبه ولم يسرْ على عادة أهل زمانه من الأدباء والخطباء.

وقد كان له موقف معارض للصّالح إسماعيل اتّسم بالشّجاعة فيما يتعلّق بتسليم قلعة صفد وقلعة شقيف ومنطقة طبريّا للصّليبيّين والتّحالف معهم ضدّ الصّالح نجم الدّين أيُّوب وتمكينهم من دخول دِمشق لابتياع السِّلاح(واستفتى المتدينون، ممن يبيع السلاح، الشيخ عز الدين: عبد العزيز بن عبد السلام، في مبايعة الفرنج السلاح. فأفتاهم أنه يحرم عليهم بيعه للفرنج. وتوقف عن الدعاء للملك الصالح إسماعيل على منبر الجامع بدمشق، وجدد دعاءً يدعو به على المنبر، بعد الخطبة الثانية قبل نزوله، وهو: اللهمّ أبرم لهذه الأمّة أمراً رشيداً، يعزّ فيه وليك ويذلّ فيه عدوّك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي فيه عن معصيتك. والناس يصيحون بالتأمين، والدّعاء للمسلمين)[1]. ويكون العزُّ بن عبد السَّلام بهذا الدُّعاء قد أعلن نزع يد الطّاعة من السّلطان وردّ البيعة، مما أدّى إلى قيام السُّلطان بسجنه ومن ثمّ إبعاده إلى الكرك أوَّلا ومن ثمّ اختار الشيخ السّفر إلى مصر، فاستقبله الصّالح نجم الدِّين أيُّوب خير استقبال،(فولَّاه صاحبها الصالح نجم الدّين أيُّوب القضاء والخطابة ومكَّنه من الأمر والنَّهي)[2].

(وكان علم عصره في العلم جامعا لفنون متعدّدة عارفا بالأصول والفروع والعربيّة، مضافا إلى ما جُبل عليه من ترك التّكلف مع الصّلابة في الدّين،... قلت: وترجمة الشّيخ طويلة وحكاياته في قيامه على الظّلمة وردعهم كثيرة مشهورة. توفِّي بمصر في جمادى الأولى سنة ستين وستمائة)[3]. والحقيقة أنّ الشَّيخ كان علمًا في الخطابة، متملِّكا لزمامها، محرِّرا لها من الصّنعة اللّفظيّة والتكلُّف، مركّزا فيها على المعاني الهادفة. وممّا يؤسف له أنّ المصادر الأدبيّة والتَّاريخيّة لم تحفظ لنا الكثير من خطبه إلّا الدُّعاء سالف الذِّكر في نهاية خطبته، وكذلك خطبة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر قالها في حقِّ الصّالح نجم الدّين أيُّوب والّتي سنشير إليها لاحقا، ولكن بعض نصائحه المحفوظة في الكتب التّاريخيّة والمتعلِّقة بالإنكار على السلاطين[4]،

---

[1] النويري،نهاية الأرب 182/29، وانظر:المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك 407/1 والدُّعاء في السلّوك: (اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي فيه معصيتك، والناس يضجون بالدعاء).

[2] الزركلي، الأعلام 21/4.

[3] ابن قاضي شهبة،طبقات الشّافعيّة 111/2.

[4] انظر: السبكي،طبقات الشّافعيّة الكبرى 241/8.

وفتاويه المنثورة في كتبه[1]، ورسائله في بيان عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة([2]) تشكِّل إضاءة على أسلوب العزّ بن عبد السّلام في الخطابة.

وما يهمُّنا في هذا المقام مدرسته الّتي اختطَّها لنفسه في التّعبير متحرِّرا من التقيُّد بالصَّنعة اللّفظيّة بعيدا عن مدرسة الخطيب الحصفكيّ، ومدارس كبار كتّاب الرّسائل الدِّيوانيَّة نحو: القاضي الفاضل والعماد الكاتب، والّذين عدُّوا الصّنعة اللَّفظية والتفنُّن في استعمال الفنون البديعيّة مهارة لا يتقنها إلّا المتخصِّصون، وقد روى ابن خلّكان في ترجمة العماد الكاتب أنّه(كان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف، فمن ذلك ما يحكى عنه أنه لقيه يوماً وهو راكب على فرس، فقال له: سر فلا كبا بك الفرس، فقال له الفاضل: دام علا العماد، وهذا ممّا يقرأ مقلوباً وصحيحاً سواء)[3]. وهذا يدلُّ على أنَّ معرفة الفنون البديعيّة والنّسج على أصولها كان من سمات ذلك العصر، بل وتجري الحوارات بين كبار الأدباء على أساسها، وهذا ما عدّه ابن عبد السّلام بدعة يجب التخلُّص منها لا سيّما في الخطابة.

3. **الخطيب الحصكفي (459 – 551 هـ)**[4]: يحيى بن سلامة بن الحسين، أبو الفضل، معين الدين، الخطيب الحصكفي الطنزي، أديب، من الكتاب الشعراء. صاحب ديوان الشعر والخطب

---

[1] انظر: عبد السلام، عبد العزيز (1986هـ).كتاب الفتاوى.ط1،دار المعرفة، بيروت، تح: عبد الفتّاح أبو غدّة ص 77.
وأنقل هنا فتواه في عهد السُّلطان قطز حول جواز أخذ السُّلطان من أموال الرَّعيّة بهدف محاربة التّتار وهي كما يلي: **(وخلاصة ما قال: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ولتساووا هم والعامة. وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا)**. انظر:ابن تغري بردي، النُّجوم الزَّاهرة 72/7، ابن إياس،بدائع الزهور ص78.

[2] انظر:السبكي طبقات الشافعيّة الكبرى 219/8. حيث قال: **(الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله ورضي عنه:الحمد لله ذي العزة والجلال والقدرة والكمال والإنعام والإفضال الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات...)**والنَّصُّ طويل يمكن أن يشكِّل لدينا تصوُّرا عن أسلوب الشَّيخ العزّ بن عبد السَّلام في الخطابة.

[3] ابن خلكان،وفيات الأعيان 150/5، وانظر: القزويني، جلال الدّين محمَّد (1998هـ).الإيضاح في علوم البلاغة.ط4، بيروت:،دار إحياء التُّراث، ص366 حيث سمّى هذا الفنّ بالقلب.

[4] انظر ترجمته في: الزركلي،الاعلام 148/8،السبكي،طبقات الشافعيّة الكبرى 330/7، ابن خلكان،وفيات الأعيان 205/6، 205،الذهبي،تاريخ الإسلام 39/12

والرسائل، ولد بطنزة[1] ونشأ بحصن كيفا، وقدم بغداد فاشتغل بالأدب على الخطيب أبي زكريا التبريزي وأتقنه حتى مهر فيه[2]، وولي الخطابة بها وأفتى النّاس وشغلهم بالعلم.

وقد نقل الباحث إعجاب العماد الكاتب وانبهاره[3] بأسلوب ومدرسة الخطيب الحصكفي الّتي ركّزت على الصّنعة اللّفظية البديعيّة،(وهو من أعلام مدرسة النّثر المقفّى(المصنوع)، بوصفه يمثِّل مرحلة مهمّةً من مراحل تطوُّر النَّثر العربيّ)[4]، وله مقامة يفتخر بأنّه ذكر فيها مائة وأربعين كلمة غريبة[5] وقد بيّن عمر موسى الباشا أنّ له مذهبا نثريًا خاصًا أثَّر تأثيرا كبيرا في التَّصنيع البلاغي والتَّكلُّف البديعيّ اللّذين طبعا الأساليب البيانيّة بطابعهما الخاصّ[6].

ولم يتمكّن الباحث_للأسف_ من الاطّلاع على ديوان الخطب الخاصّ بالحصكفيّ بسبب فقده كما هو الحال مع باقي دواوين الخطباء التي أُلِّفت في هذا العصر، لكنّ الباحث يورد هذا المقطع من إحدى رسائله لإلقاء مزيد من الضّوء على مذهبه النّثريّ:

(فآنس أجمالا تزمّ، وأحمالا تُضمّ، وأحوالا تهول، وأهوالا تحول، وأوجالا تصول، وأصوالا تجول، وسمع تنادر القطَّان بمفارقة الأوطان...)[7]. فهذا المقطع مليء بالتّرصيع والموازنة والجناس، وقد أصبحت هنا هدفا لذاتها وليست وسيلة لإيصال المعنى العميق بأسلوب رائق جميل،و(لقد أجهد الحصكفي نفسه بهذه الجناسات الّتي بالغ فيها، وفي لزوم ما لا يلزم في محاولة لإثبات مقدرته اللُّغويّة)[8].

4. **الخطيب الدّولعي (514 – 598هـ)**[9]: الشيخ الإمام العالم المفتي، خطيب دمشق، ضياء الدين، عبد الملك بن زيد بن ياسين الدّولعي الشّافعي، ولي خطابة دمشق وأقام بها مدّة طويلة

---

(1) طنزة بفتح أوله وسكون ثانيه وزاي بلفظ واحدة الطنز وهو السخرية بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر. انظر: معجم البلدان 43/4.

(2) انظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان 205/6.

(3) السبكي، طبقات الشافية الكبرى 330/7.

(4) سامي يوسف أبو زيد، أدب الدول المتتابعة 367.

(5) ضيف، شوقي(1976م).الفنّ ومذاهبه في النّثر العربيّ.ب.ط، دار المعرف، مصر ص 307.

(6) انظر: الباشا،الأدب في بلاد الشّام ص774.

(7) أبو زيد، أدب الدول المتتابعة 369.

(8) المصدر السابق 369.

(9) انظر ترجمته في: الزركلي،الأعلام 179/4،الذهبي،سير أعلام النبلاء 352/21،ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعيّة 32/2،السبكي، طبقات الشّفعيّة الكبرى 189/7،الصفدي، الوافي بالوفيات 111/19.

وكان له ناموس وسمت حسن يفخم كلامه[1] وهو الّذي غسّل السُّلطان صلاح الدِّين الأيُّوبيّ عند وفاته[2]. لم يبلغ الدولعي مرتبة السابقين في الشهرة، والباحث لم يعثرله على أيّة خطبة.

ثالثا: الخطباء من القادة والأعيان والسُّفراء

لم تكن الخطابة حكرْا على الخطباء المعيّنين من قبل الدّولة، بل كان القادة والأعيان والسُّفراء يمارسونها حسب ما يتطلّبه المقام، وغالبا ما تكون بشكل ارتجاليّ بناء على الموقف، وقد برع منهم العديد في هذا المجال نذكر منهم:

1. **السلطان الناصر صلاح الدِّين الأيُّوبيّ (532-589هـ)**[3]: فقد كان صلاح الدّين الأيُّوبيّ محبًّا للعلم والأدب كما أشرنا إلى ذلك سابقا،وكان يقصد بوقعاته أيام الجمع، ولا سيِّما أوقات صلاة الجمعة، تبرُّكا بدعاء الخطباء على المنابر،فربما كانت أقرب إلى الإجابة[4]. وفي ذلك يقول الشاعر محمد بن علي بن أسعد الحسيني نقيب الأشراف[5] بالديار المصريّة:

غاراته جمع فَإِن خطبت لَهُ   فِيهَا السيوف فَكل هام مِنْبَر[6]

وقد اشتهر صلاح الدّين الأيُّوبيّ بخطبه الحربيّة الّتي سجّلها له ابن شدّاد في حصار عكّا[7]، وعندما توجَّه الفرنج مرّة أخرى لاحتلال القدس سنة 583هـ[8]، وسيقوم الباحث بعرض الخطبيتين في المبحث الّذي سنستعرض فيه نماذج من خطب هذا العصر.

2. **القاضي ابن شدّاد (539 - 632 هـ)**[9]: يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسديّ الموصليّ، أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد: مؤرخ، من كبار القضاة، وارتحل إلى بغداد فتفقه، وبرع، وتفنن، وصنف، ورأس، وساد[10]. التحق بصلاح الدِّين الأيُّوبيّ، فولّاه قضاء

---

(1) ابن قاضي شهبة' طبقات الشافعية 88/2.

(2) انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية ص364.

(3) انظر: مبحث الحياة العلميّة والأدبيّة في العصر الأيوبيّ وعوامل ازدهارها في هذه الرسالة.

(4) انظر: ابن شدّاد، النّوادر السُّلطانيّة، ص127، ص148.

(5) محمد بن أعد بن معمر العبيدي العلوي(525-588هـ)،ومولده ووفاته بمصر. انظر:الزركلي، الأعلام 31/6.

(6) انظر: أبو شامة، الروضتين 240/3.

(7) انظر:ابن شدّاد، النوادر السُّلطانيّة ص177.

(8) انظر: المصدر السّابق ص 321.

(9) انظر ترجمته في: الزركلي،الاعلام 230/8، الذهبي، سير أعلام النبلاء 282/22،السبكي، طبقات الشافعية الكبرى /361،ابن خلكان، وفيات الاعيان 88/7،

(10) الذهبي، سير أعلام النبلاء 382/22.

العسكر وبيت المقدس والنظر على أوقافه[1]، وصار يرافقه فـــي أكثر معاركه، كما غدا كذلك شيخاً له يتلو عليه الآيات القرآنية والأحاديث النّبويّة التي تحثّ علـــى الجهاد [2]، وكان صلاح الدين الأيُّوبيّ يرسل ابن شدّاد في السفارات[3]. وبعد وفاة صلاح الدّين الأيّوبيّ سار إلى الملك الظّاهر في حلب، ودبّر أمور الملك فيها[4]، وجعله عنده في رتبة الوزارة والمشاورة[5]، وكانت الطلبة تقصده من البلاد لثلاث اجتمعن فيه العلم والمال والجاه[6].

والقاضي ابن شدّاد كان من الخطباء الّذين حرص صلاح الدّين الأيُّوبيّ أن يرافقه في الغزوات،ويرسله في السّفارات؛ لعلمه الغزير ولمقدرته على الخطابة. وينقل لنا ابن شدّاد أمر السُّلطان له في حصار عكّا بحثِّ الجند على الجهاد[7]، ما حدا بابن شدّاد للامتثال لأمر السّلطان، وإلقاء خطبة عن الجهاد سيذكرها الباحث في مبحث الخطب الحربيّة.

3. **الصّاحب كمال الدّين ابن العديم(588 – 660 هــ)**[8]: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي،مؤرخ، محدث، من الكتاب، له شعر حسن، ولد بحلب، ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق، وتوفي بالقاهرة[9] وهو من بيت القضاء والحشمة، ولَدُ القاضي العالِم أبي الحسن ابن القاضي أبي الفضل خطيب حلب، وكان معظما عند الخاصة والعامة، وله الوجاهة التامة عند الملوك[10]،،وقد ناب في سلطنة دمشق[11]،وولي قضاء حلب خمسةٌ من آبائه متتالية، وترسَّل عن الملوك، وقَدِم إلى مصر رسولاً وإلى بغداد[12] وبعث النّاصر إلى المستعصم مع

---

[1] الزركلي،الأعلام 230/8.

[2] انظر:ابن شداد، النوادر السلطانية ص37، ص322.

[3] انظر: النويري،نهاية الأرب282/28.

[4] انظر: السبكي،طبقات الشافعيّة الكبرى 361/8.

[5] انظر:ابن خلكان،وفيات الأعيان 89/7.

[6] انظر: البكي،طبقات الشافعيّة الكبرى 361/8.

[7] انظر:الذهبي، تاريخ الإسلام 710/12، ابن شداد،النوادر السلطانيّة 321/1.

[8] انظر ترجمته في: الزركلي،الأعلام 40/5، ابن العماد، عبد الحي الحنبلي(1986م).شذرات الذهب.ط1، دمشق: دار ابن كثير 526/7.،السلوك 386/1،546،الصفدي، الوافي بالوفيات 259/22، تاريخ ابن خلدون 420/5-422، الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله.(2003م) تاريخ الإسلام ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، تح بشار عواد معروف.937/14.

[9] ازركلي،الأعلام 40/5.

[10] انظر:الذهبي، تاريخ الإسلام 937/14.

[11]ابن العماد، شذرات الذهب 526/7.

[12] انظر:الصفدي، الوافي بالوفيات 260/22، كذلك يذكر أنّ السلطان الناصر يوسف سيّره ليقوم بعقد قران السلطان على أخت سلطان سلاجقة الروم غياث االدين كيخسرو، وكذلك عقد قران السلطان غياث الدين على أخت السلطان الناصر. انظر: ابن العديم، عمر بن احمد بن هبة الله(1996م).زبدة الحلب في تاريخ حلب.ط1،بيروت،دار الكتب العلمية 495/1.

وزيره كمال الدِّين ابن العديم في طلب الخلعة، ثم بعث إلى الامراء بمصر وزيره كمال الدين بن العديم يدعوهم إلى الاتفاق إلى مدافعة التتر[1]، وتُوُفّي إلى رحمة الله بالقاهرة، ودُفِن بسفح المقطَّم[2].

وهكذا فقد كان الكمال ابن العديم عالما وزيرا سفيرا ونائبا عن السُّلطان، وكان من بيت علم وقضاء مشهور بكثرة الخطباء فيه؛ إذْ كان والده خطيبا وابنه كذلك، وقد ذكر مصطفى محمود زايد أنّ كمال الدِّين ابن العديم هو أوّل حنفيٍّ خطب في جامع الحاكم [3]، وإنّما كان ذلك ابنه عبد الرحمن مجد الدّين ابن العديم[4]وليس والده؛ لأنّ الصاحب كمال الدّين بن العديم لم يعيّن في منصب الخطابة، كما أنّ أحمد بدوي[5] قام بإيراد توقيع بالخطابة ذكره القلقشندي في كتابه صبح الأعشى[6] لقاضي القضاة كمال الدين عمر ابن قاضي القضاة جمال الدين إبراهيم ظنًّا منه أنّ المقصود هو الصّاحب الكمال ابن العديم، وليس كذلك؛ لأنّ المقريزيّ في كتابه السلوك يذكر تولّي هذا لمنصب قاضي القضاة في حوادث 805هـ[7]، ويقول عنه ابن حجر: (كمال الدين عمر بن جمال الدين ابراهيم قاضي الحنفيّة بالدِّيار المصريّة في زماننا)[8]، ومن المعروف أنّ زمان ابن حجر هو القرن التّاسع وليس السّابع؛ فهو من أحفاد أخي الصّاحب كمال الدِّين ابن العديم[9]. وذلك لا يعني أنّ الصّاحب كمال الدِّين ابن العديم لم يكن يمارس الخطابة، بل مارسها وبمهارة عالية خلال سفاراته الّتي كُلِّف بها إلى الخليفة العبّاسي والسّلاطين،

---

[1] انظر:تاريخ ابن خلدون 421/5.

[2] الذهبي،تاريخ الإسلام 937/14.

[3] انظر: زايد، مصطفى محمود(1993).النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام.أطروحة دكتوراة،الجامعة الأردنية. ص229.

[4]عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة الصاحب قاضي القضاة مجد الدين أبو المجد ابن الصاحب العلامة كمال الدين(613-707)، وكان إماماً مفتياً مدرساً عالماً بالمذهب عارفاً بالأدب، وهو أول حنفي ولي خطابة جامع الحاكم، ولي قضاء الشام. انظر:الصفدي، الوافي بالوفيات 119/18، الذهبي،تاريخ الإسلام 341/15،السيوطي،حسن المحاضرة 466/1.

[5] انظر: بدوي،أحمد (د.ت). الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. ط 2، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.ص379، وقد وقع أيضا فيما وقع فيه مصطفى زايد في قوله إنّ الصاحب ابن العديم هو أوّل حنفي يتولّى خطابة الجامع الحاكم، وليس كذلك كما بيّن الباحث وإنّما هو ابنه. انظر:ص 390 من كتاب الحياة الأدبية لبدوي.

[6] انظر: القلقشندي،صبح الأعشى في صناعة الإنشا 439/12.

[7] انظر:المقريزي، السلوك 87/6.

[8] انظر:ابن حجرالعسقلاني،أحمد بن علي (1972م). الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة.ط2،الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، تح: محمد ضان 364/5.

[9] انظر:المصدر السابق 202/4، 363/5.

وسيعرض الكاتب لخطبة ابن العديم البليغة في سفارته إلى الخليفة العبّاسيّ سنة648هـ بعد استيلاء النّاصر يوسف على دمشق [1]، وذلك في مبحث الخطب السِّياسيّة في هذا العصر.

رابعا: الخطباء من الوعّاظ

ازدهر الوعظ الدّينيّ في هذا العصر ، واحتدم منذ نزول الصّليبيّين الشّام لبثِّ الحميّة في قلوب النّاس، وليقوموا بالدّفاع عن أوطانهم وإخراج الصّليبيِّين منها[2]. ويروي المقريزيّ[3] أنَّه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدِّين أيُّوب سنة 647هـ تقدَّموا من دمياط تجاه المنصورة، فورد كتاب إلى القاهرة من العسكر أوَّله (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)[4]، وكان في الكتاب مواعظ بليغة في الحثِّ على الجهاد، فقرئ على منبر جامع القاهرة، وقد جمع النّاس لسماعه، فارتجّت القاهرة والفسطاط وضواحيها وخرج النّاس للقاء الصّليبيِّين الّذين تعرَّضوا لهزيمة نكراء[5].

وبرز في هذا العصر العديد من الوُعّاظ الّذين كان لهم الباع الطَّويل في هذا المجال، فبالإضافة إلى القزوينيّ وأبي الفرج بن الجوزيّ اللّذين ذكرناهما آنفا، يطلُّ علينا واعظان مشهوران ارتبطا بالأيُّوبيّين ارتباطا مباشرا، وكان لهما أثر كبير في بثِّ الرُّوح المعنويّة بين النّاس، وتحفيزهم على الصّمود والثبات والتّحرير، وهما الواعظان الكبيران: زين الدّين ابن نجا، وسبط ابن الجوزيّ، ولإلقاء مزيدٍ من الضّوء على الخطابة الوعظيّة في هذا العصر يقوم الباحث بعرض موجز لسيرتهما على النّحو التّالي:

1. **زين الدّين ابن نجا(508-599هـ)**[6]: زين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الفقيه الحنبلي الواعظ المفسر المعروف بابن نجية نزيل مصر سبط الشيخ أبي الفرج الشّيرازي

---

[1] انظر: النويري، نهاية الأرب 243/29.

[2] انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي 326/6.

[3] المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 1/ 407.

[4] سورة التوبة 41.

[5] انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي 326/6.

[6] انظر ترجمته في: الذهبي،سير أعلام النبلاء 396/21،ابن العماد، شذرات الذّهب 554/6، النويري،نهاية الأرب 244/28، الذهبي،تاريخ الإسلام 1175/12،وفيات الأعيان 530/2،الحنبلي، الانس الجليل 239/1، أبو شامة،الذيل على الرّوضتين 54، الروضتين 137/3.

الجيلي[1]. ولد بدمشق، وقدم بغداد مراراً، وبعثه نور الدّين محمود بن زنكي رحمه الله رسولا إلى بغداد سنة 564هـــ، وانتقل قبل وفاته إلى مصر وحدَّث بها[2]، ويرجِّح أحمد بدوي أنّ سبب انتقاله إلى مصر كان سياسيًّا، ليكون عينا لنور الدّين زنكي هناك[3]. وكان صدراً محتشماً، نبيلاً، ذا جاه ورئاسة، ودنيا واسعة، وتقدّم عند الدولة كان كبير القدر، معظّماً عند صلاح الدّين[4]، ولما فتح صلاح الدّين القدس كان معه، وتكلّم أوّل جمعة أقيمت فيه على كرسي الوعظ، وكان يومًا مشهودًا[5]، وقد أشار العماد الكاتب إلى مضمون خطبته الوعظيّة فقال: (وذكر الفتح وبكارته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانته...، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله، والخير ودلائله)[6] وقد وصف العماد الكاتب أسلوبه في الوعظ فقال: (هو ذو لهجة في الوعظ فصيحة، وبهجة للفضل صحيحة، وقبول من القلوب، وفصول في فصل الخطاب للخطوب)[7]، (وكان واعظاً فاضلاً حسن الإيراد، فصيح العبارة، لم يكن في وقته في فنِّه مثله)[8]، وهذه صفات تدلُّ على تميُّزه في جانب الخطابة الوعظيّة؛ فما كانت تعوزه الفصاحة، ولا كان يفتقر إلى العلم، ولقد كان من الوعّاظ الأكثر تميُّزا في هذا الفنّ في عصره.

2. **يوسف بن قز أوغلي الإمام سبط ابن الجوزيّ (581 – 654 هـ)**[9]: يوسف بن قزأوغلي ابن عبد الله، أبو المظفر، شمس الدِّين سبط أبي الفرج ابن الجوزي. مؤرِّخ من الكتَّاب الوعّاظ.ولد ونشأ ببغداد[10]، صاحب مرآة الزمان وغيره من المصنفات العظيمة، يروي عن جدّه الحافظ

---

[1] الذهبي،سير أعلام النبلاء 396/21.

[2] ابن خلكان،وفيات الاعيان 530/2، الذيل على الروضتين 54.

[3] أحمد بدوي، الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصّليبيّة بمصر والشّام ص392.

[4] الذهبي،تاريخ الإسلام 1175/12. سبق وأن ذكر الباحث منزلته عند صلاح الدّين الأيُّوبيّ وجهده في كشف الإنقلاب الّذي كان يدبّر ضدّه في مبحث عوامل ازدهار الخطابة.

[5] الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة 535/2،الحنبلي، الأنس الجليل 239/1.

[6] أبو شامة،الروضتين 248/3.

[7] المصدر السابق 137/3.

[8] ابن الصابوني،محمد بن محمود(د.ت).تكملة إكمال الكمال في الأنساب والأسماء والألقاب.(د.ط)،بيروت،دار الكتب العلميّة126/1.

[9] انظر ترجمته في: الزركلي،الأعلام 246/8، أبو شامة،ذيل الروضتين 72–223،74، المقريزي،السلوك 403/1،400،355، تاريخ الإسلام 21/13 الدارس في تاريخ المدارس 366/1. الكتاني،عبد الحي بن عبد الكبير(1982م). فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. ط2، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، تح: إحسان عباس 1138/2 شذرات الذهب 460/7.

[10] الزركلي،الأعلام 246/8.

أبي الفرج وغيره،، وسمع أيضاً بالموصل ودمشق وحدّث بهما وبمصر[1]، وقد كان حسن الصورة طيب الصوت حسن الوعظ.قدم دمشق في حدود الستمائة وحظي عند ملوك بني أيوب، وأخذ في الإصلاح بينهم[2] وقدّموه وأحسنوا إليه وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت، ودرس بالعزية البرانية ودرس السبط أيضا بالشبلية[3]. وقد ذكر صفة تنقله في البلاد، وأنه وعظ بالموصل وإربل ودمشق،ويصف مجلس وعظه بدمشق قائلا: (فكانت مجالسي ولله الحمد مثل غدوات الجنّات)[4]، ويقول صاحب الروضتين معقبا على ذلك: (كانت مجالس الوعظ التي للمذكور من محاسن الدُّنيا ولذّاتها، فكأن الله قد جمع له حسن الصورة وطيب الصوت، وظرافة الشمائل في الإيراد، والجوابات واللباس وسائر الحركات...)[5]، وهذا النّص يبيّن لنا ما يميّز الخطباء والوعّاظ المشهورين عن غيرهم من جمال الصّوت، والذّكاء في إيرد المواعظ، والحركات الخطابيّة المناسبة للموقف والّتي سمّاها عبد اللّطيف حمزة بالحركات المسرحيّة![6]، وهي حقيقيّة نابعة من القلب ناتجة عن التّفاعل الصّادق مع الموقف وليست تمثيليّة.

وقد كان فاضلا عالما ظريفا منقطعا منكرا على أرباب الدُّول ما هم عليه من المنكرات، وتأتي الملوك وأرباب الدّولة إليه زائرين وقاصدين[7]، ويرى أحمد بدوي أنّه (لعلّه كان يرى حبّهم له وسعيهم إليه مما يسهّل عليه أن يبلُغ أهدافه من الوعظ والإرشاد)[8]، والباحث يرى أنّ أرباب الدّولة هم الّذين تقرّبوا إليه في المقام الأوّل لما يعلمونه من تأثيره القويّ على الجماهير، ولمعرفتهم بصفاء سريرته وصدق نيّته. وقد ترسّل ابن الجوزيّ بين الخليفة في بغداد والمعظَّم عيسى في دمشق على ما يذكره أبو شامة[9]، وهذا يدلُّ على الثِّقة العميقة الّتي اكتسبها عند الخليفة والسّلاطين، فضلا عن سمات الفصاحة الّتي مكّنته من القيام بالخطابة في هذه السّفارات.

---

(1) الكتاني،فهرس الفهارس والأثبات 1139/2، وانظر:الذهبي، تاريخ الإسلام 21/13 حيث ذكر وعظه بحرّان وبخلاط.

(2) المقريزي، السلوك 400/1،النعيمي، الدارس 366/1.

(3) النعيمي،الدارس 366/1.

(4) ذيل الروضتين 73، ويذكر أبو شامة هنا الطريقة الّتي كانت تعقد بها مجالس الوعظ، وهي لا تختلف كثيرا عمّا ذكره ابن جبير.

(5) المصدر السابق 73.

(6) عبد اللطيف حمزة،أدب الحروب الصليبيّة ص205.

(7) التعيمي،الدارس 366/1.

(8) أحمد بدوي،الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصليبيّة في مصر والشّام ص397.

(9) أبو شامة،ذيل الروضتين 223.

وكان لمجالس الوعظ الّتي قام بها سبط ابن الجوزيّ دورا فاعلا في الحضّ على الجهاد ومقاومة الغزاة؛ فقد أدّت تلك المجالس إلى استنهاض همم المسلمين بأسلوب خطابيٍّ وعظيٍّ فريد، وقد نقلت لنا كتب التّاريخ مجلسا وعظيّا لسبط ابن الجوزيّ[1] في سنة 607هـ حول اعتداءات الفرنج المتكرِّرة في هذه السّنة[2] وتقاعس المسلمين عن الردّ، ما حدا بامرأة شاميّة أن تقطِّع شعرها وتصنع منه شُكُلا لخيل المجاهدين، وترسله لرجل شاميٍّ يدعى أبو قدامة ليقوم بربط فرسه[3]؛ وذلك تعبيرا عن غضبها من تقاعس المسلمين وعدم استغلالهم للخيل في الدّفاع عن أعراضهم، وقد أثارت هذه الحادثة ابن الجوزيّ ودفعته لعقد مجلس وعظ وصفه ابن العماد كما يلي:(فيها جلس سبط ابن الجوزيّ بجامع دمشق ووعظ وحثّ على الغزاة، وكان النّاس من باب السّاعات إلى مشهد زين العابدين واجتمع عنده شعور كثيرة، وذكر حكاية أبي قدامة الشّامي مع تلك المرأة التي قطّعت شعرها وبعثت به إليه وقالت: اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله، فعمل من الشّعور التي عنده مجتمعة شُكُلا لخيل المجاهدين ولما صعد المنبر أمر بإحضارها فكانت ثلثمائة شكال، فلما رآها النّاس صاحوا صيحة واحدة، وقطّعوا مثلها وكان والي دمشق حاضرا والأعيان، فلما نزل عن المنبر قام والي دمشق ومشى مع السّبط، وركب وركب النّاس وخرجوا إلى باب المصلّى وكانوا خلقا لا يحصون كثرة، وساروا إلى نابلس لقتال الفرنج فأسروا وهزموا وهدموا وقتلوا ورجعوا سالمين غانمين)[4].

والمصادر لم تذكر لنا الخطبة الّتي ألقاها السِّبط في هذه الواقعة؛ لتسليطها الضّوء على الحركة الذكيّة المبدعة الّتي قام بها السّبط والّتي جعلت النّاس يتخيّلون خيولهم مربوطة متخاذلة عن خوض الجهاد، ما ساهم في إلهاب مشاعر الحماسة في نفوسهم وقيامهم بعمليّة إغارة نوعيّة حقّقوا من خلالها النّصر وردّ الكرامة، (والظاهر أن سبط بن الجوزيّ كان يعتمد على إشاراته المؤثِّرة، فضلا عن طلاقة لسانه وحلاوة بيانه...، قالوا كان يطلع أحيانا إلى المنبر في بعض الأيّام ويحدِّق النّاس إليه، وينتحب، ويبكي، ويبكي النّاس معه)[5]، وفي هذا بيان للمكانة الّتي

---

(1) المصدر السابق ص107،الذهبي، تاريخ الإسلام 21/13،ابن العماد، شذرات الذّهب 35/7.

(2) انظر: أبو شامة،ذيل الرّوضتين ص118،103.

(3) المصدر السابق،ص107.

(4) ابن العماد،شذرات الذّهب 35/7 والحادثة ذكرت في تاريخ الإسلام والذيل على الروضتين برواية ابن الجوزيّ، وفيها تفصيلات تتعلّق بلقائهم بالمعظّم عيسى في نابلس بعد أن هزموا الصّليبيِّن. انظر: أبو شامة،الذيل ص107، الذهبي،تاريخ الإسلام 35/7.

(5) أحمد بدوي،الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصّليبيّة بمصر والشّام ص396

حظي بها في قلوب النّاس نظرا لصدقه وإخلاصه والهيبة الّتي يضفيها بحضوره، ولنا أن نتصوّر الحال عند الوعظ والخطابة.

ومن أشهر مجالس الوعظ الأخرى المجلس الّذي عُقِدَ عقب تسليم الملك الكامل القدس والعديد من المدن الأخرى سنة 626هـ، وذلك اتّقاءً لشرّهم ولسيتقويَ بهم على عمِّه الصالح إسماعيل والنّاصر داوود، (وبعث السُّلطان فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه للفرنج، فاشتدّ البكاء، وعظم الصُّراخ والعويل، وحضر الأئمّة والمؤذِّنون من القدس إلى مخيّم الكامل، وأذّنوا على بابه في غير وقت الأذان...، فقال لهم امضوا حيث شئتم)[1]، وذلك يدلُّ على فداحة المصيبة الّتي مُنِيَ بها المسلمون، والحسْرة الّتي غمرت قلوبهم مقابل برود تامٍّ لدى الكامل يبيِّن الدّرجة الّتي وصل إليها من تفضيل المصالح الشَّخصيّة على أيِّ قيمة مقدَّسة، ممّا دفع الملك النَّاصر للتشنيع عليه وحثِّ سبط بن الجوزيّ على عقد المجلس المذكور حيث ذكر فيه (فضائل بيت المقدس، وحزن النّاس على استيلاء الفرنج عليه، وبشّع القول في هذا الفعل...، وأنشد الحافظ شمس الدِّين قصيدة أبياتها ثلاثمئة بيت، منها:

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم)[2]. وسيورد الباحث هذه الخطبة في المبحث القادم كنموذج من خطب الوعظ الديني.

وما يدعو للأسف أنّ خطب الوعظ الدّينيّ الّتي ألقاها سبط ابن الجوزي وغيره من الوُعّاظ لم يصل منها إلا النّزْر اليسير، والّتي سيقوم الباحث بعرض ما توصّل إليه منها في المبحث القادم. وفي ختام هذا المبحث أودُّ أن أنوِّه إلى أسماء بعض الخطباء والوعّاظ الآخرين، والّذين يطول المقام عن العرض لتراجمهم، وهم على النّحو الآتي:

أبو طاهر الخطيب هاشم بن أحمد بن عبد الواحد خطيب حلب، وله كتاب خطب [1] وابنه أبو البركات بن هاشم الّذي نقل إليه صلاح الدّين الخطابة من بني العديم في سنة 579هـ بسفارة

---

(1) انظر: أبو شامة،ذيل الرّوضتين 233-234، المقريزي،السلوك 353/1-354، الحنبلي،شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص268.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك 355/1، وانظر: ابن واصل،مفرّج الكروب 4 /245-246.

القاضي الفاضل[2]، وشمس الدّين محمّد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي(572هـ)، وهو أوّل من خطب بمصر لبني العبّاس في عهد صلاح الدّين، ثمّ نفّذه رسولا إلى الدّيوان[3]، والخطيب العراقي ابراهيم بن منصور (596هـ) إمام جامع عمرو بن العاص وخطيبه وشيخ الشافعيّة بمصر[4] وولي الخطابة بعده ولده، ولولده ديوان خطب مشهور[5]، وخطيب مصر الشيخ الفقيه أبو الطاهر محمد بن الحسين(633هـ) المشهور بالمحلّى[6]، وخطيب مردا الشيخ الخطيب أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ابن أحمد بن أبي الفتح المقدسي(656هـ)[7]، وعلي بن محمد بن علي أبو الحسن المعافري المالقي(605هـ) خطيب القدس. نال عند صلاح الدّين الأيُّوبيّ الحرمة الوافرة، وخصّه عقيب الفتح بخطابة الأقصى، وروى عنه الأمير شرف الدين عيسى الهكاري[8]، وغيرهم الكثير الّذين حفل بهم هذا العصر.

أمّا بالنِّسبة للوُعَّاظ فيطالعنا الإمام الكبير الحافظ عبد الغني المقدسي(643هـ)[9]، فقد التقى بالشّيخ عبد القادر الجيلانيّ وأخذ عنه، وله العديد من المصنّفات. كان رحمه الله يقرأ الحديث يوم الجمعة بجامع دمشق وليلة الخميس، ويجتمع خلق، وكان يقرأ ويبكي ويبكي النّاس كثيرا، وكان إذا فرغ دعا دعاء كثيرا، وكان الحافظ لا يرى منكراً إلا غيّره بيده أو لسانه [10].

ولقد انبرى طائفة من كبار الصُّوفيّة لمهمّة الوعظ والإصلاح الدِّينيّ والحثّ على الجهاد من أبرزهم: أبو الحسن الشاذلى (656هـ) علي بن عبد الله الشّاذلي المغربي رأس الطائفة الشاذليّة[11]، شارك في معركة المنصورة وكان يثير روح الجهاد في أتباعه والنّاس، وقد أشاد

---

(1) الصفدي،الوافي بالوفيات 127/27.

(2) أبو شامة،الروضتين 113/3.

(3) انظر: الذهبي،تاريخ الإسلام 516/12.

(4) انظر: الزركلي،الأعلام 74/1،الذهبي، سير أعلام النبلاء 305/21.

(5) السبكي،طبقات الشافعيّة الكبرى 37/7. وينقل السُبكي عن ابن القليوبي أنّه قال: (يقال إن ولده كان في جنازة والده ينشىء الخطبة التي يخطب بها وكان مفتتحها الحمد لله الذي شتت بالموت شمل الأحبا، وأورث البنين مناصب الآباء قال وقرأ فيها (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه...).

(6) النويري، نهاية الأرب 41/29.

(7) الذهبي، سير أعلام النبلاء 325/23.

(8) الذهبي،تاريخ الإسلام 117/13، الزركلي،الأعلام 330/4.

(9) الذهبي،سير أعلام النبلاء 443/21.

(10) المصدر السابق 453/21-454.

(11) الزركلي،الأعلام 305/4.

العزُّ بن عبد السّلام بوعظه قائلا: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله تعالى[1]. ومنهم الدّسوقي (676 هـ) إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد من كبار المتصوِّفين من أهل دسوق (بغربية مصر). أورد الشّعراني من كلامه مجموعة كبيرة اختارها من كتاب له اسمه (الجواهر)[2]. والشيخ أبو العباس المرسي أحمد بن عمر الأنصاري(686هـ) قطب زمانه ورأس أصحاب الشّيخ أبي الحسن الشّاذلي، وكان من الشهود بالثغر [3]، ومنهم الجعبري أبو إسحاق إبراهيم بن معضاد الزاهد الواعظ المذكّر(687هـ)، إذ كان لكلامه وقع في القلوب لصدقه وإخلاصه وصدعه بالحق[4]، ومنهم ابن العربيّ الملقّب بالشيخ الأكبر[5]، والذي وصل الباحث إلى خطبتين من وعظه يعرض لمقتطفات منهما وسيذكرهما بالتمام في الملحق لإلقاء الضوء على أدب الوعظ الصُّوفيّ.

وكما ذكرنا سابقا، فإنّ هذا العصر حفل بالخطباء والوعَّاظ، والّذين أشرنا إلى أبرزهم في هذا المجال، كما أنّه شهد حركة خطابيّة وعظيّة نشطة تناسبت والأحداث الجسام الّتي ألقت بظلالها عليه.وكانت هناك الكثير من دواوين الخطب الّتي ألّفت في هذا العصر ولم تصلنا(ولو أنّ هذه الدّواوين قد بقيت لاستطعنا أن نقف على الكثير من اتّجاهات الخطابة في ذلك العصر،ووعلى الكثير من ألوان الحياة الاجتماعيّة،والاقتصاديّة،والخلقيّة،الّتي كانت سائدة يومئذ،ممّا كان الخطباء يعالجون إصلاحه على المنابر،غير أنّه لم يبق لنا من هذه الآثار إلّا خطب تُعدّ على الأصابع)([6]) وسيقوم الباحث في الصّفحات القادمة بعرض لأهمّ الخطب الّتي استطاع الوصول إليها في هذا العصر حسب اللّون الّذي تنتمي إليه، وهي على قلّتها، إلّا أنها تشكِّل نافذة نستطيع الإطلال منها على السِّمات الفنيِّة والأدبيّة للخطابة في هذا العصر.

---

[1] اليافعي، عفيف الدين عبد الله(1997هـ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان.ط1، بيروت: دار الكتب العلمية 109/4

[2] الزركلي،الأعلام 59/1.

[3] انظر: السيوطي،حسن المحاضرة 523/1،الصفدي، الوافي بالوفيّات 173/7.

[4]المصدر السابق 511/1(باب ذكر من كان بمصر من الصلحاء والزهاد)

[5]محمد بن علي بن محمد ابن العربي المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر(560–638هـ): فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية (بالأندلس) وقام برحلة، فزار الشام وبلاد الروم.وأنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه.واستقر في دمشق، فتوفي فيها. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة. انظر:الزركلي،الاعلام 281/6

([6]) أحمد بدوي،الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصّليبيّة ص382.

المبحث الثالث: ألوان الخطب ونماذج منها في هذا العصر

تعدُّ الخطب الّتي وصل إليها الباحث قليلة نوعا ما مقارنة بعدد الخطب الّتي ألقيت في هذا العصر، والباحث يعزو قلّة عدد الخطب الّتي استطاع العثور عليها إلى سببين أساسيّين: أحدهما يتعلّق بطبيعة الخطابة كونها فنّ نثريٌّ شفاهيّ غير مكتوب في الغالب، وهذا ما ذهب إليه صاحب كتاب "الريحان والريعان"[(1)] حسب ما نقله عنه القلقشنديّ في صبح الأعشى حيث قال: (واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنّثر غاية الاعتناء حتى قال صاحب الريحان والريعان: إنَّ ما تكلّمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور، ومزدوج الكلام أكثر مما تكلّمت به من الموزون، إلا أنّه لم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره؛ لأنّ الخطيب إنّما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك، أو الحالات، أو الإصلاح بين العشائر، أو خطبة النّكاح، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشّعر فإنّه لا يضيع منه بيت واحد.)[(2)].

والّذي ذكره صاحب الرّيحان والرّيعان يشير إلى الطّبيعة البشريّة الّتي تميل إلى حفظ الشّعر؛ لكونه يقع ضمن إيقاع موسيقيٍّ تطرب له الأسماع ممّا يجعل حفظه أسهل من النّثر، كما أنَّ تركيز المتلقِّين في الخطابة يكون منصبًّا على الهدف الّذي يرومه الخطيب بالدّرجة الأولى، وليس على شكل ومحتوى الخطاب، الأمر الّذي أدّى إلى نُدرة في عدد الخطب الّتي حُفظت مقارنة بالكمّ الهائل من الشِّعر الّذي وصلنا، كما أنّ الخطيب في العادة لا يقوم بتدوين خطبه الّتي ألقاها ارتجالا حتّى بعد أن يفرغ منها؛ لأنّها قيلت في مقام خاصٍّ وفي مناسبة خاصّة فرضتها الظّروف الّتي تعرّض لها الخطيب، بينما دوِّنت الكثير من الأشعار وحُفظت، سواء من قبل الشُّعراء أنفسهم أو من قبل تلاميذهم ومحبّيهم والمؤرّخين لعصرهم.

والقلقشنديّ يذهب إلى ما ذهب إليه صاحب الرّيحان والريعان، إلّا أنّه يشير إلى جانب آخر أدّى إلى قلّة عدد الخطب المحفوظة وهو انحسار فنّ الخطابة في طائفة النُّخبة من المجتمع؛ لعِظَمِ شَأْنِها ورِفعة أَمْرِها، فكان لا يتعاطاها إلّا من شُهِد له بتمام الفصاحة ورسوخ

[(1)] ابن خيرة محمد بن إبراهيم بن خيرة، أبو القاسم الاشبيلي(000 – 564 هـ): أديب أندلسي، من كتاب الولاة..سكن إشبيلية، وتوفي بمراكش.له " ريحان الالباب وريعان الشباب في مراتب الآداب – خ ". انظر: الزركلي،الأعلام 296/5.

[(2)]القلقشندي، صبح الأعشى 254/1.

القدم في البلاغة؛الأمر الّذي أدّى إلى صعوبة حفظ ألفاظها وتراكيبها، وفي ذلك يقول: (وليس ما أشار إليه لرفض النّثر عندهم وقلّة اعتنائهم به، بل لسهولة حفظ الشّعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم وخاصّتهم وعامهم، بخلاف الخطابة فإنه لم يتعاطها منهم إلا القليل النّادر من الفصحاء المصاقع؛ فلذلك عزّ حفظها وقلّ عنهم نقلها...)[1].

أمّا السّبب الثّاني الّذي أدّى إلى ندُرة الْخُطَب الّتي وَصَلَتْنا، فيتعلَّق بطبيعة العصر الّذي نحن بصدده، والّذي تعرّض فيه كلُّ ما يدلُّ على الحياة والازدهار للإبادة والتَّدمير على يد التّتار والصّليبيِّين، وفي ذلك يقول صاحب النجوم الزاهرة: (وخربت بغداد الخراب العظيم، وأحرقت كتب العلم التى كانت بها من سائر العلوم والفنون التى ما كانت فى الدنيا)[2]، ولنا أن نتصوّر عدد الكتب وكميّة العلوم التي افتقدناها بسبب هذا الغزو الهمجي، والّذي لولاه لحظينا بتصوُّر أوضح وأشمل عن تاريخنا وكنوز علومنا.

وسيبدأ الباحث بعرض موجز لألوان الخطابة الّتي ظهرت في هذا العصر، مع نماذج للخطب الّتي استطاع الوصول إليها، وهي على الترتيب: الخطابة الدينيّة والوعظيّة، والخطابة الحربيّة، والخطابة السياسيّة، والخطابة الاجتماعيّة، وخطابة المناظرات والمدح.

أولا: الخطابة الدينيّة والوعظيّة

ساد الخطاب الدينيّ معظم ألوان الخطابة التي مورست في ذلك العصر، والّذي يقرأ تاريخ ذلك العصر بتمعُّن لا يجد غرابة في ذلك؛ فقد كان العصر الأيُّوبيّ عصر بعث وإحياء دينيّ سرى في أوصال الأمّة، ليكون سدًّا منيعا أمام أطماع الغزاة الّذين سيّروا حملاتهم الهوجاء تحت شعارات دينيّة مغرضة كما عاينّا ذلك في المرحلة التاريخية من هذا البحث.

والّذي يهمُّنا هنا تسليط الضوء على الخطب الدّينية الّتي كانت تلقى أيّام الجمع والعيدين وفي مجالس الوعظ؛ لأنّها (أسهمت وبخاصّة منها الخطب الجمعيّة بدور كبير في الدعوة إلى

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى 254/1.

[2] ابن تغري بر دي، النجوم الزاهرة 51/7.

الجهاد ضدّ الغزاة، وحثٍّ النّاس على التّضحية)[1]، وقد كان (يقصد بها إثارة الشعور الدينيّ إبّان الحروب الصّليبيّة)[2]، (وقد ركّز الخطباء في خطبهم على توعية النّاس، وبثٍّ روح الحميّة في نفوسهم...، والدّفاع عن أوطانهم، وحماية ممتلكاتهم ومقدّساتهم)[3]. وهذه الخطب الدِّينيّة كان لها الأثر الكبير في انتصارت المسلمين في يوم الجمعة حيث قال ابن شدّاد: (فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان؛ حيث يسر لنا الله الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ولم يتفق مثلها في تاريخ)[4]. وما قاله ابن شدّاد يشير إلى الأثر العظيم الّذي كانت تحدثه الخطابة في النُّفوس، فضلا عن البركة المتوخّاة من دعاء الخطباء، مما ساهم في تحقّق معظم الفتوحات يوم الجمعة.

والخطب الدِّينيّة الّتي استطاع الباحث الوصول إليها لا تمثِّل إلا النّزر اليسير من الخطب الّتي ألقيت في ذلك العصر للأسباب الّتي ذكرناها آنفا، وهي على النّحو التّالي:

1. **خطبة محيي الدِّين بن زكي المشهورة بعد فتح القدس**، وهي الخطبة الدّينيّة الوحيدة الّتي نقلتها لنا المصادر كاملة،والّتي تعكس نموذجا حيًّا للخطابة الدّينيّة في ذلك العصر، وسيقوم الباحث بعرض هذه الخطبة مع تحليلها الأدبيّ في الفصل القادم من هذا البحث.
2. **خطبة خطيب قونيا**[5]: وهي خطبة يوردها بدر الدِّين العينيّ في كتابه "عقد الجمان" في حوادث سنة 655هـ؛ حيث يذكر أنّ "بيجو" زعيم التّتار قد حاصر مدينة "قونيا"[6]،فما كان من السُّلطان إلا أن ولّى هاربا تاركا المدينة تواجه مصيرها القاتم، فانبرى خطيب المدينة لدور الدِّفاع عن المدينة بالطريقة الّتي تضمن عدم سفك دماء المسلمين، وتحافظ على المدينة من الدّمار، (فلما كان يوم الجمعة أخذ الخطيب ما يملكه من ماله وحلي نسائه، وأحضره معه إلى الجامع وارتقى

---

(1) البيسومي، أحمد بن حسين(2006م).الحياة العلميّة في العصرين الأتابكي والأيّوبيّ.(أطروحة دكتوراة)،جامعة دمشق، دمشق، سوريا. ص363.

(2) عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصّليبيّة ص203.

(3) السالم، عبد الله(1993م).النثر الفني في مصر وبلاد الشام في القرن السادس الهجري.(رسالة ماجستير)، جامعة اليرموك،إربد، الأردن ص98.

(4) ابن شدّاد، النّادر السُّلطانيّة ص148.

(5) انظر: العيني، عقد الجمان(عصر سلاطسن المماليك) 155/1،ويذكر قصّة الخطبة، وحادثة اجتماع الخطيب بزوجة بيجو وإسلامها على يده بعدما رأت في كلامه الصدق والحجّة المقنعة.

(6) من أعظم مدن الإسلام بالروم وبها وبأقصرى سكنى ملوكها. انظر: الحموي،معجم البلدان 415/4. وهي مدينة معروفة في وسط تركيا.

المنبر فنادى في الناس قائلاً: يا معشر المسلمين نحن قد ابتلينا بهذا العدو الذى دهمنا، ومالنا فيه من يعصمنا، فابذلوا أموالكم واشتروا نفوسكم بنفائسكم، واسمحوا بما عندكم لنجمع من بيننا شيئاً نفدي به نفوسنا وحريمنا وأولادنا، ثم بكى، وبكى الناس، وسمح كل أحد بما أمكنه، فجهز الخطيب المذكور الإقامات، وخرج إلى مخيم بيجُو...)، فقد استعمل الخطيب أسلوب جمع الفدية في سبيل إنقاذ المدينة؛ وذلك لانعدام القدرة على المقاومة بسبب فرار سلطان المدينة، ويشاء الله أن يكرم هذا الخطيب بإسلام زوجة بيجو بعد حوار رائع معها[1]، فما كان منها إلا أن طلبت من زوجها عدم مهاجمة المدينة وإعطاءها الأمان، وكان لها ذلك.

ونلاحظ أنّ الخطيب لم يتّبع البناء الفنّي المعهود لخطبة الجمعة؛ وذلك لفداحة الخطر الذي كان يحيق بالمدينة، كما أنّه لم ينمّق خطبته وألقاها مسترسلا للسبب ذاته.

3. **خطبة سبط ابن الجوزيّ في مجلس الوعظ الّذي أقامه النّاصر داوود للتّشنيع على الكامل،** والّذي أشرنا إليه في ترجمة ابن الجوزيّ، وهذا ما استطاع الباحث الوصول إليه من بعض ما قيل في ذلك المجلس، حيث يروي صاحب شفاء القلوب الحادثة على النّحو التالي: (وكان من كلامه: وانقطعت من البيت المقدّس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين! كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لوصارت عيونهم عيونا لما وفّت، ولو تقطّعت قلوبهم أسفا لما اشتفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تتقطَّع القلوب من الحسرات)[2].

وما رواه صاحب "شفاء القلوب" هو جزء من الخطبة الوعظيّة الّتي ألقاها ابن الجوزيّ حاثًّا المؤمنين على الحفاظ على المقدّسات، وداعيا لهم للعمل على إعادتها لحظيرة الدّولة الإسلاميّة. ونلاحظ أنّ وعظه ممتلئ بالصّور المحزنة المتخيّلة الّتي أراد منها زيادة الشّعور بالحسرة والألم على المصيبة الّتي حلّت بالمسلمين، كما أنّه استعمل أساليب الشّرط والنّداء وكم الخبريّة لإضفاء مزيد من التّفجّع والنّدم على المشهد، وهو يراعي في صياغته الصّنعة اللّفظيّة الّتي تتّسق مع المعنى ولا تطغى عليه؛ فالسَّجَعات الّتي استخدمها لطيفة منسابة بشكل رقيق مع المعنى، والجناس في كلمة عيون أدّى معنى منسجما كلّ الانسجام مع السّياق.

---

[1] انظر القصة بأكملها في: العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك) 155/1.

[2] أحمد الحنبلي، شفاء القلوب 268

هذا وبعد أن يسوق أحمد بدوي خطبة ابن الجوزي في الحضِّ على قراءة كتاب القواعد للعز بن عبد السّلام[1] يقول: (وأغلب ظنّي أنّ مجالس وعظه كانت على هذا النَّسق: مرسلة لا سجع فيها، ولا تكلُّف، يزينها السُّهولة والتدفّق)[2]، وهذا الّذي يميل إليه الباحث؛ لأنّ خطب الوعظ الدِّينيّ كما أسلفنا لا تروم التنمّق اللفظي بقدر ما تهدف إلى الإصلاح المجتمعي الّذي يناسبه الاسترسال في الخطاب.

ولم تورد لنا المصادر الخطبة الّتي ألقاها ابن الجوزي حينما وصلته الشُّكُل لخيل المجاهدين، والّذي صنعته امرأة من دمشق من شعور نساء دمشق [3] تعبيرا عن صدمتها من التقاعس عن الجهاد. ومن الجدير بالذكر أنّ بعض المواقع الإلكترونيّة تورد خطبة تنسبها إلى سبط ابن الجوزيّ أحيانا، وإلى ابن قيِّم الجوزيّة أحيانا أخرى[4]، والحقيقة أنّ هذه الخطبة هي من تأليف الشيخ علي الطنطاوي حيث تخيّل الخطبة الّتي أحدثت انقلابا في موقف الأمراء والشعب، مما دفعهم إلى امتطاء صهوات جيادهم والقيام بغزو الأعداء في عقر دارهم؛ ثأرا لما اقترفته أيديهم من جرائم بحق البلاد والعباد[5].

4. **خطب الوعظ الصّوفيّ**: وقد كانت تمارس من قبل شيوخ الطّرق الصّوفيّة في مجالسهم الخاصّة، فقد ذكرنا في باب الوعّاظ الشيخ أبو الحسن الشّاذليّ، وأبو العبّاس المرسيّ وإبراهيم الدسوقيّ ومحيي الدّين ابن عربيّ، وكلُّهم يعدُّون من كبار الصُّوفيّة الّذين مارسوا الوعّظ الدّينيّ في مجالسهم الخاصّة لتربية مريديهم بطريقة أدبيّة روحانيّة رائقة.

وقد أورد لنا ابن فضل الله العمريّ كتاب "مسالك الأبصار" خطبتين وعظيّتين لمحيي الدّين ابن العربيّ تعكسان صورة لا بأس بها عن أدب الوعظ الصّوفي في هذا العصر، وهذه مقتطفات منهما: (...نفسي أخاطب، وإياي أعاتب، أيها المرسل عنان شهواته، الجائل في ميدان لذاته، السابق في حلبة هفواته، إلى كم ذا الاغترار بالعمر القصير؟، كأنك ما علمت أن إلى الله

---

(1) انظر :السبكي، طبقات الشّافعيّة الكبرى 239/8، وسيذكر الباحث هذه الخطبة في خطب المناظرات والثناء.

(2) أحمد بدوي،الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصّليبيّة في مصر والشّام ص397.

(3) انظر تفاصيل هذه الحادثة في مبحث الوعاظ من الخطباء من هذه الرسالة.

(4) (on-line)available http://www.dd-sunnah.net/forum/showthread.php?t=153040

شبكة الدّفاع عن السنّة

(5) (on-line)available: http://www.alukah.net/fatawa_counsels/0/14458/#ixzz3UMA2kCZK

شبكة الألوكة: الفتاوى والاستشارات وانظر: الطنطاوي، علي(1986م).ذكريات. ط1، جدّة: دار المنارة، ص 314. والشيخ علي الطنطاوي يذكر أنّه من ألّف هذه الخطبة في كتابه" قصص من التّاريخ" متخيلا أنّ ابن الجوزيّ خطب بها؛ حتّى إنّ إمام الحرم قد وهم ونقل فقرات منها ظنًّا منه بأنّها الخطبة الحقيقيّة الّتي ألقاها ابن الجوزيّ.

المصير!، فبادر إلى التوبة لعلّك تقال...، فقد قال قيّوم السماوات والأرض:" وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ" فيا أيها الناس! اعلموا أن كل من ظهرت منه حوبة؛ فإن لله عليه توبة...)[1]، وهي كلمات مؤثّرة تنساب برقّة إلى القلوب، ويغلب عليها العاطفة الدّينيّة الغامرة، والخطاب الهادئ المرصّع بالآيات القرآنيّة والذي يلقي بسمته على النُّفوس، مع التّفنّن في استخدام الأساليب البديعية والبيانيّة.

وفي خطبة أخرى يقول: (فلا يقع بصر إلا عليه، ولا يخرج خارج إلا منه، ولا ينتهي قاصد إلا إليه، فيا أولي الألباب!، أين الغيبة والحجاب: ومن عجب أني أحنّ إليهم... وأسأل شوقا عنهم، وهم معي...)[2]. ولعلّ فيما ذكره الباحث عكس صورة مقتضبة لأدب الخطابة الوعظيّة الصُّوفيّة؛ إذ كان هؤلاء العلماء يلقون خطبهم الوعظيّة على مريديهم؛ لذلك لم يكتب لها الشّهرة الجمعيّة كما حدث لسائر أنواع الخطابة الّتي كانت تتمّ على الملأ في المساجد أو المدارس أو الميادين العامّة.

وقد أشار الباحث إلى مجلس الوعظ الّذي عقده ابن نجا بعد فتح القدس[3]، وأشاد به العماد الكاتب، ولم يصلنا- للأسف- ما قيل في ذلك المجلس، كما أنّ الباحث لم يحصل على أيّة خطبة دينيّة من خطب العز بن عبد السّلام على الرّغم من الشهرة الواسعة الّتي حظي بها في هذا المجال، وقد سبق وأن ذكرنا بأنّه أزال العديد من البدع الّتي كان يفعلها الخطباء في هذا العصر، ودعا إلى أن تكون خطبة الجمعة مطابقة لما كانت عليه في زمن الرسول صلى الله عليه وسلّم.هذا ويورد اليونيني وصفا لخطابة ابنه إبراهيم بن عبد السّلام المنعوت بالشّمس والّذي أخذ هذا الفنّ عن والده حيث قال: (فسمعته خطب خطبة حسنة بليغة وجلت لها القلوب، وذرفت العيون، وأدى أداء حسناً بفصاحة، وطلاقة لسان، وضبط الإعراب، ووقوف على مقاطع الكلام، وإتيان الفرائض، وتوفية السنن، ثم صلى صلاة حسنة، أكمل فروضها، وأتى بسننها، وأحسن أداء القراءة فيها، وأوجز في خطبته، وأطال الصلاة غير ممل في صلاته، وذلك ليس ببدع منه، فإنه نشأ في حجر العلم)[4]، فهذا النّص يعكس الكيفيّة الّتي كانت تتمّ بها خطبة الجمعة وصلاة الجمعة عند ابن الشيخ العزّ ابن عبد السّلام الّذي تلقّى تعليمه عند والده، ممّا يجعل هذا النّصّ ينطبق تماما على العصر الأيُّوبيّ أيضا.

---

[1] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار 336/8.

[2] المصدر السابق |8/.336 وسيذكر الباحث هاتين الخطبتين بتمامهما في الملحق.

[3] انظر :الخطباء من الوعّاظ في هذا البحث.

[4] اليونيني، ذيل مرآة الزّمان 317/4.

والخطابة الدّينيّة في هذا العصر تميّزت باتباعها الأسلوب التقليديّ للخطبة؛ فقد كانت تبدأ بالمقدّمة الّتي تحتوي على الحمد والثناء ومن ثم الشهادة والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلّم، ثمّ العرض الّذي يحتوي على القضيّة الأساسيّة، ومن ثمّ الجلوس بين الخطبتين، والختام في الخطبة الثانية بالدُّعاء للخليفة أوّلا، وللملك أوالسُّلطان ثانيا، والختام بالدُّعاء لعامّة المسلمين[1].

ثانيا: الخطابة الحربيّة

ازدهرت الخطابة الحربيّة، ومورست على نطاق واسع من قبل العلماء والقادة؛ وذلك لتوافر دواعيها[2]، (وهي تمتاز بالإيجاز والبعد عن التكلُّف والسّجع وغير ذلك من الزخارف الأسلوبيّة المعروفة في هذا النّوع من الخطب الحماسيّة)[3]؛ وذلك لطبيعة الظروف الّتي كانت تلقى فيها، والتي كانت تروم الحثّ على الجهاد والمقاومة، وليس استعراض المهارات البيانيّة واللغويّة،وسيعرض الباحث لثلاث نماذج من الخطب الّتي استطاع الوقوف عليها:

1. **خطبة صلاح الدّين الأيُّوبيّ في المصافّ الأعظم على عكّا سنة (585هـ)**[4]: والّتي يسمّيها أبو شامة بالوقعة العظمى الّتي بدأت بالسوأى وانتهت بالحسنى؛ فقد انهزم المسلمون في بادئ الأمر ثمّ أعادوا الكرّة على الصّليبيِّين بقيادة صلاح الدّين الأيُّوبيّ، وأوقعوا فيهم القتْل والأسر، ثمّ انسحب السُّلطان إلى موقع يقال له "الخروبة" ليبتعد بجيشه عن رائحة القتلى ويقوم باستشارته وتحفيزهم على القتال حيث قال الخطبة التّالية:(بِسم الله، وَالْحَمْد الله، وَالصَّلَاة وَالسَّلَام على رَسُول الله. اعلموا أَن هَذَا عَدو الله وعدونا، قد نزل فِي بلدنا وَقد وطىء أَرض الْإِسْلَام، وَقد لاحت لوائح النُّصْرَة عَلَيْهِ إِن شَاءَ الله تَعَالَى، وَقد بَقِي فِي هَذَا الْجمع الْيَسِير وَلَا بُد من الاهتمام بقلعه، وَالله قد أوجب علينا ذَلِك، وَأَنْتُم تعلمُونَ أَن هَذِه عساكرنا لَيْسَ وَرَاءَنَا نجدة ننتظرها سوى الْملك الْعَادِل وَهُوَ وَاصل، وَهَذَا الْعَدو إِن بَقِي وَطَالَ أمره إِلَى أَن ينفتح الْبَحْر جَاءَهُ مدد عَظِيم، والرأي كل الرَّأْي عِنْدِي مناجزته، فليخبرنا كل مِنْكُم مَا عِنْده فِي ذَلِك)[5].

---

[1] انظر: الباشا، الأدب في بلاد الشام ص723، ابن تيميّة، تقي الدين أبو العبّاس(1995هـ).مجموع الفتاوى.(د.ط)،المدينة المنورة:مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف 287/18.

[2] انظر: مبحث (عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأيوبي ودواعيها) في هذا البحث.

[3] الباشا،الأدب في بلاد الشام ص731.

[4] انظر: ابن شدّاد، النوادر السلطانيّة ص177، أبو شامة، الروضتين 56/4، ابن العماد الأصفهانيّ، الفتح القسي ص175.

[5] انظر: أبو شامة، الروضتين 56/4 وهي بنفس ألفاظ ابن شدّاد، لكن ابن العماد صاغها بصياغة أدبية سأوردها في الملحقات.

جاءت هذه الخطبة مرتجلة في موقف حربيّ عصيب يتطلّب كلمات للقائد ترسّخ الثبات في النُّفوس والقلوب بعد أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، والخطبة جاءت على شكل خطاب عسكريّ زاخر بالعاطفة الدينيّة الّتي تلقي بالمسؤوليّة الكاملة في حماية أرض الإسلام على عاتقهم،وهي خطبة قصيرة حافظت على بنائها الفنِّي المتناغم مع الموقف، مع ظهور للألفاظ الجزلة واستخدام لبعض الاستعارات، إلّا أنّها لم تحظ بحظّ كبير من المحسّنات اللّفظيّة، ما يجعلها متوافقة في سماتها الفنّيّة والأدبيّة مع الخطب الحربيّة في ذلك العصر.

2. **خطبة ابن شدّاد لحثِّ الجند على الجهاد سنة (588هـ)[(1)]**: فقد انتصر الصّليبيُّون على المسلمين في إحدى الغارات الّتي غافلوا بها المسلمين بأرض الحسا[(2)]، ما أدّى إلى طمعهم في استرجاع القدس، ما حدا بالسلطان النّاصر صلاح الدّين إلى الإشارة على ابن شدّاد بالقيام بخطبة حربيّة دينيّة يحثُّ فيه المسلمين على الجهاد، وهذا نصُّها برواية ابن شدّاد بعد أن ذكر اجتماع الأمراء[(3)]: (ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت ما يسّره الله من ذلك. وكان ممّا قلته أنّ النّبيّ _صلّى الله عليه وسلّم_ لما اشتد به الأمر بايعه الصّحابة_ رضي الله عنهم_ على الموت في لقاء العدو، ونحن أولى من تأسّى به صلّى الله عليه وسلّم، والمصلحة الاجتماع عند الصّخرة والتّحالف على الموت، ولعلّ ببركة هذه النِّيَّة يندفع هذا العدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه). وابن شدّاد بيّن أنّه ذكر جزءا من خطبته،ولم يذكر كل ما أورده في الخطبة، ولا بدّ أنّها كانت تحتوي على المقدّمة المزيّنة بالحمد والشهادة والصّلاة على النّبيّ على عادة الخطباء في ذلك العصر، ويبدو أنّها كانت قصيرة على غرار مقدِّمات الخطب الحربيّة الأخرى الّتي ألقاها صلاح الدِّين الأيُّوبيّ في ذلك العصر، وهي خطبة مباشرة(أريد بها تبليغ أفكاره إلى سامعيه، من غير تكلُّف زخرفة ولا زينة)[(4)]،كما أنّ العاطفة الدّينيّة هيمنت على هذه الخطبة، وقد بدا استلهام الموروث الدّينيّ واضحا حيث استحضرت صورة النبيّ _صلّى اللّه عليه وسلّم_ والصحابة حوله يبايعونه على الموت، لدفع المتلقّين إلى التّاسِّي بأصحاب النّبيّ

[(1)] انظر: ابن شدّاد، النوادر السلطانيّة ص 321، أبو شامة،الروضتين 179/4، الذهبي، تاريخ الإسلام 711/12، ابن كثير، البداية والنهاية 641/16.

[(2)] انظر تفاصيل هذه الحادثة في المراجع السابقة: النوادر السلطانية ص318،الروضتين 178-179، تاريخ الإسلام110/12.

[(3)] ابن شداد، النوادر السلطانيّة 321، وهو يذكر من الأمراء: أبو الهيجاء السمين، وابن المشطوب، والأسديّة.

[(4)] أحمد بدوي، الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصّليبيّة في مصر والشّام ص381.

صلّى الله عليه وسلّم في هذا الموقف المصيريّ، وفي ذكر المكان الّذي سيتمّ التّحالف عنده وهو الصّخرة مزيد من استثارة العاطفة واستشعار جِدِّيّة الموقف الّذي يتطلّب حماية هذه المقدّسات. وأيّا ما يكن الأمر، فإنّ هذه الخطبة حملت الملامح الأساسيّة للخطب الحربيّة في ذلك العصر.

1. **خطبة صلاح الدّين الأيُّوبيّ لحثِّ الجند على الدِّفاع عن المسجد القدس سنة(588هـ)**[1]: وهي الخطبة الّتي ألقاها النّاصر صلاح الدِّين الأيُّوبيّ بعد خطبة ابن شدّاد المذكورة آنفا، وهي تؤكّد على ما قاله ابن شدّاد وتحمّل الأمراء مسؤوليّة حماية أوطان المسلمين ودمائهم، لأنّ كلّ ما ينعمون به إنّما كان بسبب توكيل المسلمين لهم للقيام بهذه المهمّة. وأنقل هذه الخطبة برواية ابن شدّاد[2] حيث قال: (ثم شرع السلطان بعد أن سكت زماناً في صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير فقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أنّكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقّاه إلاّ أنتم، فإن وليتم بأنفسكم –والعياذ بالله– طوى البلاد طي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصدّيتم لهذا وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام). ونلاحظ أنّ الخطبة على الرّغم من قصرها الذي كان يعدّ سمة من سمات الخطابة الحربيّة، إلّا أنّها احتوت على العناصر الرئيسيّة الّتي تشترط في بناء الخطبة،وهي المقدِّمة القصيرة من الحمد والصّلاة على الرّسول، ومن ثمّ العرض الموجز للخطر الّذي يتعرّضون له، فالخاتمة الّتي ذكّرتهم بما يمليه عليهم واجبهم الوظيفي والأخلاقي بالإضافة إلى الواجب الدِّيني، وقد كانت كلمة الختام قاطعة حازمة تتناسب والمقام.

والخطبة مليئة بالأساليب اللغويّة والبيانيّة الّتي تدلُّ على ضلوع ملقيها وتمكُّنه في جانبي الفصاحة والبلاغة؛ فالخطبة مليئة بالتّشبيهات والمجاز والتّضمين والاستعارات،فضلا عن الألفاظ الفصيحة الّتي استخدمت فيها، إلّا أنّها جاءت مسترسلة تكاد تكون خالية من الصّنعة اللّفظيّة على غرار مثيلاتها من الخطب الحربيّة.

---

[1] انظر: ابن شدّاد، النوادر السلطانيّة ص 321، أبو شامة،الروضتين 179/4، الذهبي، تاريخ الإسلام 711/12، ابن كثير، البداية والنهاية 641/16.

[2] ابن شداد، النوادر السلطانيّة ص321وهي متشابهة إلى درجة كبيرة مع الروايات الأخرى المذكورة في المراجع السابقة أعلاه.

(وكما رأينا،فإنّ هذه الخطب كانت تلقى ارتجالا في الظروف الحربيّة الطارئة، لذا فقد امتازت بالإيجاز...، ويمتاز أسلوبها بالوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد والصّنعة البديعيّة)[1].

ثالثا: الخطابة السّياسيّة

لم تركّز الخطابة السياسيّة على مهاجمة فرق أو بيان الأحقّيّة في الخلافة والحكم في المقام الأوّل كما كان معهودا في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ، بل تركّزت على خطب السّفارات والمبايعات والوفود.ولم تلق الحظ نفسه من الازدهار الّذي كانت عليه في العصور السابقة. وقد توصّل الباحث إلى خطبة في السّفارات لابن العديم سيقوم بعرضها، إلّا أنّه لم يتوصّل لأيٍّ من خطب المبايعات في هذا العصر مع الإشارة إلى أنّ خطبة الخليفة أبي العبّاس أحمد العبّاسي أمام الظّاهر بيبرس كانت في المبايعات،وسيتمّ عرضها في العصر المملوكيّ.

والباحث سيقسّم عرضه للخطابة السّياسيّة إلى ثلاثة أقسام: 1.خطابة السفارات2.خطابة الإنكار على الحكّام وأرباب القرار3.خطابة النزاعات السّياسيّة، وسيشير الباحث إلى خطبة من خطب الوفود في هذا العصر لم يصل إلى نصّها، ونبدأ بالنوع الأوّل:

أ.**خطابة السفارات:** ازدهرت السّفارات في هذا العصر كما بيّنّا في المباحث السّابقة في ترجمة سبط ابن الجوزيّ وابن العديم وضياء الدّين الشّهرزوري؛وذلك لأهمّيّتها في تقريب وجهات النّظر والتنسيق بين كافّة السّلاطين التّابعين ظاهريّا للخليفة العبّاسيّ، وأحيانا للإصلاح بينهم[2].

والخطبة الّتي سأعرضها كنموذج على خطابة السّفارات، كانت في سفارة كمال الدّين ابن العديم من السلطان النّاصر يوسف آخر سلاطين الدّولة الأيُّوبيّة في حلب ودمشق إلى الخليفة العبّاسيّ المستعصم[3] في بغداد سنة 648هـ طالبا الخِلَع من الخليفة العبّاسيّ بعد أن سيطر على دمشق[4]، وذلك لضمان شرعيّة حكمه على عادة السّلاطين الأيُّوبيّين في ذلك الوقت، وقد خطب

---

[1] مصطفى محمود زايد،النثر الفني في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام ص231.

[2] انظر: أبو شامة،ذيل الروضتين 223، وفيه أن سبط ابن الجوزي جاء سفيرا من الخليفة العبّاسيّ طالبا من المعظّم عيسى عدم موالاة الخوارزميّة على إخوانه، وانظر:السلوك 395/1. وفيه أنّ سبط ابن الجوزي حاول الإصلاح بين نجم الدين أيوب والعادل.

[3] عبد الله (المستعصم) بن منصور (المستنصر) ابن محمد (الظاهر) من سلالة هارون الرشيد العباسي(609 – 656 هـ)، وكنيته أبو أحمد آخر خلفاء الدولة العباسية في العراق. انظر: الزركلي،الاعلام:140/4.

[4] انظر: النويري،نهاية الأرب 370/29.

ابن العديم خطبة رائقة من إنشائه أمام الخليفة يرويها النّويريّ على النّحو الآتي[1]:(وخطب خطبةً بلغية من إنشائه قال ابن أنجب: وكنت حاضرا ومن خطّه الرائق نقلتها، وهذه نسختها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أسبغ علينا جزيل النّعمة، ودفع عنا وبيل النّقمة، ومنّ علينا بالخلفاء الراشدين، والأئمّة المهديّين، وجعلنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بأنوارهم خير أمّة.

أحمده على هباته السّنيّة...

وأشهد أن لا إله الله وحده، شهادة من أزال عنه الشّكّ ونفى،...

والصّلاة والسّلام على قسيم النبي في النّسب، وشريكه في مدارج الفخار والرُّتب،...المستعصم بالله أمير المؤمنين. لا زالت جباه الملوك العظماء بثرى عتباته الشّريفة موسومة، وأرزاق العباد بما جرى من أوامره اللّطيفة مقسومة، والأقضية والأقدار جاريةً بما يوافق حكمه ومرسومه، والأقذية والأقذار بطول بقائه منفيّةً محسومة...

بحبّهم يدرك الأمل والسّول([2])، وطاعتهم مقرونةٌ بطاعة الله والرّسول...، ولمّا كان عبد الديوان العزيز "يوسف بن محمد بن غازي المستعصمي "ممّن تقمّص بلباس هذه الأوصاف، وتخصّص باقتباس هذه الشِّيَم الشِّراف، وتردّى([3]) بالتَّمسّك في هذه الحلّة الجميلة، وتبدّى بالتّنسّك بهذه الخلّة الجليلة، واغتدى متقلّباً في صدقات الدّيوان، واغتذى من نعمه بلبان[4] الإحسان، وورث ولاء هذا البيت النّبويّ الفاخر، كابراً عن كابر...

فارتاد من رعيّته من يقوم مقامه في تقبيل الأرض...،خدمةً على يد أقلّ مماليك الديوان وعبيده من طارف إنعام الدّيوان العميم وتليده[5]، وسالف الإحسان القديم وجديده، وهو يضرع إلى العواطف الرحيمة، ويسأل من الصّدقات العميمة، أن ينعم عليه بقبولها...، والسّلام).

وفي وقفة قصيرة مع هذه الخطبة نلاحظ ما يلي:

1. اتّباعها للبناء الفنّي المعهود للخطب المعدّة مسبقا، وهو وجود المقدّمة والعرض والتّدليل والخاتمة،والمقدّمة جاءت مناسبة للموضوع، إلّا أنّ الخاتمة جاءت فريدة نوعا ما؛ حيث اشتملت

---

[1] المصدر السابق 29/370-376.وقد اختصرت أجزاء منها لطولها المفرط، وسيتم ذكرها كاملة في الملحق.

[2] والسول: ما سألته. وفي التنزيل العزيز: قال قد أوتيت سؤلك يا موسى؛ أي أعطيت أمنيتك التي سألتها، قرئ بالهمز وغير الهمز. وأسألته سولته ومسألته أي قضيت حاجته؛ والسولة: كالسول. انظر:ابن منظور، لسان العرب، فصل السين المهملة.

[3] أي لبس، ويقول ابن فارس: (مما شذّ عن الباب الرِّداء الذي يُلبَس، ما أدري مِمّ اشتقاقُه، وفي أيِّ شيءٍ قياسُه. يقال فلانٌ حسَنُ الرِّدْية، من لُبْس الرداء). انظر: ابن فارس،معجم مقاييس اللغة باب (ردي)

[4] (واللبان)، بالكسر: (الرضاع). يقال: هو أخوه بلبان أمه، ولا يقال بلبن أمه، إنما اللبن الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرها من البهائم. انظر:الزبيدي، تارج العروس، مادّة لبن

[5] العرب تقول: ماله طارف ولا تالد ولا طريف ولا تليد،فالطّارف والطّريف: ما استحدثت من المال واستطرفته،والتلاد والتليد: ما ورثته عن الآباء قديما. انظر: الزبيدي، تاج العروس، مادّة طرف.

على الحمد والصّلاة على النبيّ مرّة أخرى؛ والباحث يعزو ذلك إلى الانقطاع الّذي حدث بين المقدّمة الأولى والطّلب الذي جاء له السّفير لطول الكلام الفاصل بينهما.

2. تعدُّ هذه الخطبة نموذجا للخطب المعدّة مسبقا بإحكام؛ وذلك يفسّر ظهور الصّنعة اللّفظيّة بشكل جليّ، فنلاحظ السّجع والجناس والطباق، كما نعاين استخدام الأساليب البلاغيّة من الاستعارات والتشبيهات والتضمينات والكنايات، والبراعة في إيراد المعاني اللّطيفة المنسجمة مع السّياق، ممّا يجعل النّصّ في أسلوبه ولغته فصيحا بليغا تزيّنه لمسة بيانيّة مفعمة بالخيال.

3. سيطرة النّزعة الدّينيّة على هذه الخطبة؛ حيث تمّ الثّناء على الخليفة بأنّه وريث البيت النّبويّ، وانّه المتقرّب إلى الله صاحب الأخلاق الحميدة الّتي لا تضاهى،فضلا عن تضمين العديد من الآيات القرآنية في جمل هذه الخطبة، وهذا ليس بدعا في الأسلوب؛ فقد كان الخطاب الدِّينيّ بارزا في معظم خطب ذلك العصر، ويعدُّ سمة من سمات الخطابة في العصر الأيُّوبيّ.

4. ظهر نوع من المبالغة الشّديدة في الثّناء على الخليفة قد يصل إلى حدّ التّزلُّف أو الخروج عن المعهود في الثّناء على الخلفاء كقوله:(وأرزاق العباد بما جرى من أوامره اللّطيفة مقسومة، والأقضية والأقدار جاريةً بما يوافق حكمه ومرسومه)، ولا أدري كيف يمكن تأويل هذا الكلام بحيث يمكن أن نخرجه من دائرة الخلاف العقديّ الحادّ؟!، وهل إدراج مثل هذا الكلام كان سمة عامّة في خطب السّفارات للدّيوان العزيز؟!أم أنّه تجاوز للخطوط الحمراء في التزلّف للخليفة؟!

وأيًّا ما يكن من أمر،فهذا الخطبة تعدُّ نصًّا أدبيًّا راقيًا ظلّ شاهدا على خطابة السّفارات المعدّة مسبقا بعناية شديدة.

ب. **خطابة الإنكار على الحكّام وأرباب القرار:** وقد تصدّر لهذ اللَّون من الخطابة سلطان العلماء العزُّ بن عبد السّلام، فقد سبق وأن أشرت إلى موقفه من الصّالح إسماعيل(1)، وقد كان للعزّ بن عبد السّلام العديد من المواقف من هذا القبيل،كما بيّنتُ ذلك في ترجمته،ومن أشهرها ممّا يمكن عدُّه من خطابة الإنكار على الحكّام موقفه مع نجم الدّين أيّوب حيث(خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الدّيار المصريّة وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان فالتفت الشيخ إلى السّلطان وناداه: **يا أيوب ما حجّتك عند الله إذا قال لك:(ألم أبوِّئ لك ملك مصر) ثم تبيح الخمور، فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم الحانة الفلانيّة يباع فيها الخموروغيرها من المنكرات**

---

(1) انظر مبحث ترجمة العز بن عبد السّلام في مبحث أهمّ الخطباء الّذين تقلّدوا منصب الخطابة رسميًّا.

وأنت تتقلّب في نعمة هذه المملكة يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون. فقال: يا سيّدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي. فقال: أنت من الذين يقولون: (إنّا وجدنا آباءنا على أمّة) فرسم السّلطان بإبطال تلك الحانة)[1]. والعزُّ بن عبد السّلام يوضّح موقفه من السّلطان بقوله: (رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه)[2].

ومن الواضح أنّ ما ساقه الباحث لا يعدُّ خطابة بالمعنى الفنّيّ، إلّا أنّ هذا الإنكار بصورته الخطابيّة الارتجاليّة جعلني أذكر هذه الحادثة هنا[3] وقد كان للحافظ عبد الغني المقدسيّ كذلك دور جليّ وفاعل في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تعرّض على إثره للنّفي.[4]

جـــ. **خطابة النّزاعات السّياسيّة:**وهي الخطابة الّتي يمارسها القادة السّياسيُّون لإقناع الشّعب بآرائهم وتبرير مواقفهم المرتبطة بها، ولبيان بطلان مواقف خصومهم. ومع أنّ الخصومات السّياسيّة استشرت بين الأيُّوبيّين إلّا أنّه لم تصلنا نصوص خطابيّة على لسان قادتهم، إلّا ما كان من الصّالح إسماعيل ابن نور الدّين زنكي حينما حرّض أهل حلب على مواجهة صلاح الدِّين الأيُّوبيّ سنة 572هـــ قبل تمكّن الأخير من السّيطرة عليها بعد وفاة الصالح إسماعيل. ويروي ابن واصل الحادثة قائلا: (وركب الملك الصّالح وهو صبيٌّ عمره اثنتا عشرة سنة،وجمع أهل البلد، وقال لهم: **قد عرفتم إحسان أبي إليكم، ومحبّته لكم،وسيرته فيكم، وأنا يتيمكم،وقد خان هذا الظّالم الجاحد إحسان والدي إليه، ياخذ بلادي ولا يراقب الله والخلق. وقال من هذا الكلام كثيرا، وبكى وأبكى النّاس،** فبذلوا له الأموال والأنفس، واتفقوا على القتال دونه، والمنع عن بلاده، وجدّوا في القتال)[5]. والّذي يراه الباحث أنّ الصّالح إسماعيل قد غُرِّر به من قبل أمراء والده، فدفعوه إلى مثل هذا الكلام والمقاومة؛ لأنّ صلاح الدِّين الأيُّوبيّ ما كان يقصد إلّا توحيد البلاد الإسلاميّة من أجل أن تكون منيعة على الصّليبيّين، كما أنّ صلاح الدِّين أكرم بنت نور الدّين زنكي ووهبها أعزاز دون إبطاء وبكى بين يديها حسب ما يرويه أبو شامة[6].

أمّا بالنّسبة لخطب الوفود فقد ذكر ابن كثير أنّ سلطان الخوارزميّة علاء الدِّين خوارزم شاه قصد بغداد غازيا سنة 614هـــ، فأرسل إليه الخليفة شهاب الدين السّهروردي في وفد ليصدّه عن قصد بغداد،(وأخذ في خطبة هائلة، فذكر فيها فضل بني العباس وشرفهم، وأورد حديثا في

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 212/8.
(2) المصدر السابق 212/8.
(3) انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 241/8 للاطلاع على مزيد من مواقف إنكار العزّ على السلاطنة.
(4) انظر: الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة 16/3.
(5) ابن واصل، مفرج الكروب 23/2.
(6) انظر: أبو شامة، الروضتين 278/2.

النهي عن أذاهم...)[1]، فما ورد في وصف هذه الخطبة يدلُّ على الشّأن العظيم الّذي بلغته، لكنّها –للأسف– لم تذكر في أيٍّ من المصادر التّاريخيّة أو الأدبيّة حسب علم الباحث.

والخطب السِّياسيّة –كما رأينا– تقسّم إلى قسمين من حيث الاهتمام بالفصاحة والبلاغة والتّأنُّق اللفظي : فخطب السّفارات والوفود المعدّة مسبقا يظهر فيها التّفنُّن في استخدام الفنون البديعيّة والبيانيّة واللُّغويّة على غرار خطب الجمعة المعدّة مسبقا،أمّا خطب الإنكار على الخلفاء والنّزاعات السِّياسيّة، فغالبا ما تكون قصيرة و(لا حظّ لها من الأناقة الفنيّة،أو الصنعة الأدبيّة)[2].

رابعا: الخطابة الاجتماعيّة

مورست الخطابة الاجتماعيّة في هذا العصر على نطاق ضيِّق؛ لفداحة الخسائر الّتي مني بها المسلمون، ولطبيعة الظُّروف الحربيّة التي كانت تفرض حالة من عدم الاستقراروالتّرقُّب الدّائم،كما أنّ الشّغل الشاغل لمؤرّخي ذلك العصر كان توثيق الأحداث السّياسيّة والحربيّة والمناسبات الدينيّة المرتبطة بها، لكنّ ذلك لم يحل دون تسجيل بعض الأحداث الاجتماعيّة الّتي صدحت فيها أصوات الخطباء بالتّهنئة حينا، وبالتّعزية حينا آخر، فضلا عن المناسبات الدّينيّة الّتي تحوّلت إلى ظواهر اجتماعيّة كالاحتفال بالمولد النّبويّ، أو ختم القرآن للميّت.

والباحث سيقدّم ثلاثة نماذج على الخطابة الاجتماعيّة وقف عليهما تتعلُّق بخطابة عقد النّكاح، والتّأبين، ولم يتسنّ للباحث الاطّلاع على خطب قيلت في مناسبات أخرى.

أ.خطابة عقود النّكاح: (أثِرت خطب النّكاح في غير موضع عن الرّسول–عليه الصّلاة والسّلام– والخلفاء الرّاشدين من بعده)[3]، وكان القائمون على عقود النّكاح من العلماء والفقهاء والخطباء غالبا ما يلقون خطبة لبيان فضيلته،والتّأكيد على حضِّ الشرع عليه، وتقديم التّهاني وإسداء النُّصح للزّوجين.

والباحث وصل إلى خطبتين في هذا العصر: أولاهما في عقد مملوك من مماليك الخليفة على إحدى جواريه، والثانية في "عقد المراجعة" بعد الطلاق وهما على النّحو التالي:

---

[1] ابن كثير،البداية والنهاية 62/17.

[2] حمزة، أدب الحروب الصّليبيّة ص 205.

[3] العلي،فريال عبد الرّحمن(1995م).فنّ الخطابة في العصر الأمويّ.(رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنيّة،عمّان، الأردن،ص152.

*(**خطبة عقد مملوك من مماليك الخليفة)**:الخطبة الّتي بين أيدينا هي لمحمد بن عبد المحسن المشهور ب"ابن الرّفاء" والد شيخ شيوخ حماة الشّرف الأنصاريّ[1] والخطبة رواها اليونيني في كاملة في ذيل مرآة الزمان،وأنقلها مختصرة على النّحو التّالي: (وندب لعقد نكاح ببغداد لبعض مماليك الخليفة على بعض جواريه، فقال بديهاً: الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً، وشرع النِّكاح لعباده...، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة أعدّها للمعاد ذُخراً، وأشُدُّ بها للرشاد أزراً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى العالم طُرًّا[2]...،صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة هُمْ بها أحقُّ وأحْرى، وعلى عمِّه العبَّاس بن عبد المطلب الذي فاق الأَعْمام شَرَفاً وقدْراً، وأولَدَ من الأئمّة المهديِّين نجوماً زُهراً[3]، جدّ مولانا وسيّدنا الإمام النّاصر لدين الله أمير المؤمنين الذي أوسع الإسلام إنجاداً ونصراً، وأوسع الأنام إرفاداً وبِرّاً، وقمع أهل الكفر والعناد إرغاماً وقهراً، صلّى الله عليه صلاة تَرفع له في الدّارين رتَباً وذكراً وبعد: فالنِّكاح من السُّنن المنوّه بها شرعاً وعقلاً، والأعمال المفضّلة عند الحاجة إليها على أفضل العبادات إذا كانت نفلاً، وبه تمّت الحِكَم الإلاهيّة، ووردَت الشّريعة المحمّديّة، ونُسخت المسافَحَة الجاهليّة، ورسخت أقدام المَناسِب[4] الطّاهرة الزكيّة،...، أثناء عقدة النِّكاح بين فلان وفلانة مملوكي الخدمة الشّريفة المكتفِيَيْن بهذه العبوديّة في التلقيب شرفاً، وبهذه المملوكيّة ملكاً عظيماً مؤتنفاً[5]، على صَداق مبلغه كذا وكذا فخاراً لله ولأمير المؤمنين صلوات الله عليه صلاة دائمة إلى يوم الدّين في هذا المرسوم المبين، ولمملوكَيْه في هذا العقد المتين، وجعله مقروناً لأمير المؤمنين، بالنّصر والتّمكين ولمملوكَيْه المذكورَيْن بالرِّفاء والبنين، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين).

والمتمعِّن لهذه الخطبة يلاحظ ما يلي:

---

(1) سبق ترجمتهما في مبحث "عوامل ازدهار الخطابة" في الحديث عن الخطابة الاجتماعيّة من هذا المبحث. والباشا في كتابه الأدب في بلاد الشام يذكر أنّ والد الشرف الأنصاري ناب عن ضياء الدين الشهرزوري في القضاء سنة 682هـ، ويظهرأنّ هذا وقع سهوا، لانَّ محمد بن عبد المحسن والد الشرف الأنصاريّ توفي سنة 616هـ، والضياء الشهرزوري سنة 595هـ. انظر: أبو شامة،الذيل على الروضتين 324هـ، وقد كان والده زين الدِّين قاضيا نيابة عن ضياء الدين الشهرزوري واستقلالا وذلك سنة 588هـانظر: اليونيني،ذيل مرآة الزمان 277/2-293، فله ترجمة طويلة هناك.

(2) قولهم جاؤوا طُرا أي جميعا؛ وفي حديث قس: ومزادا لمحشر الخلق طرا:أي جميعا، وهو منصوب على المصدر أو الحال. قال سيبويه: وقالوا مررت بهم طرا: أي جميعا. انظر:ابن منظور، لسان العرب، مادّة طرّ.

(3) الأزهر من الرجال الأبيض العتيق البياض النير الحسن، وهو أحسن البياض كأن له بريقا ونورا، والجمع زُهر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادّة زهر.

(4) وذاتِ مَناسِبٍ جَرْداءَ بِكْرٍ، وذاتُ مَناسب: يُرِيدُ فَرَسًا مَنْسُوبَةً مِنْ قِبَلِ الأَب والأُم.انظر:ابن منظور، لسان العرب، مادّة قرزم.، والّذي يظهر للباحث أنها جمع كلمة "مَنسَب" وهي المصدر الميمي للفعل "نسب".

(5) (أنف) الهمزة والنون والفاء أصلان منهما يتفرع مسائل الباب كلها: أحدهما أخذ الشيء من أوله، والثاني أنف كل ذي أنف. وقياسه التحديد. فأما الأصل الأول فقال الخليل: استأنفت كذا، أي رجعت إلى أوله، وائتنفت ائتنافا. ومؤتنف الأمر: ما يبتدأ فيه. انظر:ابن فار، معجم مقاييس اللُّغة، مادّة أنف.

1. أنّها ألقيت ارتجالا حسب ما صرّح به اليونيني في البداية عندما قال:(قال بديها)، ومن ثمّ كانت العناية بتدوينها؛ لعظم شأنها، وطول باعها في فصاحة ألفاظها، وبلاغة معانيها. وعلى الرّغم من أنها ألقيت ارتجالا لكنّها لم تقل في مرتبتها عن الخطب المعدّة مسبقا من حيث التّنميق اللفظي،وفصاحة الألفاظ، واستخدام الأساليب البيانيّة المعبِّرة.
2. اتّباعها للبناء الفنِّي المعهود للخطب من حيث وجود المقدّمة والعرض والخاتمة مع ملاحظة طول المقدّمة نوعا ما، وذلك بسبب المقام الّذي ألقيت فيه الخطبة ممّا يستدعي الثناء على الخليفة.
3. اصطبغت هذه الخطبة بالصبغة البديعيّة الّتي كانت سائدة في ذلك العصر؛ فالسّجع لازمها من بدايتها إلى آخر سطر فيها مع ظهور للتّرصيع والموازنة، إلّا أنّها كانت منسابة مع المعنى كلّ الانسياب؛ فلم نلحظ التأنُّق اللّفظيّ الممجوج، ولا الظواهر البديعيّة المصطنعة.
4. الإيقاع الموسيقي الّذي ارتكز على السجعات المنتهية بصوت الألف المطلقة أعطى للخطبة رونقا خاصّا، وتأثيرا فريدا.

هذا ويعدُّ الباحث هذه الخطبة من عيون الخطب الّتي ألقيت في مناسبات عقود النّكاح، والّتي يجب أن تحظى بتحليل خاصّ يقف على جماليّات أسلوبها وسماتها الفنيّة[1].

***(خطبة عقد المراجعة):** وهي خطبة "لابن بصاقة"[2] وزير النّاصر داوود،والّتي سأذكر مقتطفات منها؛ لبيان هذا النّوع الفريد من الخطب الّذي يتعلّق بعقد الإرجاع بعد الطلاق؛ (فمن قوله في خطبة صداق المراجعة:

"رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً"[3]

الحمد لله جامع الشّمل بعد الشّتات، وواصل الحبل بعد البتات، ومحيي الأرض بعد الممات، ومنزل الماء الثجاج من المعصرات لإخراج الحب والنبات، والعالم بما كان وما يكون وما مضى وما هو آت؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له...،وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بالآيات البينات، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار وأزواجه الطاهرات؛ وبعد:

---

(1) يذكر ابن الفوطي أنّ بدر الدّين لؤلؤ أمير الموصل عقد زواج ابنته على مجاهد الدين أيبك الخاص المستنصري سنة 632هـ وكان هناك خطبة الحسين بن المهتدي بهذه المناسبة لم يذكر نصّها.انظر:ابن الفوطي،كمال الدين أبو الفضل(1932م). الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة.(د.ط)،بغداد:المكتبةالعربيّة ص72.

(2) ابن بُصَاقَةَنصر الله بن هبة الله بن أبي محمد الباقي الغفاريّ، أبو الفتح(577 – 650 هـ)، ولي كتابة الإنشاء في الديار المصرية، فكان خصيصا بالمعظم عيسى، ثم بابنه الناصر داود. وتوفي بدمشق. انظر:الزركلي، الأعلام:31/8.

(3) سورة الفرقان 74.

فالنّكاح من السّنن التي أمر الله بها، وندب إليها، ورغّب رسوله صلى الله عليه وسلم فيها، وحضّ عليها، فقال تعالى:"وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ"[1]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تناكحوا تناسلوا أباهي بكم الأمم يوم القيامة" وقد جعل الله تعالى للزّوجين أن يتواصلا وأن يتقاطعا، وأن يتباينا وأن يتخالعا، ورخّص لهما في المراجعة بقوله تعالى: فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا[2]...)[3].

وأوّل ما نلاحظه في هذه الخطبة أنّها كانت زاخرة بالآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة الّتي تحثُّ على الزّواج وعلى المراجعة؛ وذلك لطبيعة الموقف الّذي يسعى فيه الخطيب إلى الإصلاح بين الطّرفين، كما أنّها التزمت بناء الخطبة المعهود مع مقدّمة متناغمة مع الموضوع الّذي جاءت له؛ حيث اشترط الراغب الأصفهاني على الخطيب (أن يضع في صدر كل خطبة من النكاح والعيد والصلح ما يدل على عجزها)[4]،وهذا ما وقفنا عليه في معظم الخطب الّتي عرضت. والخطبة ظهرت فيها ملامح خطب العصر من الصّنعة اللفظية والأساليب البلاغيّة.

ب.**خطابة التّأبين**:وهي الخطب الّتي كانت تلقى في مراسم الدّفن والتّعزية لمتوفّى له مكانته في المجتمع، (ويتّجه الخطيب بخطبة التأبين إلى الميّت، يعدّد مناقبه ويصوُّر ما خلّفه فقده من الفاجعة والحسرة في القلوب، ثم يدعو له بالمغفرة)[5].

ولم يصل الباحث إلّا إلى خطبة واحدة في التّأبين في هذا العصر، وهي لابن نجا في تأبين ابنه الّذي كان عاصيا لله، فدعا عليه ابن نجا فمات،فنصبوا له كرسيًّا للوعظ (فصعد عليه، وحمد الله تعالى، وقال: اللّهم **إنّ هذا ولدي بلغ من العمر تسع عشرة سنة، لم يجهر عليه فيها قلم إلا بعد خمس عشرة سنة، بقي له ثلاث سنين، نصفها نوم، بقي عليه سنة ونصف، قد أساء فيها**

---

[1] سورة النور 32.

[2] سورة البقرة 230

[3] العمري،مسالك الأبصار 332/12،

[4] الراغب الأصفهاني،ابو القاسم الحسين بن محمد(2000هـ). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء.ط1، بيروت، شركة دار الأرقم. 176/1.

[5] الهدروسي، سالم مرعي(1981م).حركة الخطابة في قبيلة بني تميم حتى نهاية العصر الأمويّ.(رسالة ماجستير)،الجامعة الأردنيّة،عمّان، الأردنّ ص192.

إليّ وإليك. فأما جنايته عليّ، فقد وهبتها له. بقي الذي لك فهبه لي. فصاح النّاس بالبكاء فنزل وصلّى عليه)[1].

وهي خطبة يطلب فيها الصّفح والمغفرة من اللّه سبحانه وتعالى؛ فلذلك جاءت مباشرة صادقة مؤثِّرة مناسبة للمقام الّذي لا يتطلَّب الاهتمام بالمحسِّنات البديعيّة.

خامسا:خطابة المناظرات والمدح والثناء

هذا النُّوع من الخطابة كان يجري بين العلماء حول المسائل الفقهيّة والعقديّة، وقد سمّاها عمر الباشا ب"الخطابة الدفاعيّة"[2].وقد بيّن الباحث ما حدث بين ابن نجا والشّهاب الطوسي[3] والعز بن عبد السّلام والحنابلة، ولم يتمكّن الباحث من العثور على خطبة شافية في هذا المجال؛ ولعلّ السّبب في ذلك يعود إلى عدم اهتمام المؤرّخين بعرض مثل هذا النُّوع من الخطب، وفي ذلك تجنُّب لنشر الفتن وسعي لوأدها.

أمّا الخطب الّتي خصّصت للمدح والثناء[4]، فبين أيدينا خطبة لسبط ابن الجوزي يمدح فيها ابن عبد السّلام ويحضُّ على قراءة رسالة"مقاصد الصّلاة" حيث أشار عليه الملك الأشرف[5] بتحريض النّاس على قراءتها:(فقال له طرز مجلسك الآتي بذكرها وحرِّض الناس عليها فلما جاء الميعاد صعد المنبر "**وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه (صلى الله عليه وسلم) وقال اعلموا أن أفضل العبادات البدنية الصلاة، وهي صلة بين العبد وربه فعليكم بمقاصد الصلاة تصنيف ابن عبد السلام فاسمعوها وعوها واحفظوها وعلموها أولادكم ومن يعز عليكم**" وكان لها وقع عظيم في ذلك المجلس وكتب منها من النسخ ما لا يحصى عدده)[6].

وأوّل ما نلحظه على هذه الخطبة أنّها جاءت قصيرة مباشرة خالية من الصّنعة اللّفظيّة والسّمات الفنّيّة المميّزة، كما أنّ العاطفة فيها تكاد تكون غير ظاهرة كما كان سائدا في خطب

---

[1] انظر:الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة 535/2.

[2] انظر: عمر الباشا، الادب في بلاد الشام ص732ه، ومثّل لها بخطابة ابن تيمية الدّفاعيّة في العصر المملوكي.

[3] انظر مبحث " عوامل ازدهار الخطابة" من هذا البحث عند الحديث عن "توافر دواعيها"

[4] وقد مدح ابن نجا الحافظ المقدسي في خطبة على المنبر قائلا: (قَدْ جاء الإمام الحافظ، وَهُوَ يريد أَن يقرأ الْحَدِيث، فاشتهي أن تحضروا مجلسه ثَلاث مرات، وبعدها أنتم تعرفونه، ويحصل لكم الرغبة). انظر:الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة 13/3.

[5] الأَشْرَف الأَيُّوبيموسى بن داود بن شيركوه (الثاني) ابن محمد، مظفر الدين الملك الأشرف الأيوبي(000 – 680 هـ): صاحب حمص. من ملوك الدولة الأيوبية. توفي بها ودفن بدمشق. انظر: الأعلام 322.

[6] انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 239/8.

ابن الجوزيّ؛ وقد يكون السّبب في ذلك إشارة الملك الأشرف بما يخالف مذهب ابن الجوزيّ، فقد كان العز بن عبد الّسلام شافعيّا وابن الجوزيّ من الحنابلة تحوّل لاحقا إلى مذهب أبي حنيفة.

هذا وقد افتتحت الكثير من المدارس في العصر الأيُّوبيّ، وقد جرت العادة أن تلقى خطبة في افتتاح هذه المدارس،وقد وقفت على خبر عن خطبة بليغة ألقيت في المدرسة المستنصريّة من قبل الفقيه عبد الله بن عبد الرّحمن المغربي،ولم يذكر نصُّها في ذلك المصدر.[1]وهكذا نجد أنّ الخطابة قد مورست على نطاق واسع في العصر الأيُّوبيّ،إلّا أنّ الخطابة الدّينيّة والوعظيّة والحربيّة قد نالت نصيب الأسد من الاهتمام والازدهار والتطوُّر؛ لتوفُّر دواعيها الملحّة الّتي تطلّبت وجود مثل تلك الخطب.

---

[1] انظر:ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص81.

المبحث الرّابع: السّمات الفنّيّة والأدبيّة للخطابة في العصر الأيّوبيّ

ظهرت مجموعة من السّمات الفنّيّة والأدبيّة للخطابة في هذا العصرتتشابه في بعضها مع السّمات الفنّيّة والأدبيّة للخطابة في العصور الماضية،وتتمايز في بعضها الآخر؛لوجود الظروف السّياسيّة والعسكريّة والدّينيّة الّتي ألقت بظلالها على أدب هذه المرحلة.

والباحث من خلال عرضه للخطب السّابقة، استطاع أن يلاحظ السّمات الفنّيّة التّالية في خطابة العصر الأيّوبيّ:

1. التزام الخطباء في العصر الأيّوبيّ بالبناء الفنّي للخطبة،من حيث إيراد المقدّمة والعرض والتّدليل والخاتمة،وذلك ظهر في معظم الخطب الّتي وقفت عليها،وقد تفاوتت الخطب في الطّول والقصر تبعا للموقف؛ فالخطابة الدينيّة والوعظيّة وخطب السّفارات والوفود وخطب النّكاح كانت غالبا طويلة معدّة بشكل جيّد،أمّا الخطب الّتي كان يتطلّبها الموقف نحو:الخطب الحربيّة،وخطب الشّكر والثّناء والتّأبين وخطب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛فكانت غالبا قصيرة مباشرة متناسبة مع جدّيّة الموقف وخطورته.

2. ظهرت العاطفة الدّينيّة بشكل جليّ في معظم الخطب الّتي قيلت في هذا العصر على اختلاف أنواعها؛وذلك تمشّيا مع الطابع العام للعصر الّذي ساد فيه الخطاب الدّينيّ .

3. كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة الشّريفة،وشيوع التّضمين لمعانيها في جلّ الخطب الّتي قيلت في هذا العصر.

4. روعي في الخطب الّتي ألقيت في هذا العصر،تناسب مقدّماتها مع مواضيعها وهذا اتباعا لعادة الخطباء في العصور السّابقة.

5. لم تفقد الخطابة سمة الارتجال وإلقائها بديهة؛فقد ظهرت العديد من الخطب الّتي ألقيت ارتجالا نحو: خطبة محيي الدّين بن زكي، والخطب الحربيّة،وخطب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر،وخطب التّأبين ومعظم خطب الوعّاظ الّتي قيلت في هذا العصر؛ حتّى إنّ خطبة "ابن الرّفاء" البليغة في النّكاح كانت قد ألقيت بديها. إلّا أنّ خطب الجمع الرّاتبة وخطب المناسبات والسّفارات والوفود كانت غالبا معدّة مسبقا تفتقد عنصر الارتجال.

6. انقسمت الخطب الّتي وصلتنا في هذا العصر من النّاحية الفنّيّة إلى قسمين: قسم يلتزم بالصّنعة اللّفظية،والمبالغة في استخدام المحسّنات البديعيّة،وكان الخطيب الحصكفيّ رائد هذه المدرسة وعلى خطاه سار الكاتبان الكبيران: العماد الكاتب،والقاضي الفاضل والكثير من خطباء هذا العصر؛فظهر التفنّن في استخدام الصّنعة اللّفظيّة والمحسّنات البديعيّة والأساليب البيانيّة بشكل كبير في الخطب المعدّة مسبقا،لا سيّما خطب الجمعة والأعياد والسّفارات والوفود، إلّا أنّ بعضها كان يظهر بأسلوب رقيق لطيف يخدم المعنى ويقوّيه ويثريه، والبعض الآخر كان يظهر بأسلوب يجعل المعاني أسيرة للألفاظ وتابعة لها،وكأن التفنّن في إظهار المهارة في استخدام المحسّنات البديعيّة كان هو الهدف،وليس إيصال المعنى بأسلوب أدبيٍّ رائق جميل.أمّا القسم الآخر من الخطب،فهي الخطب الّتي تحرّرت من الصّنعة اللّفظيّة وثارت على المبالغة في استخدام هذا الأسلوب في الخطابة والكتابة،بل وعدّ المنظّرون لهذا الاتّجاه وعلى رأسهم الشّيخ العزّ بن عبد السّلام أنّ الالتزام بالسّجع والصّنعة اللّفظيّة بدعة يجب أن تقاوم،فما كانت المحسّنات البديعيّة هدفا لذاتها أبدا، وما التزم بها الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم بها في خطبه؛لذلك جاءت خطب هذا الفريق مسترسلة تتدفّق كالماء العذب. وغالبا ما كانت خطب العزّ بن عبد السّلام الدّينيّة تنسج على هذا المنوال،وخطب سبط ابن الجوزيّ الوعظيّة،وخطب ابن نجا،والخطب الحربيّة وخطب التأبين والمدح والثّناء. وما ذكرته لا يعني خلوّ هذه الخطب من المحسّنات البديعيّة بشكل كامل،وعدم وجود اللّمسات البيانيّة الفنّيّة واللغويّة الدّالّة على فصاحة ملقيها.

7. التّأنّق في اختيار الألفاظ والعبارات،فالخطيب ينثر كنانته؛ ليختار أجود ما عنده من لفظ،والاستشهاد بالشعر الّذي قد يطول خصوصا في خطب الوعّاظ([1]).

وبعد استعراض أهمّ الموضوعات المتعلّقة بالخطابة في العصر الأيُّوبي، وأهمّ الخطب الّتي قيلت في ذلك العصر– على حدِّ علم الباحث– والسّمات الفنّيّة لها في هذا العصر، ينطلق الباحث لبحث فنّ الخطابة في العصر المملوكي الأوّل، وسيعرض لها متبعا النّهج نفسه الّذي سلكه في العرض للخطابة في العصر الأيُّوبيّ، آملا أن يكون في ذلك مزيد من تسليط الضوء على السّمات الفنّيّة والأدبيّة لهذا الفنّ في العصرين.

([1]) أحمد بدوي،الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصّليبيّة بمصر والشّام ص387.

الفصل الرابع
الخطابة في العصر المملوكي

المبحث الأول: عوامل ازدهار الخطابة في العصر المملوكي ودواعيها.

المبحث الثاني: أشهر خطباء هذا العصر.

المبحث الثالث: ألوانها ونماذج من خطب هذا العصر.

المبحث الرابع: السّمات الفنّية للخطابة في هذا العصر

المبحث الأول: عوامل ازدهار الخطابة في العصر المملوكي ودواعيها

واصل المماليك مسيرة أسلافهم الأيُّوبيِّين في الدّفاع عن بلاد المسلمين أمام الهجمات البربريّة المتتابعة من قبل التّتار والصّليبيّين، فكان الانتصار على التّتار في عدّة معارك أشهرها عين جالوت سنة 658هـ وشقحب سنة 702هـ كما بينّا سابقا عند الحديث عن المرحلة التّاريخيّة من هذا البحث، كما تمّ الانتصار على الصّليبيّين وكسرهم في معركة المنصورة سنة 648هـ بقيادة الظاهر بيبرس في نهاية عصر الأيُّوبيِّين وبداية عصر المماليك حسب ما تمّ بحثه في المرحلة التّاريخيّة، وكان لهم الشّرف العظيم في إخراج الصّليبيِّين من مدينة عكّا في فلسطين على يد الأشرف خليل قلاوون سنة 690هـ، وقد كان آخر حصن لهم على السّاحل الفلسطيني، وتمّ فتح بقيّة المدن السّاحليّة نحو صور وبيروت وصيدا في السّنة نفسها([1])، إلى غير ذلك من الفتوحات الّتي تحقّقت في عهدهم.

وكانت كلُّ هذه الأحداث وغيرها بمثابة منابع إلهام لقرائح الخطباء لتجود بالبيان الملهب لعواطف الجيوش والقادة؛ فأوّل ما يطالعنا الخطبة الّتي قرئت على منابر القاهرة في معركة المنصورة سنة 648هـ، والّتي كان لها الأثرالعظيم في إلهاب مشاعر المسلمين وتحفيزهم على التّصدّي لجموع الصّليّبيين وإيقاع الهزيمة بهم، (وارتجّت الْقَاهِرَة ومصر لِكَثْرَة انزعاج النَّاس وحركتهم للمسير)([2])،كما أنّ خطبتي السّلطان قطز([3]) في الأمراء قبل معركة عين جالوت سنة 658هـ لعبتا دورا كبيرا في استنهاض الهمم وبثّ العزيمة في النُّفوس وكان لهما الأثر الكبير في الهزيمة السّاحقة الّتي تعرّض لها التّتار. وقد كان لابن تيميّة(ت728هـ) مواقف خطابيّة عظيمة في معركة شقحب سنة 702هـ وقبل معركة شقحب أمام السلطان النّاصر محمد بن قلاوون([4])، ما كان له الأثر الكبير في انكسار التّتار في هذه المعركة. هذا ويروي المقريزيّ أنّ الفقهاء والأمراء والحجّاب طافوا على العسكر لوعظهم ورفع الروح المعنويّة لديهم قبل وقعة قازان سنة 669هـ (حتى كثر البكاء) ([5]). ويروى عن الملك الأشرف خليل أنّه لمّا أراد المسير

([1]) انظر: أبو الفداء ابن كثير، المختصر في تارخ البشر 24/4.

([2]) انظر:المقريزي، السلوك 1/|446. ويقال إنّ هذ الخطبة كانت من تأليف البهاء زهير انظر: قاسم عبده وعلي السيّد، الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكريّ ص108.

([3]) انظر: ابن دقماق، صارم الدّين إبراهيم(1999هـ).نزهة الأنام في تاريخ الإسلام.ط1،بيروت: المكتبة العصرية ص262-263، والسلوك 515/1. وسيعرضهما الباحث في مبحث الخطابة الحربيّة،

([4]) انظر: ابن كثير،البداية والنهاية 23/18، 738/17.

([5]) انظر:المقريزي، السلوك 320/2، ابن كثير،البداية والنهاية 718/17، ووقعت المعركة في وادي الخزندار بالقرب من حماة.

إلى عكّا سنة 690هـ (أَمر فَجمع الْعلمَاء والقضاة والأعيان والقرّاء...فِي لَيْلَة الْجُمُعَة،وَتصدق بجملة كَبِيرَة من المَال والكساوى، وَفرّق على الْقُرَّاء والفقراء مَالا كثيرا، وَفرّق فِي أهل الْمدَارِس والزوايا والخوانك والربط مَالا وثياباً)(1)؛ وذلك تبرُّكا بدعائهم، وللعمل على رفع الرُّوح المعنويّة لجنوده.

وما سقناه من حوادث، يشير إلى أنّ ما ساهم في ازدهار الخطابة الحربيّة والدّينيّة في العصر الأيُّوبيّ من عوامل قد توافرت في العصر المملوكي أيضًا، وهذا مدعاة لازدهار الخطابة الحربيّة والدّينيّة في هذا العصر؛ وخطب قطز وابن تيميّة وابن المنير(2)والشِّهاب محمود(3) الحربيّة لا زالت شاهدة على الدّور الكبير الّذي اضطلعت به الخطابة في توجيه دفّة المعارك نحو النّصر والسُّؤدد، هذا مع دور الخطب الّتي لم تصلنا في هذا السّياق.

وقد بلغ من اهتمام السّلاطين المماليك بالخطابة أنّ السُّلطان النّاصر محمّد بن قلاوون لمّا بنى جامع القلعة(جلس فيه بنفسه، واستدعى جميع المؤذِّنين بالقاهرة ومصر وسائر الخطباء والقرّاء، وأمر الخطباء فخطب كلٌّ منهم بين يديه وقام المؤذّنون فأذّنوا وقرأ القُرَّاء، فاختار الخطيب جمال الدِّين محمّد بن محمّد الحسن القسطلانيّ خطيب جامع عمرو وجعله خطيبا بهذا الجامع...)(4)، والشّاهد في هذا النّص هو اهتمام السّلاطين المماليك بعمليّة الاختيار الدّقيق للخطيب الّذي يولُّونه منصب الخطابة خصوصا في المساجد الجامعة، ممّا ينعكس إيجابا على العناية بالخطابة والتّنافس الحثيث بين الخطباء في ميداني الفصاحة والبلاغة وإظهار البراعة في فنون الخطاب، فلنا أن نتصوّر هذا المهرجان الخطابيّ البهيج الّذي يسعى الجميع فيه إلى إحراز قدم السّبق في هذا المجال،ومدى مساهمته في تطوّر هذا الفنّ ورقِيِّه.

وجلال العطاري يرى أنّه (لم يكن للخطابة في العصر المملوكي الأوّل ذلك التّأثير الجماهيريّ الّذي كان لها في عصور سابقة،وخاصّة الخطابة السّياسيّة...)(5)، والباحث قد يتّفق

---

(1) انظر: المقريزي، السلوك 223/2. ويروي ابن إياس أنّ شرف الدين البوصيري كان قد رأى رؤية سنة 689هـ تبشِّر بفتح الملك الأشرف خليل بن قلاوون لعكّا، فلمّا أفاق أخبر أصحابه. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور ص104.

(2) انظر:الذهبي،تاريخ الإسلام 491/15، اليونيني،ذيل مرآة الزمان 206/4-210.

(3) انظر: النويري،نهاية الأرب 236/6-239.

(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطب والآثار 137/4.

(5) العطاري،جلال يوسف(1995م).النثر الفنِّي في العصر المملوكي الأوّل.(رسالة دكتوراة)،الجامعة الأردنيّة،عمان،لأردنّ، ص173.

إلى حدٍّ كبير معه بشأن الخطابة السّياسيّة([1])؛ إذْ لم تصلنا خطبة سياسيّة واحدة ألقاها سلطان من سلاطنة المماليك إلّا خطب السّلطان قطز الّتي سأذكرها في مبحث الخطابة الحربيّة، على الرّغم من ضلوع بعضهم في مجالي اللغة والأدب كالأشرف خليل بن قلاوون([2])،والعطّاري يرجع ذلك إلى عدم الكفاية اللُّغويّة لتحبير مثل تلك الخطب،وعدم اهتمامهم بأن يكون لحكمهم قاعدة شعبيّة يستمدُّون منها الشرعيّة،وإنّما يكون ذلك بقدر قوّة الحاكم وقوّة مماليكه؛فهم ليسوا مطالبين بتبرير أحكامهم وسلوكاتهم،بل ليس عليهم إلّا إصدار الأوامر، وعلى الآخرين تنفيذها؛فلذلك فقدت الخطابة السِّياسيّة دواعيها، وحلّت مكانها في الأهميّة الرسائل الّتي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء، بلسان السُّلطان أو من ينوب عنه([3]).

والباحث على الرّغم من اتّفاقه إلى حدٍّ كبير مع العطّاري في أنّ الخطابة السّياسيّة لم تحظ بالاهتمام الّذي كان يولى لها في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ([4])، إلّا أنّها مورست من قبل الخلفاء العبّاسيّين الّذين سعى المماليك لكسب ودّهم، وحرصوا على أن يبارك الخليفة سلطنتهم وحكمهم كما سنبيّن ذلك عند الحديث عن الخطابة السّياسيّة خاصّة فيما يتعلّق بخطابة الخلفاء العبّاسيّين إبّان العصر المملوكي الأوّل، ولو لم يعبأ السّلاطين المماليك برأي الشّعب لما حفلوا بمجالس المبايعة الّتي كانوا يقيمونها من أجل الحصول على مباركة رسميّة–ولو كانت صوريّة– من قبل الخليفة الّذي يمنحهم الشّرعيّة في الحكم أمام الشّعب،خصوصا بعد الصّدمة العنيفة الّتي تعرّضوا إليها من قبل العزّ بن عبد السّلام والّذي أجبرهم تحت الضّغط الشّعبيّ على أن يقوموا بتحرير أنفسهم وشرائها حتّى يفتى بشرعيّة ملكهم وسلطنتهم، وقد قام بصرف أثمانهم في وجوه الخير([5]). وما يدلُّ على اعتداد سلاطين المماليك بالشّعب وخشيتهم من سطوته ما رُوِي عن الظاهر بيبرس عندما شاهد جنازة العزِّ بن عبد السّلام تمرُّ من تحت القلعة أنّه قال لبعض خواصِّه:(اليوم استقرّ أمري في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع

([1]) وهذا ما يميل إليه محمّد زغلول سلام إذ يقول: (لم تعد الخطابة في هذا العصر سياسية تنطق بلسان الأحزاب أو فرق لها اتجاهاتها وعقائدها السّياسيّة والمذهبيّة...) انظر: محمد سلام، الأدب في العصر المملوكي 11/2.

([2]) يذكر ابن إياس في بدائع الزُّهور نقلا عن القاضي محيي الدّين ابن عبد الظاهر قوله" ما رأيْت ولا سمعت بأحسن من فهم الملك الأشرف بن خليل...، بل كان يخرج علينا أشياء كثيرة في صنعة التّوقيع ونرى فيها الصّواب منه). انظر: ابن إياس، بدائع الزهورص107.

([3]) انظر:العطاري،النثر الفنّي في العصر المملوكي الأوّل ص173.

([4])وهذا ما وصل إليه الباحث بالنّسبة للخطابة السّياسيّة في العصر الأيُوبيّ، وأشار إلى ذلك في مبحث"ألوان الخطابة في العصر الأيوبيّ" عند الكلام عن الخطابة السّياسيّة.

([5]) انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 217/8، والحادثة بتفاصيلها مذكورة هناك،وقد أشار الباحث إليها وإلى فتوى ابن دقيق العيد في مبحث " الحياة العلميّة والأدبيّة في العصر المملوكي الأوّل"

الملك منّي)([1])، وفي ذلك دلالة أيضا على مستوى التّأثير الرسميّ والشّعبيّ الّذي كان يحظى به العلماء في ذلك العصر، الأمر الّذي أدّى إلى حرص المماليك على استمالتهم وإرضائهم.

وفي حرص الأمراء المماليك على استصدار فتاوى من العلماء الكبار في المسائل الّتي تتعلّق بالمساسس بأموال الشّعب، وإثقال كواهلهم بضرائب إضافيّة لدليل قويّ على أنّهم مطالبون بتبرير سياساتهم أمام الشّعب؛ فقد طلب السّلطان قطز من العزّ ابن عبد السّلام فتوى تمنحه الحقّ في أن يأخذ من النّاس ما يستعين به على جهاد التّتار، فما كان من العزّ ابن عبد السلام إلاّ أن أفتاه بالجواز بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء، وأن يبيع الجند والأمراء ما في أيديهم من آلات مذهّبة([2])، وتتكرّر الحادثة نفسها مع الشّيخ ابن دقيق العيد ويطلب منه فتوى تجيز الأخذ من أموال الرّعيّة لمواجهة التتار، وذلك في عهد السلطان النّاصر محمد بن قلاوون سنة 699هــ،ويحتجُّ عليه بفتوى ابن عبد السّلام إلّا أنّه أجاب قائلا:(لم يكْتب ابْن عبد السَّلَام للْملك المظفر قطز حَتَّى أحضر سَائِر الْأُمَرَاء مَا فِي ملكهم من ذهب وَفِضة وحلي نِسَائِهِم وَأَوْلَادهمْ ورآه، وَحلف كل مِنْهُم إِنَّه لَا يملك سوى هَذَا...)([3])،والموقف نفسه يحدث في آخر سلطنة الظاهر بيبرس سنة 667هــ عندما حصل على الفتاوى من العلماء بجواز أخذ مال من الرّعيّة يستنصر به على قتالهم، إلّا ما كان من الإمام النّوويّ في الامتناع عن إعطاء الفتوى، وعندما سئل عن سبب امتناعه قال:(أنا أعرف أنك كنت في الرقّ للأمير بندقدار، وليس لك مال، ثمّ منّ الله عليك، وجعلك ملكًا، وسمعت أنّ عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكلّ جارية حقٌّ من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله...، أفتيتك بأخذ المال من الرعية. فغضب الظّاهر من كلامه، وقال: اخرج من بلدي -يعني دمشق- فقال: السّمع والطاعة! وخرج إلى نوى، فقال الفقهاء: إنّ هذا من كبار علمائنا وصلحائنا، وممن يقتدى به، فأعده إلى دمشق، فرسم برجوعه فامتنع الشيخ)([4]).

وكلّ هذه المواقف تبيّن حرص السّلاطين المماليك على الاستناد إلى رأي العلماء الكبار الّذين يحظون بثقل جماهيريّ يمكن أن يؤثّر في تغيير المعادلة السِّياسيّة، أو على الأقل إحداث اختلال في ميزان البعد الشّعبيّ الّذي كان المماليك يحرصون عليه كلّ الحرص،وما تراجع الظّاهر بيبرس عن قراره بإخراج الإمام النّوويّ من دمشق وإصدار مرسوم بإعادته إلّا خشية

([1]) انظر: المصدرالسابق 215/8، وكما نعرف فالعزّ بن عبد السّلام كان من العلماء الّذين عاشوا في العصرين.

[2] قد ذكر الباحث هذه الفتوى بتمامها في مبحث " أشهر خطباء العصر الأيُّوبيّ" عند عرض ترجمة ابن عبد السلام في الهامش، وهي في: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 73/7.

[3] انظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك 327/2.

[4] السيوطي، حسن المحاضرة 147/3.

من اعتراض الشّعب وربما ثورته، لا سيِّما بعدما سمع من العلماء أنّ الإمام النّوويّ هو ممّن يقتدى به؛ أي من الشّخصيّات المؤثِّرة ذات القبول الواسع بين فئات الشّعب المختلفة.

وهكذا كان المماليك يحرصون على الظُّهور بأنّهم حكّامٌ شرعيُّون أمام الشَّعب، يستندون إلى فتاوى كبار العلماء في تحرُّكاتهم، ويستمدُّون شرعيّة استمرارهم في الحكم من بيعة الخليفة العبّاسيّ لهم ومباركته لحكمهم؛ فإرضاء الشّعب مطلب أساسيٌّ لديهم. والحقُّ يقال بأنّ أكثر ما أكسب المماليك الشّرعيّة الشّعبيّة هو ما قاموا به من دفاع عن أعراض المسلمين وبلادهم في بلاد الشّام ومصر، وما حقّقوه من انتصارات عظيمة تتوّجت بإخراج الصّليبيِّين من السّاحل بفتح عكّا سنة 690هـ وفتوح السّاحل الّتي تلته،وكسر التّتار في معركة شقحب سنة702هـ.

أمّا بالنِّسبة لعدم ممارستهم الخطابة بأنفسهم وعدم رسوخ قدمهم في الفنون الأدبيّة بشكل عام على غرار ما كان عليه سلفهم من الأيُّوبيِّين([1])؛ فيتفق الباحث في أنّ أصولهم الأعجميّة كان لها أثر في ذلك، إلّا أنّ نشأتهم العسكريّة والهدف الّمتوخّى من تربيتهم كان إنشاء قوّة عسكريّة خاصّة ذات مهارات قتالية متطوِّرة تساهم في حماية الدّولة من الأخطار الخارجيّة المحدقة بها،والحفاظ على الأمن الدّاخليّ بوأد الفتن وقمع الإنقلابات الّتي تهدف للإطاحة بنظام الحكم، ماحتّم عليهم تكريس معظم أوقاتهم لهذا الهدف، كما أنّ الطّريقة الّتي تلقُّوا فيها التّربية الدِّينيّة بالطِّباق على أيدي العلماء جعلتهم يكنُّون الاحترام الشّديد لمشايخهم وعلمائهم ولا يتقدّمون عليهم في مجالس الخطابة والوعظ توقيرا وتبجيلا لهم([2])، فضلا عن أنّ السّياسة تقتضي وجود متكلِّمين فصحاء من أبناء جلدة المتلقِّين ذوي صبغة دينيّة وبعدٍ شعبيّ متجذّر للنّطق باسم السُّلطان في المحافل الخاصّة والعامّة؛ ممّا يجعل الخطاب أدعى للقبول وأدخل للقلوب.

أمّا محمود رزق فيرى أنّه (لم تكن هناك عوامل تسمح بنشاط الخطابة، لضعف القدرة عليها وقِلّة المستجيب لها)([3])، وأظنُّه يقصد في ذلك العصر المملوكي الثّاني؛ لأنّه يدمج في دراسته بين العصرين. أمّا العصر المملوكي الأوّل فيعتبر فترة نضج الدّولة الأيّوبيّة؛(فإذا كان العصر الأيُّوبيّ يعتبر الفترة التّمهيديّة، فإنّ الدّولة المملوكيّة الأولى(البحريّة)تعتبر فترة النّضج والنّموّ، على حين تعتبر الدّولة المملوكيّة الثّانية(الجراكسة) بمثابة فترة الأفول والتّدهور...)([4]).

والباحث يرى في اختيار السّلطان النّاصر محمّد خطيبا لمسجده في المهرجان الخطابيّ الّذي عقده في المسجد دليلا قويًّا على استجابة سلاطين المماليك للخطابة واستيعابهم العميق لمعانيها الفصيحة ولأساليبها الدّقيقة،وشهادة الكاتب محيي الدّين بن عبد الظّاهر آنفة الذكر

([1]) أشار الباحث إلى ذلك في مبحث " الحياة العلميّة والأدبيّة في العصر المملوكيّ"

([2]) وذلك على عادة العجم في توقيرهم الشّديد لمشايخهم من العرب وعدم التقدُّم عليهم.

([3]) سليم، محمود رزق(1957م). الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيّين والعصر الحديث.(د.ط)، مصر:مطابع دار الكتاب العربي ص22.

([4])عاشور،فايد حماد(1995م).الجهاد الإسلاميّ ضدّ الصّليبيّين والمغول في العصر المملوكي.ط1،لبنان جروس برس ص3.

للأشرف خليل([1]) لا تدعم ما ذهب إليه محمود رزق.أمّا فيما يتعلّق بالعوامل الّتي عملت على نشاط الخطابة، فيرى الباحث أنّها تتشابه إلى حدٍّ كبير مع العوامل الّتي لعبت دورا كبيرا في تطوُّر الخطابة في العصر الأيُّوبيّ، والّتي سيتمُّ ذكرها في هذا المبحث.

والعطّاري يرى أنّ (هذا العصر كان عصر حروب، كثر فيه أعداء الأمّة، الطّامعون في افتراسها، ممّا يوحي بإمكانيّة ازدهار الخطابة...،إلّا أنّ هذا العامل فقد قوّته وتأثيره؛ إذ كان للدّولة جندها الخاصّ، وجيشها المتحفِّز للقتال...، وكان جُلُّ هذا الجيش من المماليك، وقلّما استعان السّلاطين بعامّة الشّعب، إلّا في المواقف الّتي تتطلّب التّعبئة العامّة...، وبالإضافة إلى ما تقدّم، فقد استعان السلاطين بكبار المشايخ والقضاة في ذلك الوقت لإصدار فتاوى عامّة، أو توجيه رسائل تحفيزيّة للأمّة...،ومن هنا، فقد قلّ الاعتماد على الخطابة في الحضّ والحثِّ على الجهاد أيضا...)([2])، والباحث يرى أنّ هذا الكلام فيه تعميم ويحتاج إلى التّدليل؛ فهل الخطبتان الحربيّتان اللّتان ألقاهما السُّلطان قطز إلّا استجابة للظروف العسكريّة القاسية الّتي كان يعاني منها المسلمون نتيجة للهجوم التّتري الكاسح؟! وهل استنفار الشّيخ تقيّ الدين ابن تيميّة للّسلطان النّاصر محمد بن قلاوون وحضّه على استنقاذ الشّام من أيدي التّتار، ووقوفه بثبات في المعركة خطيبا في الجنود والأمراء والعامّة إلّا نتيجة للظُّروف الحربيّة الطّارئة؟ ألا يحتاج الجيش للوعظ والتّذكير بالله وبفضل الجهاد والجنّة؟ إذا فماذا كان يفعل الوعّاظ والقضاة والعلماء الّذين كان يطوفون على الجيش حتّى كثر البكاء في عام 699هـ قبل معركة "وادي الخزندار"([3]) كما ذكرنا في بداية هذا المبحث؟ ألم يكن للدّول السابقة جيش خاصّ يتمُّ رفده بالحشد الشّعبيّ([4]) خلال الملمّات؟ أم أنّ هذا الأمر كان محصورا في الدّولة المملوكيّة؟! وهل اقتصر دور العلماء على إصدار الفتاوى وكتابة الرّسائل دون ممارسة الخطابة والوعظ والتّحريض على الجهاد، بل والمشاركة فيه بأنفسهم؟ وكيف نفسرما قام به الخليفة العبّاسيّ في معركة شقحب من الخطابة في الجنود وتحريضهم على القتال إلا باحتفاظ الخطابة بأهميّتها الملحّة في المواقف الحربيّة

([1])ذكرت في هامش الصفحة الثالثة من هذا المبحث.

([2]) العطاري، النثر الفنِّي في العصر المملوكي الأوّل ص173.

([3]) وادٍ بالقرب من سلمية من أعمال حماة، وقد حدثت فيه معركة فاصلة سنة 699هـ أشرنا إليها في بداية هذا المبحث، وكسرت فيها جيوش المسلمين بقيادة الناصر محمّد. انظر: المقريزي، السلوك 319/2.

([4]) والحوادث الّتي تدلّ على مشاركة عامّة المسلمين في الحرب زمن المماليك كثيرة، منها معركة المنصورة سنة 648هـ، ومعركة خاضها السلطان المنصور قلاوون سنة 680هـ ضد التتار في دمشق(النجوم الزاهرة 346/2)،ومعركة شقحب سنة 702هـ حيث يذكر أبو الفداء في تاريخه أنّ التّتر الهاربين من المعركة تخطّفتهم القبائل العربيّة قرب الفرات(أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر 49/4)، كما أنّ ابن كثير يذكر في حوادث معركة شقحب أنّه(نودي في الناس: من كانت نيته الجهاد فليلحق بالجيش؛ فقد اقترب وصول التتار). انظر: ابن كثير، البداية والنهاية 738/17، وكذلك يروي ابن كثيرفي فتح عكا حيث يقول:(.ونودي في دمشق: الغزاة في سبيل الله إلى عكّا،وخرجت العامّة والمطوعة...، حتى الفقهاء والمدرسون والصّلحاء،وخرج النّاس من كلّ صوب)633/17.

الفاصلة؛إذ يبيّن بدر الدّين العينيّ في روايته لأحداث هذه المعركة أنّ الخليفة العباسيّ المستكفي ابن أبي العبّاس أحمد كان إلى جانب السّلطان(ومعهما الْقُرَّاء يَتلون الْقُرْآن ويحثون على الْجِهَاد ويشوقون إِلَى الْجنَّة وَصَارَ السُّلْطَان يقف وَيَقُول الْخَلِيفَة: يَا مجاهدون لَا تنظروا لسلطانكم قَاتلُوا عن حريمكم وعَلى دين نَبِيكُم صلى اله عَلَيْهِ وَسلم وَالنَّاس فِي بكاء شَدِيد)([1])، فكان رفع المعنويّات والاستبسال في القتال، وأنجز الله وعده بالنّصروالتّمكين؛ لصدقهم ولجوئهم إليه.

والباحث يرى أنّ تصوير هذا العصر بأنّه عصر انحطاط وتراجع علميّ، وبالتّالي فتور الخطابة وتراجعها يناقض ما تناوله الباحث بالعرض والتفنيد خلال الحديث عن "الحياة العلميّة والأدبيّة في العصرين" في الفصل الأول من هذه الدّراسة.

وما يتعجّب له الباحث هو قيام أحمد بدوي بمقارنة الخطب الّتي وصلتنا في العصرين الأيّوبيّ والمملوكي الأوّل مع خطبة البابا الّتي أشرت إليها في بداية الحديث عن الحروب الصّليبيّة، وخطبة أخرى بعد أن سقطت الرّها بأيدي المسلمين، ويقرُّ بأنّ خطب الصّليبيِّين هي أجود وأحسن بالمقارنة مع خطبنا الّتي يعتريها الضّعف([2]). والباحث يرى أنّ الدِّعايات المغرضة حول هذين العصرين قد آتت أكلها –وللأسف–عند بعض الباحثين.

وبالإضافة إلى ما ذكرنا من العوامل والظّروف الّتي عملت على وجود فنّ الخطابة وازدهاره في كثير من المجالات في العصر المملوكي والّتي تشابهت مع ما ذكرناه في العصر الأيّوبي، يرى الباحث([3]) أنّ معظم العوامل الأخرى تتشابه إلى حدٍّ كبير مع ما ذكرنا من عوامل ودواعٍ أسهمت في تطوُّر الخطابة في العصر الأيُّوبي؛ فالنّهضة العلميّة كانت لا تزال في أوجها بل ازدادت في هذا العصر؛ بسبب الاستقرار النّسبي الّذي وفّره المماليك في القاهرة ودمشق بعد دحر الصّليبيّين والتّتار من مصر والشّام، والّذي بدوره دفع الكثير من العلماء للاستقرار فيهما، كما أنّ هذا العصر شهد نشاطا أوسع في بناء المساجد والمدارس والزوايا والخانكاهات والرُّبط([4])، والّتي كانت تشهد نشاطا علميّا تدريسيّا ووعظيًا ساهم في تمتين دعائم الخطابة وإرفاد المجتمع بالكثيرين ممّن برعوا في هذا الفنّ،ما أدّى إلى ازدهار الخطابة التدريسية وخطابة المناظرات. ولقد بلغ النّثر شأوا عظيما خصوصا على يدي الكاتبين الكبيرين: محيي

([1]) العيني، عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك) 418/1، المقريزي،السلوك 356/2.

([2]) انظر: أحمد بدوي،الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصّليبيّة في مصر والشّام ص401.

([3]) كما قرّرت سابقا في هذا المبحث.

([4]) انظر:المقريزيّ، الخطط والآثار 199/4–317، وبمقارنة بسيطة نجد أنّ مجموع ما بني من هذه الأماكن في العصر المملوكي يفوق ما بني منها في العصر الأيُّوبيّ.

الدّين بن عبد الظاهر (ت692هـ)([1])، وشهاب الدِّين محمود(ت725هـ)([2])؛ فقد كانا شيخي أهل التّرسُّل في العصر المملوكي الأول، وقد أورد القلقشنديّ لمحيي الدِّين بن عبد الظّاهر خطبة صداق([3])من إنشائه، كما أورد النّويري خطبة لرامي النّشّاب من إنشاء الشّهاب محمود([4]) والّتي سيقوم الباحث بتحليلها في الفصل القادم.

هذا وقد حظي العلماء والفقهاء عند سلاطين المماليك، وكانت لهم الحرمة الوافرة وتقلّدوا مناصب رفيعة في الدّولة، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى؛ فابن إياس يطلق على العلماء لفظ المعمّمين ويقول: (وأمّا أرباب الوظائف من المعمّمين، فالقاضي محيي الدّين ابن فضل الله كاتب السرِّ الشّريف،والقاضي بهاء الدين بن الحلي ناظر الجيوش المنصورة...)([5])، وهذا يدلُّ على المكانة الرفيعة الّتي حظوا بها في الدّولة المملوكيّة. وقد كان للشّيخ تقيّ الدِّين بن تيميّة حرمة عظيمة لدى الأمراء والسّلطان النّاصر محمد؛ فقد خرج إلى العسكر والأمراء ونائب الشّام في المرج قبل معركة شُقحب(فثبّتهم وقوّى جأشهم، وطيّب قلوبهم، ووعدهم النصر والظّفر على الأعداء،... ثم عاد إلى دمشق، وقد سأله النّائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحثّ السّلطان على المجيء، فساق وراء السُّلطان..)([6])، فلولا المكانة العظيمة الّتي حظي بها لدى الأمراء والسّلطان لما لقيت نصائحه ومواعظه القبول لديهم، ولما انتدب من قبل نائب الشّام ليستحثّ خطى السُّلطان وجنده لنصرة أهل الشّام.

وقد نقل أصحاب التّراجم عن الكثير من أمراء المماليك أنّهم كانوا يُجلُّون العلماء ويعظّمونهم؛ فالأمير شيخو بن عبد الله النّاصري (ت758هـ) (كان يحب مجالسة العلماء ويجلّهم إلى الغاية، ويكرم أهل الصّلاح)([7])، والأمير سيف الدين الناصري السلاح دار"قجليس"(ت731هـ) كان(يحبّ العلماء ويؤثرهم،ويتعصّب لهم وينصرهم ويخلص بجاهه لهم المناصب...)([8])، والأمير بدر الدّين جنكلي بن محمّد المعروف ب"ابن البابا"(ت 746هـ) والّذي (كان ركناً من أركان المسلمين ينفع العلماء والصلحاء والفقراء بماله وجاهه)([9]).

([1])تأتي ترجمته في" الخطباء من الأعيان"

([2]) انظر: الأعلام 172/7، والباحث سيفرد له ترجمة خاصّة في مبحث "الخطباء من الأعيان"؛ لأنه مارس كتابة الخطب ببراعة.

([3])انظر: القلقشندي،صبح الاعشى 341/14.

([4])انظر: النويريّ، نهاية الأرب 200/6-203، والخطبة موجودة في: الحلبي،شهاب الدّين محمود(1880م). حسن التوسل إلى صناعة الترسّل.(د.ط)،مصر: المطبعة الوهبيّة.

([5]) ابن إياس، بدائع الزهور ص120.

([6]) ابن كثير، البداية والنهاية 737/17.

([7]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي 262/6.

([8]) الصّفدي، أعيان العصر 77/4.

([9]) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 144/10.

والموقف الّذي أشرنا إليه في بداية هذا المبحث من قيام الأشرف خليل بن قلاوون بجمع العلماء والفقهاء والأعيان وإكرامهم قبل فتح عكّا، يحمل في طيّاته الكثير من الدّلائل على مكانة العلماء والفقهاء المتقدِّمة لدى سلاطنة المماليك في ذلك العصر.

وبالإضافة إلى الظروف السّياسيّة والعسكريّة والعلميّة الّتي عملت على ازدهار الخطابة الحربيّة والدّينيّة والعلميّة،وخطابة المناظرات والمدح والثناء؛فقد لعب الاستقرار النسبي الّذي ساد القاهرة ودمشق في تطوُّر الخطابة الاجتماعيّة، خاصّة في النِّصف الثّاني لعهد المماليك البحريّة؛ فقد تحوّل المماليك من مجرّد قوّة تقوم بالدّفاع والمقاومة إلى جيش ضارب يساهم في غزو الأعداء في عقر دارهم، ممّا حقِّق مزيدا من الاستقرار والرّخاء لحواضر بلاد الشّام ومصر،وبالتّالي مزيدا من الحرِّيّة لممارسة الخطابة الاجتماعيّة؛ فقد وصلنا عدد كبير من خطب الصّداق الّتي كانت تلقى في مناسبات الزّواج، فالقلقشنديّ وحده أورد سبع خطب من هذا القبيل([1])،فضلا عن خطب النّكاح الّتي وصلت إليها في المصادر الأخرى، هذا بالإضافة إلى خطب المناسبات الاجتماعيّة الأخرى نحو الختمات والموالد ومجالس التّأبين ورأس السّنة الهجريّة، والّتي سيعرض الباحث لما استطاع الوصول إليه منها في مبحث الخطابة الاجتماعيّة.

والخلاصة إنّ الخطابة احتفظت بدورها الرِّياديّ في هذا العصر؛ نظرا لتوفّر دواعيها كما كان الأمر في العصر الأيُّوبيّ، إلّا أنّ الخطابة السِّياسيّة لم تصب حظّا وافرا من الرّقيّ كما كانت عليه في العصور السّابقة.

وسيقوم الباحث في الصّفحات القادمة بعرض موجز لتراجم أشهر الخطباء في هذا العصر، مع الإشارة إلى الصّفات الّتي اشترطت في الخطباء آملا ان يكون في ذلك مزيدا من إلقاء الضّوء على شيوع الخطابة وأهميّتها في هذا العصر.

([1]) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى 14/341-361.

المبحث الثاني: أشهر خطباء هذا العصر

أوّلا: أهمّ الصّفات الّتي يجب أن يتحلّى بها الخطباء

ذكر كتّاب الدواوين في كتب التقاليد([1]) والتواقيع([2]) الموجّهة للخطباء، والتي تبيّن العديد من الصِّفات الّتي كان الخطباء يتّميّزون بها في ذلك العصر،بالإضافة إلى الصّفات الّتي يجب أن يتحلّوا بها. ومن ذلك توقيع بخطابة جامع قلعة الجبل من إنشاء الشِّهاب محمود حيث أنقل مقتطفات منه: (الحمد لله...اختار لإذكارنا بآلاء الله من فرسان المنابر من يجاهد الأعداء بدعائه...، وبعد فإن أولى المنابر أن يرتاد له من أئمة العلماء علامة عصره، ورحلة مصره وإمام وقته الذي يصدع بالحق وإن صدع وعالم زمانه الذي يقوم في كل مقام بما يناسبه مما يأخذ في الموعظة الحسنة...ويشوق عليه إلى الجهاد في سبيل الله...، وليعلم أن الموعظة إذا خرجت من الألسنة لم تعد الأسماع... وليجعل خطبه في كل وقت مناسبة لأحوال مستمعيها متناسبة في وضوح المقاصد بين إدراك من يعي غوامض الكلام ومن لا يعيها فخير الكلام ما قل ودل...، وليكن قد قدّم لنفسه قبل أن يتقدّم وليسبل عليه درع التوبة قبل أن يتكلّم...)([3]).

وقد ذكروا صفات أخرى كثيرة يطول المقام عن ذكرها، وأكثر ما لفت نظر الباحث هو التّركيز على الحثِّ على الجهاد في سبيل الله في هذا التوقيع؛مراعاة لمتطلّبات العصر وطبيعته، كما أنّ التمثُّل بما يقوله الخطيب، والصّدق في الخطابة والوعظ صفات مهمّة ركّز عليها هذا التّوقيع، والّتي تدلُّ بدورها على عدالة الخطيب واستقامة أخلاقه، وهي من أهمّ الصِّفات الّتي نشدها النّاس في الخطباء؛ فقد روى صاحب "عقد الجمان" اعتراض كبار العلماء والعامّة بقيادة ابن تيميّة على تولية القاضي صدر الدِّين بن المرحل خطابة الجامع الأمويّ، وعدم الاستماع إلى خطبته؛ لشربه الخمر وفسق في تصرّفاته، فما كان من نائب دمشق إلّا أن قام بعزله وعيّن شرف الدِّين الفزاريّ مكانه،ما أفضى إلى حالة من الرّضى والهدوء بين العلماء والعامّة([4]).وهذا يدلُّ على عظم منزلة الخطابة في ذلك العصر، ما يتطلّب تميّز فرسانها بصفات تجعلهم مؤهلين للقيام بها على أكمل وجه.

([1])جمع تقليد. يقال: قلّدته أمر كذا إذا ولّيته إيّاه. قال الجوهري: وهو مأخوذ من القلادة في العنق، انظر:القلقشندي،صبح الأعشى 101/11وهي بمثابة كتب التكليف السّامية في عصرنا.

([2])هو مصطلح كان يصرف لصناعة الإنشاء حسب إطلاق العامّة، وأما تسميتها بالتوقيع فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها، كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان... بما يعتمد في القضية التي رفعت القصّة بسببها، ثم أطلق على كتابة الإنشاء جملة. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى 83/1.

([3]) انظر: المصدر السابق 219/11–222، وانظر توقيعه لتقي الدِّين السبكي وزين الدِّين الفارقي 69/12–70،12/73.

([4])انظر: العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك) 444/1.

ثانيا: أهمُّ الخطباء الّذين تقلّدوا منصب الخطابة رسميًّا

1. **العزّ بن عبد السّلام:** فقد كان من الخطباء المخضرمين الّذين عايشوا العصرين الأيّوبيّ والمملوكيّ الأول وبرعوا في الخطابة فيهما،وقد بسطت ترجمته في العصر الأيّوبيّ.
2. **ابن المنير الاسكندرانيّ(620-683هـ)([1]):** أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن منصور بْن القاسم بْن مختار القاضي العلّامة ناصر الدّين ابن المنير الإسكندرانيّ. كَانَ مَعَ علومه لَهُ يدٌ طُولى فِي الأدب وفنونه، ولناصر الدّين " ديوان خُطب "، وقد ولي قضاء الإسكندرية وخطابتها مَرّتين، ودرّس بعدّة مدارس. وقيل إنّ الشيخ عزّ الدّين ابن عبد السّلام كان يقول:(ديار مصر تفتخر برجلين في طرفيها،ابن المنير بالإسكندريّة،وابن دقيق العيد بقوص)([2])، وله خطبة خطب بها لمّا ملك هولاكو الشّام سيوردها الباحث كنموذج على الخطابة الدّينيّة في هذا العصر([3]).
3. **شرف الدِّين الفزاريّ(630-705هـ)([4]):**أحمد بن إبراهيم بن سباع بن ضياءالإمام المقرئ النّحوي،الخطيب شرف الدّين الفزاري الشّافعي خطيب الجامع الأموي بدمشق([5])وهو الخطيب الّذي تمّ إرجاعه بعد اعتراض العامّة والعلماء على تولية الخطيب الفاسق صدر الدّين ابن المرحل([6])،كما أنّه العالم الّذي قام بقراءة صحيح البخاري على النّاس والقضاة والأعيان في المسجد أثناء حصار عكّا([7])؛فلابدّ أنّه كان يتمتّع بلهجة خطابيّة متميّزة،وبقبول عند النّاس لتسند إليه هذه المهمّة،ولم يصل الباحث إلى أيٍّ من خطبه.
4. **زين الدِّين الفارقي(633-703هـ)([8]):**عبد الله بن مروان بن عبد الله بن فيروالشيخ الإمام المحدث زين الدين الفارقي الشافعي، خطيب دمشق ومفتيها،وكانت فيه قوة للحق وكان فصيحاً في لفظه([9])،وقد خرج سنة 700هـ إلى مرج الصفر مع مجموعة من العلماء لحضّ الأمراء والجند على الثبات أمام التّتار([10])،ولم تورد لنا المصادر أيًّا من خطبه.

([1]) انظر ترجمته في: الذهبي، تاريخ الإسلام 490/15-491،اليونيني،ذيل مرآةالزمان209/4-210،ابن تغري بردي، المنهل الصّافي 186/2،الكتبي، فوات الوفيات149/1، الصفدي،الوافي بالوفيات 85/8،السيوطي،حسن المحاضرة 316/1.

([2])انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام 490/15.

([3]) انظر: المصدر السّابق 490/15، واليونيني، ذيل مرآة الزّمان 210/4.

([4])انظر ترجمته في:الصفدي،أعيان العصر161/1-164،النعيمي، الدارس 88/1

([5])الصفدي، أعيان العصر 161/1

([6])انظر "أهم الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الخطباء" من هذا المبحث، فالحاذثة مذكورة هناك.

([7]) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية 633/17.

([8])انظرترجمته في: الصفدي،صلاح الدِّين بن أيبك(1998م). أعيان العصر وأعوان النصر.ط1، بيروت: دار الفكر المعاصر733/2-734، ابن كثير،البداية والنهاية 30/14،الصفدي، الوافي بالوفيات 323/17، السبكي،طبقات الشافعية الكبرى 44/10.

([9])انظر: الصفدي،أعيان العصر733/2-734.

([10]) انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام 717/15.

5. **بدر الدِّين بن جماعة(639-733هـ)**([1]): محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة، الإمام العالم قاضي القضاة بدر الدين الحموي، كان إمام زمانه، وانتهت إليه رياسة الدّين والدّنيا،وجمع له مع القضاء الخطابة ومشيخة الشيوخ، وازداد نظر الأوقاف وغير ذلك،وكان يؤدّي الخطابة بفصاحة([2]) وكان يخطب من إنشائه([3])، ولم يتمكن الباحث من الوصول إلى أيٍّ من خطبه.
6. **علي بن داود(668-745هـ)**([4]): بن يحيى بن كامل بن يحيى بن جبارة... بن عبد الله بن الزبير بن العوام،الإمام العلامة الفقيه النّحوي الأديب،خطب بالجامع التنكزيّ، وتولّى التّدريس بالركنيّة والظاهريّة([5])،وهو شيخ الأدب وإمام ذو فنون([6])فارس منبر وغارس موعظة في قلب من برّ، شيخ أهل دمشق في عصره ([7])،وقد أورد له ابن فضل الله العمري العديد من الخطب الّتي سيتمُّ عرض بعضها في نماذج الخطب الدّينيّة والاجتماعيّة لهذا العصر.

والخطباء الّذين تقلّدوا منصب الخطابة رسميًّا كثر في هذا العصر؛لذلك سأشير إلى بعض الخطباء الآخرين الّذين اشتهروا في هذا العصر بشكل سريع وهم: الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر العوفي(ت 668هـ) ، حضر وقعة عين جالوت،وله ديوان خطب([8]) وابن عبد الدّايم الحنبلي أحمد بن نعمة أبو العبّاس المقدسيّ (ت668هـ)،ولي خطابة كفر بطنا وأنشأ خطبا عديدة([9])،والخطيب عبد الرحيم بن محمّد بن القزوينيّ الأصل، الدمشقيّ الدّار، تاج الدّين خطيب الجامع الأموي(ت749)، وكان من بيت مشهور بالعلم والخطابة([10])والقاضي الخطيب جمال الدّين التبريزيّ (ت740هـ) وعمل مجلدة في الخطب وسمها "بتحفة الألباء"([11]).

([1]) انظر ترجمته في: الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر. 208/4-213، الكتبي،فوات الوفيات 298/3،الصفدي، الوافي بالوفيات 15/2-17.
([2]) انظر: الصفدي، أعيان العصر208/4-213،
([3]) الكتبي،فوات الوفيات 298/3.
([4]) انظر ترجمته في: الصفدي، أعيان العصر 359/3، الذهبي،شمس الدين أبو عبد الله(د.ت).العبر في خبر من غبر.(د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية 135/4،ابن فضل الله العمري،مسالك الأبصار198/7-207.
([5]) الصفدي،أعيان العصر 3/.395.
([6])الذهبي،العبر قي خبر من غبر 135/4.
([7]) انظر:ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار198/7-199؟
([8]) الصفدي، الوافي بالوفيات 5/2
([9]) المصدر السابق 22/7-23.
([10]) المصدر السابق 59/3.
([11])الصفدي،الوافي بالوفيات 39/19، والصفدي يذكر أنّه قرأ ديوان خطبه عليه وحصل على إجازة بما يستطيع أن يرويه.

ثالثا: الخطباء من القادة والأعيان

أ. **(الخطباء من القادة)**

1. **السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزّي(ت658هــ)([1])**: الثالث من ملوك التّرك بالديار المصرية.تسلطن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك؛وذلك لصغر سنّه وتعاظم خطر التّتار،([2]) قاد النّصر الساحق للمسلمين على التّتارفي معركة "عين جالوت" سنة 568هــ كما أشرت إلى ذلك في المرحلة التّاريخيّة، كما أنّه خطب بالجيش قبل المعركة خطبتين سيتمُّ استعراضهما في الخطب الحربيّة.

2. **الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الإمام الظّاهر بن الإمام النّاصر(ت660هــ)([3])**: هو عمّ الخليفة المستعصم الّذي قتله هولاكو([4]).لما ملك الملك الظاهر وفد عليه([5])،وبويع بالخلافة سنة 659هــ([6])،وخطب خطبة بليغة ذكر فيها شرف بني العباس واستفتح وقرأ من سورة الأنعام([7])ودعا فيها للسّلطان وللمسلمين،ولم تذكر لنا المصادر هذه الخطبة.وهذا الخليفة جهّزه الملك الظاهر للعودة إلى العراق لجهاد التتار،فكانت وقعة بينه وبينهم هزم جيشه على إثرها ولم يعلم له خبر بعدها([8]).

3. **الخليفة الحاكم بأمر الله أبوالعبّاس أحمد...بن أمير المؤمنين المسترشد بالله(ت701هــ)(9)**: كان ممّن شهد الواقعة مع الخليفة المستنصر،ونجا من الموت وهرب([10])،واستدعاه الملك الظاهرو بايعه بالخلافة سنة 661هــ([11])،ولقب بالحاكم بأمر الله،وخطب في يوم الجمعة خطبة

([1]) انظر ترجمته في: الزركلي،الأعلام 201/5،ابن اياس،بدائع الزهور79،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 269/2

([2]) انظر:ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 269/2.

([3])انظر أخباره في: اليونيني،94/2-104،السيوطي، حسن المحاضرة 52/2-59،الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن(د.ت).تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار.(د.ط)،بيروت: دار الجيل

([4])السيوطي،حسن المحاضرة 52/2.

([5]) اليونيني،ذيل مرآة الزمان 94/2.

([6]) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية 426/17هــ.

([7]) الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار 31/1-32، اليونيني،ذيل مرآة الزمان97/2

([8])انظر: الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار 31/1.

([9]) انظر ترجمته في: السيوطي،حسن المحاضرة59/2-62،ابن تغري بر دي، النجوم الزاهرة 424/2،286،الجبرتي،تاريخ عجائب الآثار31/1.

([10]) السيوطي،حسن المحاضرة 59/2.

([11]) كان وصوله للقاهرة في أواخر سنة 659هــ، والبيعة تمّت سنة 661هــ حسب ابن واصل. انظر:ابن واصل،مفرج الكروب 350-351، وبيبرس المنصوري على أن وصوله والبيعة كانت سنة 659هــ، انظر:بيبرس المنصوري، مختار الأخبار ص16،وابن كثير والمقريزي وابن تغري بردي على أنّ وصوله سنة 660هــ وبيعته سنة 661هــ.ابن كثير، البداية

بليغة سيذكرها الباحث في الخطب السّياسيّة.ويذكر لنا السّيوطي أنّه خطب خطبة ثانية بسؤال الملك الأشرف له في ذلك،وذكر في خطبته توليته السّلطنة للملك الأشرف سنة 690هـ([1])،والعيني وابن كثير يذكران أنّ خطبة الخليفة في بيعة الملك الأشرف هي نفس الخطبة التي خطب بها في الدولة الظاهرية وكان بين الخطبتين 30 سنة وهي من إنشاء الشيخ شرف الدِّين المقدسي سنة 660هـ ([2])، وكان ذلك بعد رجوع الأشرف خليل من فتح عكّا، وجلال العطّاري يذكر أنّ العينيّ يورد هذه الخطبة في سلطنة الأشرف خليل بن قلاوون سنة 689هـ وأنّ ذلك على سبيل الخطأ، وقد ألبس على العينيّ في رأيه([3])، والحقيقة أنّه لم يكن هناك أيّ لبس عند العينيّ، والعيني يذكر خطبة الخليفة كاملة بعد بيعة الظاهر أي في حوادث سنة 661هـ([4])،وهي نفس الخطبة التي ذكرتها المصادر الأخرى، ويذكر له أجزاءً من خطبتين خطب بهما بعد تولّي الأشرف خليل الخلافة مباشرة أي سنة 689هـ([5])،والخطبتين كانتا في جمعتين متواليتين، والمرجّح أنّ الأشرف كان يريد منح نفسه صفة الشّرعيّة على عجل؛ لذلك أوعز إلى الخليفة بالخطبة له مباشرة بعد تولّيه الخلافة أي سنة 689هـ، فخطب الخليفة دون تحضير الخطبة الأولى في الجمعة الأولى وجاءت الخطبة قصيرة ولم يصل بالنّاس فصلّى خطيب المسجد، وفي الجمعة الثانية كانت الخطبة أطول لكنّها ليست نفس الخطبة الّتي أوردها للملك الظاهر([6])،وبعد أن تأكّدت سلطنته وحقّق النّصر على الصّليبيِّين في عكّا سنة 690هـ (رسم السلطان للخليفة الحاكم بأمر الله أن يخطب هو بنفسه النّاس يومئذ، وأن يذكر في خطبته أنه ولّى السّلطنة للأشرف خليل بن المنصور)([7])،وقد خطب حينئذ بنفس الخطبة الّتي خطبها للظّاهرسنة661هـ،وهي المقصودة في قول السيوطي:(وقد خطب بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة

والنهاية436،446/17،المقريزي،السلوك542،547/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 118/7، والسيوطي يقول:(واستمر بقية العام بلا مبايعة).السيوطي، حسن المحاضرة 59/2. والّذي يظهر للباحث أنّ ما حدث في أواخر سنة 659هـ أو في بداية سنة 660هـ على اختلاف المؤرّخين في ذلك كان استقبالا من الظاهر بيبرس للخليفة وإكراما له، وأنّ البيعة له كانت سنة 661هـ بعد أن ثبت نسب الخليفة وقرئت شجرة نسبه على الناس.انظر:ابن واصل، مفرج الكروب 351

([1]) السيوطي،حسن المحاضرة 61/2

([2])انظر: العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك)228/1هـ، ابن كثير،البداية والنهاية 636/17.

([3]) انظر: جلال العطاري،النثر الفنّي في العصر المملوكي الأوّل ص174.

([4]) انظر: المصدر السابق 90/1.

([5]) انظر: المصدر السابق 211/1-212

([6]) انظر: العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك)212/1،وسيذكر الباحث هذه الخطبة عند الحديث عن الخطب السياسيّة.

([7]) انظر: المصدر السابق 228/1.

رابع شوال سنة تسعين بسؤال الملك الأشرف له في ذلك، وذكر في خطبته توليته السلطنة للأشرف)([1])؛ ولذلك فإنّ العينيّ كان على صواب فيما ذهب إليه.

وقد خطب خطبة أخرى بعد خطبة البيعة في الرابع من ذي القعدة سنة690هـ عند قبر المنصور بعد ختمة للقرآن بحضور الأشرف خليل والقضاة وحضّ فيها على الجهاد وتحريرالعراق من التتار([2])،ومن ثمّ قام بإلقاء خطبة أخرى سنة 691هـ،وحثّ على الجهاد والنّفير، وذلك بعد فتح قلعة الروم([3])ويذكر العيني أنّ المنصور لاجين([4]) أفرج عن أبي العبّاس أحمد بعد أن كان ممنوعا من الخروج وذلك سنة 696هـ وخطب السّلطان يوم الجمعة خطبة بليغة([5])، وبالتّالي تكون عدد الخطب الّتي ذكرت لأبي العبّاس أحمد سبع خطب إحداها مكرّرة، وقد استطاع الباحث الوصول إلى ثلاث منها سيذكرها كنماذج على الخطابة السّياسيّة.

وبعد وفاة الحاكم أبو العباس أحمد سنة(701هـ) بويع بالخلافة ابنه المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم(ت741هـ)، وكانت خلافته بعهد من والده([6])،وهو الّذي شارك في معركة شقحب محرّضا المؤمنين على القتال([7]) واستمرّ في الخلافة إلى أن وافته المنيّة في منفاه في قوص، وعهد بالخلافة لابنه أبي العبّاس أحمد ابن المستكفي ابن أبي العبّاس أحمد(ت753هـ) الحاكم بأمر الله الثاني، حيث بويع بالخلافة سنة 742هـ، وخطب خطبة بليغة([8])،والسيوطي يورد جزءا من هذه الخطبة([9]) سيقوم الباحث بعرضها في الخطب السّياسيّة،وتوفّي أبو العباس أحمد الثّاني سنة 753هـ بالطّاعون،وتمّ اختيار أخيه أبي بكر المعتضد الّذي استمرّ بالخلافة حتّى سنة 763هـ([10])،ولم تذكر المصادر أيّ خطبة له.

([1]) انظر: السيوطي، حسن المحاضرة 111/2،61

([2])انظر: ابن كثير،البداية والنهاية 637/17، السيوطي، حسن المحاضرة111/2،61، العيني،عقد الجمان228/1.

([3]) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية 646/17،السيوطي،حسن المحاضرة 61/2.

([4])لاجين (المنصور) حسام الدين ابن عبد الله المنصوري(635 – 698هـ): من ملوك دولة المماليك البحرية بمصر والشام كان مملوكا للمنصور قلاوون. وتقدم إلى أن ولي نيابة السلطنة في أيام العادل " كتبغا " ثم خلع العادل وولي السلطنة (سنة 695 هـ) وتلقب بالملك المنصور.قتله بعض مماليك الأشرف.انظر: الأعلام 238/5.

([5]) انظر: العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك) 309/1.

([6]) انظر: السيوطي، حسن المحاضرة 62/2.

([7]) انظر: المقريزي، السلوك 356/2.

([8])انظر: الزركلي،الأعلام 133/1

([9])انظر: السيوطي،حسن المحاضرة 80/2.

([10]) المصدر السّابق 81/2.

ب. (الخطباء من الأعيان)

1. **(ابن بنت الأعزّ)** عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خليفة المصري الشافعي(ت695هـ)([1]):كان مناظرا بصيرا بالأحكام جيد العربية رئيسا شاعرا فصيحا، وتولى الخطابة بالجامع الأزهر وله خطب ونثر ونظم([2]).وكان وزيرا فقيها؛ فقد ولي الوزارة مع القضاء بمصر([3]). وكان بيده سبعة عشر منصبا منها:القضاء، والخطابة، ومشيخة الشيوخ، ([4])،ولم تسعفنا المصادر بذكر خطبه.
2. **(ابن عبد الظّاهر) عبد الله بن عبد الظاهر القاضي محيي الدين االسعدي المصري(620-692)**([5]):ولد ونشأ بالقاهرة،وتفقّه ومهر في الإنشاء والأدبيّات، كان شيخ أهل التّرسل، ومن سلك طريق الفاضلية في إنشائه([6])، كاتب الإنشاء بالديار المصرية، وأحد البلغاء المذكورين([7])،والباحث يورده هنا لأنه كان من منشئي خطب الصّداق،وله خطبة مكتوبة أوردها القلقشنديّ سيشير إليها الباحث في الخطب الاجتماعيّة.
3. **(الشِّهاب محمود) محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحنبلي الحلبي الدِّمشقيّ(644-725هـ)**([8]):هو الصّدر الكبير، العالم العلامة، شيخ صناعة الإنشاء، الذي لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله في صنعة الإنشاء، وله خصائل ليست للفاضل، من كثرة النّظم والقصائد المطوّلة الحسنة البليغة([9])، وَكَانَ يكْتب التّقاليد بِلَا مسوّدة بديهة، بَقِي فِي ديوَان الْإِنْشَاء نَحوا من خمسين سنة بِدِمَشْق ومصر([10])وتأدب على ابن مالك، ولازم الشّيخ مجد الدين ابن الظهير وسلك طريقته في النّظم وأربى عليه، وتقدم ببلاغته وبديع كتابته وإنشائه ([11]).ولي كِتَابَة السِّرّ بِدِمَشْق،وكَانَ مواظباً على التِّلَاوَة والأدعية والنوافل([12]). له تصانيف منها: "مقامة العشاق" و "حسن التوسل

([1]) انظر ترجمته في: الزركلي،الأعلام 315/3،الصفدي، الوافي 105/18-108، العيني، عقد الجمان228/1.

([2])الصفدي،الوافي بالوفيات106/18.

([3]) الزركلي،الأعلام315/3.

([4])العيني،عقد الجمان 228/1

([5])انظر ترجمته في: ابن تغري بردي،المنهل الصافي99/7،الكتبي،فوات الوفيات 179/2.السيوطي،حسن المحاضرة 570/1

([6])الكتبي،فوات الوفيات 179/2.

([7])السيوطي،حسن المحاضرة570/1.

([8])انظر ترجمته في:الزركلي،الأعلام172/7،النعيمي، الدارس184/2-185،الكتبي،فوات الوفيات82/4،ابن كثير،البداية والنهاية260/18، العسقلاني،الدرر الكامنة82/6-84.،ابن مفلح،إبراهيم بن محمد(1990هـ).المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد.ط1،الرياض: مكتبة الرشد،تح:عبد الرحمن العثيمين547/2.

([9])ابن كثير، البداية والنهاية260/18.

([10])ابن مفلح، المقصد الأرشد547/2.

([11])الكتبي،فوات الوفيات 82/4.

([12]) العسقلاني، الدرر الكامنة 82/6.

إلى صناعة الترسل"([1]).والباحث سيقوم بتحليل خطبة له مكتوبة في "رامي النّشّاب" هي من عيون خطب هذا العصر.

4. **(ابن قاضي العسكر) الحسين بن محمد بن الحسين العلوي(698-762هـ)**([2]): منشئ، ولي التوقيع بالقاهرة ونقابة الأشراف،له ديوان خطب سماه (المقال المحبر في مقام المنبر) على طريقة خطب ابن نباتة([3]).وكان كاتبا بارعا أديبا بليغا كتب الإنشاء بمصر وباشر كتابة السّر بحلب([4])، وخطب بالسلطان في جامع القلعة خطبة واحدة،و قال:أنشأت خطبا وخطبت ببعضها([5])،ولم يصل الباحث إلى أيٍّ من خطبه.

ومن الخطباء الأعيان الآخرين: عماد الدّين ابن الأثير إسماعيل بن أحمد بن سعيد الحلبي الكاتب(ت669هـ): ولي كتابة الدُّرج([6])، وكانت له رياسة،وله ديوان خُطب(7)، والخطيب عماد الدين ابن قاضي القضاة عماد الدين بن السكري(ت713هـ)،والّذي جهّز إلى التتر رسولا وأحسن السفارة([8])،و"ابن العفيف الكاتب"(ت736هـ)محمد بن محمد بن الحسن الكاتب له شعر وخطب وله حظ من النّحو([9])،وغيرهم الكثير ممن يطول المقام عن حصرهم.

ثالثا: الخطباء من العلماء والوعّاظ

1. **(ابن دقيق العيد)محمد بن وهب بن مطيع القشيري الشافعي(625-702)**([10]):المعروف بابن دقيق العيد،وهو من أكابر العلماء بالأصول([11])،وكان إماماً محدثاً أصولياً أديباً شاعراً نحوياً، مجتهداً، تفقه بأبيه وبالشيخ عز الدين ابن عبد السّلام([12]) وله مصنفات منها: "شرح العمدة"،وله

([1]) الزركلي، الأعلام 172/7.

([2])انظر ترجمته في: الزركلي، الأعلام256/2،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 10/11،الصفدي، الوافي بالوفيات33/13.

([3])الأعلام256/2.

([4])ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة10/11

([5])الصفدي، الوافي بالوفيات33/13.

([6])وصاحبها هو الذي يقوم بالإسكندرية مقام كاتب السرّ بالأبواب السلطانية في قراءة المكاتبة على النائب، وكتابة الأجوبة وما يجري مجرى ذلك.انظر: القلقشندي،صبح الأعشى417/11

([7])انظر ترجمته في: الصفدي، أعيان العصر498/1، الصفدي، الوافي بالوفيات56/9.

([8]) الصفدي، أعيان العصر 415/3.

([9])الصفدي،الوافي بالوفيات187/1.

([10]) انظر ترجمته في:السبكي،طبقات الشافعية الكبرى952/1،الكتبي،فوات الوفيات 343/3،السيوطي،حسن المحاضرة317/1-318،الصفدي،أعيان العصر، الاعلام 283/6،ابن قاضي شهبة،طبقات الشافعيّة 232/2.

([11])الزركلي، الأعلام283/6.

([12])الكتبي، فوات الوفيات343/3

"ديوان خطب مشهورة بليغة"،وشعر حسن([1]). وكان الشّيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: (الديار المصرية تفتخر برجلين في طرفيها: ابن دقيق العيد بقوص وابن المنير بالإسكندرية)([2]).ولم يعثر الباحث على أيّ خطبة لهذا العلامة على الرّغم من رسوخ قدمه في مجال الخطابة،إلّا أنّ فتواه الّتي أشرت إليها([3]) بشأن جواز أخذ المال من الرّعيّة من أجل مواجهة التّتار تعكس صورة عن أسلوبه الّذي يظهر فيه الاسترسال،وعدم الالتزام بالصّنعة اللّفظيّة الّتي تطغى على المعنى،شأنه في ذلك شأن شيخه العزّ بن عبد السّلام، وممّا يدعّم هذا الرأي موعظة كتبها لنائبه في اخميم الصّعيد،والّتي ذكرها الإمام السّيوطي([4])، والّتي يعلّق شوقي ضيف عليها قائلا: (ولعلّ في هذه القطعة ما يُصوّر وعظ ابن دقيق في خطبه، وأنّه كان يتدفّق فيه كالنيل العذب،ممّا جعل معاصريه يشيدون كثيرا برقائق وعظه وكلمه الّتي كان يخلب بها)([5])، وهذا يجعل الباحث يميل إلى استمرار مدرسة العزّ بن عبد الّسلام الأدبيّة في العصر المملوكي الّتي كانت تنفر من الإفراط في استخدام التنمُّق اللّفظي والمحسّنات البديعيّة، والّتي كان ابن دقيق العيد من أكبر روّادها.

2. **(ابن تيمية) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الدمشقيّ الحنبلي،تقي الدّين ابن تيمية(661-728هـ)(6):** وكان إمام عصره في الفقه والحديث والأصول والنحو واللغة وغير ذلك، وأثنى عليه جماعة من العلماء،جرت له محن في عدّة مسائل سجن على إثرها([7])،وجلس الشَّيْخ إِلَى السُّلْطَان مَحْمُود غازان، فَجَلَسَ إِلَيْهِ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى صَدره وواجهه، وَطلب مِنْهُ الدُّعَاء فَرفع يَدَيْهِ ودعا دُعَاء منصف أَكْثَره عَلَيْهِ وغازان يُؤمن على دُعَائِه، وسَافر ابْن تَيْمِية إِلى القاهرة سنة سَبْعمِائة وحض على الْجِهَاد([8])،وله خطبة أمام السّلطان النّاصر محمّد في هذا السّفر سيذكرها الباحث في باب الخطب السّياسيّة،كما أنّ له جزءا من خطبة في معركة شقحب سيذكرها الباحث في باب الخطابة الحربيّة، وسيذكر الباحث جزءا من مجالس محاكمته كمثال على خطب

([1])السيوطي،حسن المحاضرة 318/1،ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعيّة232/2

([2])المصدر السابق 316/1

([3])انظر: الصفحة الرابعة من مبحث(عوامل ازهار الخطابة في العصر المملوكي الأول)من هذه الرسالة.

([4]) انظر : السيوطي،حسسن المحاضرة 169/2.

([5]) شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات مصر)463/7.

([6])انظر ترجمته في: الزركلي،الأعلام 143/1-144،ابن مفلح، المقصد الأرشد132/1-139،ابن كثير،البداية والنهاية32/18،ابن الوردي،تاريخ ابن الوردي279/2،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة54/3.

([7])ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة54./3.

([8])ابن الوردي،تاريخ ابن الوردي 279/2.

المناظرات،وقد كان جريئا في الحقّ، وموقفه مع قازان أكبر دليل،وبالإضافة إلى ذلك كان متفنّنا في صنوف الكلام؛ فالشّيخ ابن دقيق العيد بعد أن رآه في القاهرة خلال سفره إلى السُّلطان النّاصر محمّد قال:(فَقَالَ هُوَ رجل حفظَة، فَقيل لَهُ: فَهَلا تَكَلَّمت مَعَه، فَقَالَ: هَذَا رجل يحب الْكَلَام وَأَنا أحب السُّكُوت)([1]). ومات معتقلا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان داعية إصلاح في الدين، فصيح اللسان، وناظر العلماء واستدل وبرع،وتصانيفه أكثر من أن تحصى([2])وهذا يدلّ على مهارته في فنون اللّغة والخطابة، وسرعة بديهته في الارتجال.وما وصل إلينا من مواعظ وخطب له يشير إلى استرسال في الخطاب، وانسياب في الكلام دون تكلُّف متفقًا في ذلك مع نهج ابن عبد السّلام في الوعظ والخطابة.

3. **عبد السّلام بن أحمد بن عساكر، عزّ الدّين أبو محمد الأنصاري المقدسيّ(ت678هــ)(3):** الواعظ، الشاعر الفصيح الذي ينسج على منوال ابن الجوزي وأمثاله، وكان له قبول من الناس،(وقد تكلم مرة تجاه الكعبة المعظمة وفي الحضرة عن يمينه الشيخ تاج الدين الفزاري والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد...فأجاد وأفاد،)([4])،والباحث سيذكر خطبتين من خطبه الوعظيّة أوردهما اليونيني في ترجمته([5]). والجدير بالذكر أنّه كان يرتجل مواعظه ويلقيها فصيحة بليغة مطبوعة بسمات ذلك العصر من التزام المحسِّنات البديعيّة في معظم الخطب،ومن سيطرة العاطفة الدّينيّة على كل كلمة فيها شأنها في ذلك شان الخطب الوعظيّة الأخرى.

ومن الوعّاظ الآخرين في هذا العصر: زين الدّين أحمد بن محمد الأندلسي الأصل المعروف "بكتاكت" (ت684)المصريّ الواعظ الأديب الشّاعر، كان إماما في الوعظ([6])،والشيخ المحدث الواعظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ميلق الشاذلي(ت749هــ)،وكان لوعظه تأثير في القلوب([7]).وقد برز الوعّاظ من الصُّوفيّة كما وضَّح الباحث ذلك في العصر الأيُّوبي([8])،ومعظمهم شهدوا هذا العصر أيضا،ومن الّذين لم أذكرهم هناك "ابن عطاء الله

([1])ابن ناصر الدِّين،محمّد بن عبد الله(1973م).الرد الوافر.ط1،بيروت: المكتب الإسلامي،تح:زهير الشاويش 59/1.

([2]) انظر: الزركلي،الأعلام 143/1.

([3])انظر ترجمته في: العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك)169/1،الزركلي،الأعلام 355/3.

([4])ابن تغري بردي،المنهل الصّافي260/7

([5]) انظر: اليونيني، ذيل مرآة الزمان14/4-20،18-22.

([6]) انظر: السيوطي،حسن المحاضرة 552/1،الذهبي، تاريخ الإسلام 525/15،الكتبي،فوات الوفيات 119/1.

([7])انظر: ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة157/3،السيوطي،حسن المحاضرة 552/1.

([8]) انظر:نهاية رابعا"الخطباء من الوعّاظ" من المبحث الثاني من باب " الخطابة في العصر الأيوبيّ".

الإسكندري"(ت709هـ) أحمد محمد بن عبد الكريم([1])(كان يتكلم علَى كرسي في الجوامع بكلام حسن، ويعظ الناس، ولوعظه تأثير في القلوب، وكان له ذوق ومعرفة بالكلام، وكان تلميذا لأبي العباس المرسي)([2])،وقول ابن تغري بردي يبيّن لنا أنّ ابن عطاء انتقل في وعظه من الحلقةالخاصّة بالمريدين إلى عامّة الشّعب،وسيقوم الباحث بعرض مقتطفات من وصاياه عند الحديث عن خطب الوعظ في هذا العصر.

([1])انظر : الزركلي،الأعلام221/1

([2]) ابن تغري بردي، المنهل الصافي 121/2، وانظر: الصفدي، الوافي بالوفيات 38/8.

المبحث الثالث: ألوان الخطابة ونماذج من خطب هذا العصر

تعدّدت اتجاهات الخطابة في هذا العصر وتنوّعت ألوانها تبعا للدّواعي الّتي فرضتها ظروف ذلك العصر؛ فبرزت الخطابة الدّينيّة والوعظيّة بقوّة في هذا العصر؛ لسيادة الخطاب الدّينيّ بسبب الظّروف الحربيّة الّتي فرضت خطابة المفاصلة والمواجهة،ممّا أدّى إلى ازدهار الخطابة الحربيّة أيضا،بينما لم تراوح الخطابة السّياسيّة مكانها الّذي كانت عليه في العصر الأيّوبيّ،واقتصرت على خطب المبايعات الصُّوريّة الّتي حفلت بالحضّ على الجهاد والوعظ الدّينيّ،وخطب الوفود الّتي كانت تهدف إلى إرساء الصُّلح والتّقارب،ولم تصب حظّا وافرا من الازدهار كما كانت عليه في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ.أمّا الخطابة الاجتماعيّة فقد ازدهرت أكثر ممّا كانت عليه في العصر الأيُّوبيّ لشيوع حالة من الاستقرار النّسبيّ خصوصا بعد فتح عكّا سنة 690هـ، وبعد معركة شقحب سنة 702هـ حيث تمّ القضاء على الخطرين الصّليبيّ والتتريّ، وللسبب ذاته رأينا ازدهار الخطابة العلميّة والّتي تمثّلت في خطابة افتتاح المدارس،كما أنّ خطابة المناظرات نشطت في هذا العصر بين متكلّمي وفقهاء المذهب الحنبليّ من جهة،وبين متكلّمي وفقهاء المذهب الشافعيّ الأشعريّ على وجه الخصوص.

والباحث سيقوم بعرض موجز لأهم الخطب الّتي استطاع الوصول إليها كنماذج للألوان المختلفة الّتي ازدهرت ومورست في هذا العصر، وهي على النحو التّالي:

أولا: الخطابة الدينية والوعظيّة

وهي الخطابة الّتي كانت تمارس في أيّام الجمع والعيدين والمناسبات الدّينيّة الأخرى، بالإضافة إلى مجالس الوعظ الّتي كانت تعقد في المساجد والمدارس والميادين العامّة،أو الوعظ في الحلقات العلميّة والصُّوفيّة الخاصّة. وقد ازدهرت هذه الخطابة بشكل كبير للظروف الحربيّة والسّياسيّة والاجتماعية المترتّبة عليها،والّتي بسطت فيها القول في المبحث الأول من هذا الباب.

وركّزت الخطابة الدّينيّة في هذا العصر على: الحثّ على الجهاد في سبيل الله واستنقاذ ما بقي من أراض في أيدي الصّايبيّين والتّتار،وبيان أركان العقيدة الإسلاميّة الّتي تتباين وعقائد الغزاة، والحثّ على الصّلاح والتّقوى والابتعاد عمّا يغضب الله سبحانه وتعالى من أسباب ربّما تؤدّي للذلّ والخسران، والتّحذير من التّشبّه بالغزاة والتأثّر بعاداتهم وتقاليدهم.

وسيعرض الباحث للخطب الدّينيّة والوعظيّة الّتي استطاع الوصول إليها مراعيا الإيجاز وتاركا التّفصيل للطّوال منها للملحق في نهاية البحث، ويقسمها الباحث إلى: والخطب الوعظيّة الطّارئة بسبب الحروب والكوارث،وخطب المناسبات الدّينيّة الراتبة،،وخطب مجالس الوعظ العامّة، وخطب الوعظ الصوفيّ.

أ. الخطب الوعظيّة الطّارئة بسبب الحروب والكوارث:

1. **خطبة ابن منير الإسكندرانيّ(ت683هـ):** وهي الخطبة الّتي ألقاها بعدما ملك التّتار الشّام سنة 658هـ، وهذه مقتطفات منها:(الحمد لله الَّذِي يرحم العيون إذا دمعت، والقلوبَ إذا خَشَعت،... الموجود إذا الأسباب انقطعت، المقصود إذا الأبواب امتنعتْ...، فسُبحان من وسِعت رحمته كلَّ شيء، وحقّ لها إذا وسِعت، وسعت إلى طاعته السماوات والأرض حين قَالَ (ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا)([1]) فأطاعت وسمعت...، وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك لَهُ، شهادةً عَنِ اليقين صدرتْ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله، بعثَهُ والفتنةُ قداحتدَّت والحاجة قد اشتدَّت، ويدُ الضَلالِ قد امتدَّت...، فجاء بمحمدٍ صلَّى الله عليه وسلم، فملك عِنانها وكَبَت أعيانها , وظهرت آياته فِي الجبابرة، فهلكت فرسانها...
أيها النّاس، خافوا اللَّه تأمنوا فِي ضمان وعده الوفي، ولا تخافوا الخلق وإن كثروا، فإن الخوف منهم شركٌ خفيّ...، فمن كانت الدنيا أكبر همه لم يزل مهموماً، ومن كانت زهرتها نُصب عينه لم يزل مهزومًا...، فالله اللَّه عباد اللَّه، الاعتبار الاعتبار، فأنتم السُّعداء إذا وُعظتم بالأغيار، أصلِحوا ما فَسد، فإنّ الفساد مقدّمة الدّمار...، اتقوا اللَّه وأصلِحوا تُفْلحوا، وسلموا تَسلموا، وعلى التّوبة صمّموا واعزموا...، ألا وإنّ ذنبًا بعد التّوبة أقبح من سبعين قبلها)([2]).

الخطبة جاءت تحمل همسات الآلام والأحزان الّتي اعترت أفئدة المسلمين نظرا للفظائع الّتي ارتكبها التّتار،وعملت على تذكير المتلقّين بمعاني العقيدة الأساسيّة نحو: وجود اللّه الّذي لا شكّ فيه،وأنّه هو الملتجأ عند انعدام النّصير،وأنّ الّذي نصر نبيّه محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم قادر على نصر المؤمنين وإهلاك الظالمين،وأنّه القوّة العظمى الّتي يجب أن نخشاها ولا نخشى سواها.وقد ذكّرت بمبادئ الزّهد في الدّنيا والبعد عن مظاهر الفساد.

([1]) سورة فصلت 11.

([2]) الذّهبي، تاريخ الإسلام 491/15، اليونيني،ذيل مرآة الزمان 209/4.

وهي من النّاحية الفنّيّة فصيحة في ألفاظها،رقيقة في عباراتها،بليغة في أسلوبها،متناسقة في أجزائها،تتراوح في أسلوبها بين ظهور الصّنعة في المقدّمة وبين الاسترسال في العرض؛وفي هذا دلالة على سلوك طريق يراوح بين مدرستي القاضي الفاضل والعزّ بن عبد السّلام؛إذ يعدّ ابن المنير ممّن عاصر القاضي الفاضل وتتلمذ لاحقا على العزّ بن عبد السّلام.

2. **خطبة بمناسبة زلزلة سنة(702هـ)**: هي خطبة ذكرها عبد الله بن أيبك في كتابه كنز الدّرر،ولم يعيّن قائلها،والخطبة طويلة سيعرض الباحث لمقتطفات منها على أن يعرضها كاملة في الملحق، وهي كما يلي: (الحمدلله الذي حلم علينا فعفا! وسامحنا فغفر ما ظهر منّا وما خفا، وجمّلنا بلطفه الجميل إذ على شفا، أحمده على نعمه التي لا يُحصى عددها، ولا يعدّ مددها، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، إلهٌ بلا فأحسن في بلائه، وقدّر وقضا...

أيّها النّاس، إنّ المعاصي قد كثُر عمّالها، حتّى تباهيتم في أعمالها، وفشت في ساير الأرض وأعمالها "أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها" فلذلك "زُلزِلت الأرض زلزالها" "وقال الإنسان مالها"...فالتوبة التوبة عباد الله في الأيام الباقية الفانية! واستحيوا ممن لا تخفى عليه خافية، واعتبروا بمن هلك تحت ردمها فجأة،...فنسأل الله السّلامة إذا حمِيَت سلاسلُها وأغلالها و"زُلزِلت الأرضُ زلزالها" "يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خير محضرًا"...)([1]).

وهي خطبة تبدأ بالشكر على النّجاة،وبطلب العفو عن المعصية الّتي بدرت وكانت موجبة لهذه العقوبة،وفيها حضٌّ على التّوبة وتذكير بأنّ الدُّنيا وإن طابت ملذّاتها فهي زائلة.وجاءت هذه الخطبة زاخرة بالعاطفة الدّينيّة الصّادقة تحتشد فيها الآيات المذكّرة بالآخرة والحاضّة على التّوبة؛فضلا عن التّضمين الواضح للآيات والأحاديث النبويّة،وجاءت ملتزمة للصنعة اللّفظيّة المتّسقة مع المعنى،مع بناء فنّيٍّ متناسق الأجزاء.

وهناك إشارة إلى خطب قيلت في حوادث كونيّة وابتلاءات أخرى نحو:خطبة بمناسبة خسوف القمر([2])،وخطبة استسقاء([3]) إلّا أنّ المصادر لم تذكر لنا نصوص هذه الخطب.

([1]) الدواداري،عبد الله بن أيبك(1960م).كنز الدّرر وجامع الغرر"الفاخر في سيرة الملك النّاصر".(د.ط)،القاهرة،تح:هانس روبرت ص102-103.

([2]) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية 240/18

([3]) انظر: المصدر السابق 646/17.

ب. **خطب المناسبات الدّينيّة الرّاتبة:** وهي خطب الجمع والأعياد بالإضافة إلى رأس السّنة، وأمثّل عليها بخطب علي بن داود(ت745هـ)([1]) خطيب الجامع التنكزيّ،وهي على النّحو التّالي:

1. **خطبة في يوم الجمعة:** (" أيها الناس تأنّسوا في المكارم وسارعوا إلى المغانم، وجانبوا مكاسب المآثم؛ فإنها معادم. وأيقظوا عيون العزائم فإنّها نوائم، واغتنموا أوقات الطاعات فإنّها مواسم. هذا، عباد الله شعبان وأخذه بكم ركائبه، مملوءة بمتاجر أعمالكم حقائبه، فالسّعيد من زكّى فيه بالإخلاص مكاسب أعماله، والشقيّ من أضحت زيوف المعاصي رأس مال آماله. سحقا له من مغبون.ما أخسر صفقته! ومدلج في دياجي الأطماع ما أبعد شقّته! باع الباقي بما يفنى، واعتاض عن النفيس العالي بالأدنى. تبرّجت له الدنيا فأخلد إليها...)([2]) والخطبة جاءت مليئة بالمعاني الدّينيّة،وحرص على استخدام الأساليب اللّغويّة و البيانيّة المختلفة، إلّا أنّها جاءت باهتة في عاطفتها،غلب عليها التنمّق اللّفظيّ الّذي يصبح المعنى أسيرا لديه. وله خطبة وعظيّة أخرى قصيرة بهذا المعنى ذكرها ابن فضل الله العمريّ([3]) ركّز فيها على التّذكير بالموت والآخرة.
2. خطبة له **في عيد الأضحى:** وقوله في خطبة عيد الأضحى:

(الحمد لله العظيم شأنه، العزيز سلطانه، القديم إحسانه، الذي أسمع دعوته إلى عرفات عرفاته من كل طريق. قلّبتها قلوب أولي الإنابة، مسرعة في الإجابة، ووافتها من كل فجّ عميق...، وكل الأيّام بها أعياد. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة لا يُخلِق المَلَوان([4]) جديدَها، ولا تنال يد الشّك مشيدها. وأشهد أنّ محّمدا عبده ورسوله...،صلّى الله عليه وعلى آله المنزّهين عن الدنايا، صلاة لا تنفكّ سعادة في البكر والعشايا)([5]). وقد جاءت هذه الخطبة متّسقة في معانيها والمناسبة الّتي قيلت فيها؛حيث ذكر فيها العيد والحجّ وعرفات، واستخدم ألفاظا فصيحة جزلة، إلّا أنّ الأسلوب الّذي حفل بالمحسّنات البديعيّة أضفى نوعا من الرّتابة عليها.

3. **خطبة له بمناسبة رأس السّنة:**

وهي خطبة قيلت في مناسبة دينيّة، إلّا أنّ الاحتفال بهذه المناسبة أخذ بعدا اجتماعيًّا مثّلها في ذلك مثل الاحتفال بالمولد النّبويّ،والباحث يوردها هنا لاتّصالها بموضوع خطب علي بن داود،وهذه مقتطفات منها:(الحمد لله الذي لا تدرك عظمته ثواقب الأفهام، ولا يحيط بمعارف عوارفه خطوات الأوهام، ولا يبلغ مدى شكر نعمه محامد الأيام. الذي طرّز بعسجد الشّمس حواشي

([1])ترجمت له في هذا المبحث في " أشهر الخطباء الّذين تقلّدوا الخطابة رسميًّا"

([2])ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار 203/7.

([3]) المصدر السابق204/7.

([4]) الملوان: الليل والنهار. انظر: ابن منظور، لسان العرب "مادّة ملا"

([5]) ابن فضل الله العمري،مسالك الأبصار 206/7.

الأيّام، ورصّع بجواهر النجوم حلّة الظلام، وفصّل بلجين الأهلة عقود الشهور والأعوام... وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له شهادة لا ينقص لها تمام...)([1]).وهكذا نلاحظ تناسب خطب المناسبات الدينيّة في مقدّماتها و ألفاظها وأساليبها مع المناسبة الّتي قيلت فيها.

ت. **خطب مجالس الوعظ:** وهي الخطب الّتي كانت تلقى في مجالس الوعظ العامّة،وأهمّها في هذا العصر خطب عبد السّلام أحمد عزّ الدّين الأنصاريّ(ت678هـ)([2])وهو أشهر الوعّاظ في هذا العصر على الإطلاق،وكان يلقي مواعظه بداهة دون تحضير،وهذا يدلّ على قوّة الاستعداد الخطابيّ لديه،وبقاء السليقة الخطابية سليمة عند بعض الخطباء في هذا العصر.والباحث وصل إلى خطبتين وعظيّتين من خطبه،يعرض لمقتطفات وجيزة منهما على أن يقوم بعرضهما كاملتين في الملحق،فالخطبة الأولى كانت في مجلس عقد أمام الكعبة حضره جمع من العلماء والأعيان منهم: ابن دقيق العيد،وأمير مكّة وغيرهم، وهذه مقتطفات منها:(الحمد لله ذى القدرة التي لا تضاهى، والحكمة التي لا تتناهى، والقسمة لا يطيق خلق أن يتعداها،...كيف تعرفه العقول وقد عقلها عن بلوغ مناها؟ وكيف تتكره النفوس وقد ألهمها فجورها وتقواها؟... من ذا الذي يرحم ذلة الذليل إذا الخطب الجليل وافاها؟ من ذا الذي يستر زلة الخاطي وغطاها؟... انظر إلى الرياض، كيف أخباها، فاستخرج منها ماءها ومرعاها، وانظر إلى الغياض كيف اهتزّت رباها إذ هو بلطيف حكمته ربّاها...)([3]).

وأهم ما نلحظه في هذه الخطبة هو مزجه في أسلوبه بين الجمل الخبريّة والإنشائيّة،مغلّبا الجمل الإنشائيّة؛ لأنّها أبلغ في التّأثير وجذب الانتباه،كما أنّ الإيقاع الموسيقي المتدفّق مع صوت الألف المديّة تناغم بشكل لطيف مع الوعظ الرّائق الصّادق.

والخطبة الثّانية كانت في مجلس عقد في دمشق سنة 670هـ،وهذه مقتطفات منها:(الحمد لله الذي ملأ الوجود جوداً وإحساناً، وأسبغ على كل موجود من سوابغ نعمه سراً وإعلاناً، وجعل السجود لقربان حضرته قرباناً...،فلو رأيتهم وقد جنّ عليهم الليل، لحسبتهم في ثياب الخشوع رهباناً،...وأصبحوا في خلوة الوفاء نُدماناً لا تعرف فيهم ندماناً. نصبوا للنّصَب أشباحهم،

([1])بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار 205/7.

([2]) ترجمته في هذا الباب "الخطباء من العلماء والوعّاظ"

([3])اليونيني،ذيل مرآة الزمان،19/4.

ورفعوا للرّعب نُواحهم،....قد تجلى لهم الجليل، ونادى يا جبريل! أنم فلاناً وأقم فلانا. يا جبريل! أكحل بالنّوم أجفان من جفانا...)([1]) وهي خطبة عمد فيها الخطيب إلى الوعظ غير المباشر عن طريق ذكر صفات المقرّبين إلى اللّه وأحوالهم، وذلك أسلوب مؤثّر ولطيف في الوعظ.والخطبة جاءت مطبوعة بسمات العصر من إغراق في استخدام المحسّنات البديعيّة الّتي جاء المعنى منساقا لها، على عكس خطب الوعظ في العصر الأيّوبيّ الّتي جاءت منسابة متدفِّقة مركّزة على المعاني والهدف من الوعظ، لا تحفل بتزيين الشّكل وإنّما تروم الهدف من المحتوى.

ث. **خطب الوعظ الصُّوفي**: فقد انتشرت خطب الوعظ الصّوفيّ في هذا العصر،والأدب الصّوفيّ في العصرين الأيّوبيّ والمملوكي الأوّل تناوله الباحثون بالعرض والتّحليل،لكنّ الباحث يعرض لخطبة وعظيّة يرويها ابن عطاء اللّه الإسكندريّ عن شيخه أبي الحسن الشّاذليّ كنموذج للوعظ الصّوفيّ،وحكمة عطائيّة خاصّة لأنّ ابن عطاء اللّه كان يعظ على كرسيٍّ في المسجد([2])،وفي هذا خروج للوعظ الصّوفيّ من الحلقات الخاصّة إلى المجالس العامّة.

1. **خطبة أبي الحسن الشّاذلي الوعظيّة(656هـ)**([3]): وهو رأس الطائفة الشّاذليّة، من الوعّاظ المخضرمين الّذين عاشوا في العصرين،وقد أشاد العزُّ بن عبد السّلام بوعظه قائلا:(اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله تعالى)[(4)]،والخطبة الوعظيّة الّتي سأعرضها يرويها ابن عطاء الله الإسكندري معلِّلا اتّباعه للطريقة الشّاذليّة حيث يقول:(فأتيت إلى مجلسه... فوجدته يتكلّم في الأنفاس ومسألة درجات السّالكين إلى الله،ومدى معرفتهم به وقربهم منه،فقال: الأوّل إسلام: وهو درجة الانقياد والطّاعة والقيام بمراسيم الشّريعة.وثانيها: الإيمان،وهو: مقام حقيقة الشّرع بمعرفة لوازم العبوديّة،وثالثها: الإحسان،وهو: مقام شهود الحقِّ تعالى في القلب.وإن شئت قلت: الأوّل عبادة،والثّاني عبوديّة، والثّالث عبودة...)([5]). وهذه الموعظة تبيّن المعاني

([1])اليونيني،ذيل مرآة الزمان 15/4-17

([2]) انظر ترجمته في هذا المبحث السابق في"الخطباء من العلماء والوعّاظ"

([3]) عرضت ترجمته في آخر المبحث الثاني"أشهر خطباء هذا العصر" في" الخطباء من الوعاظ" ص102 العصر الأيّوبيّ.

[(4)] اليافعي، عفيف الدين عبد الله(1997هـ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان.ط1، بيروت: دار الكتب العلمية 109/4

([5]) الإسكندريّ، ابن عطاء الله(1985م).حكم ابن عطاء الله.(د.ط)، القاهرة:مؤسّسة دار الشّعب،تح:عبد الحليم محمود،شرح: الشيخ أحمد زروق ص9.

العميقة الّتي يطرحها الوعظ الصّوفيّ،والّتي تعتمد في المقام الأوّل على فهم الشّريعة، ومن ثمّ معرفة القواعد الأساسيّة لعلمي المنطق والفلسفة؛ ممّا يوضّح سبب عقد هذه المجالس في أماكن خاصّة للمريدين،إلّا أنّ ابن عطاء اللّه بدأ يعقدها في مجالس عامّة،وهذا دليل على شيوع الأدب الصّوفيّ ومصطلحاته الخاصّة في العصر المملوكيّ الأوّل.

2. **حكم ابن عطاء الله الإسكندريّ(709هـ):** وهي مجموعة من الحكم كتبها ابن عطاء الله (صُفيت من ناحية الأسلوب والصّياغة فكانت مثلا عاليا للأدب الرّفيع، يضع ابن عطاء الله في مصافِّ أعلام الأدب الفصيح البليغ)([1]). والباحث يرجّح أنّها كانت جزءا من مجالسه الوعظيّة الّتي كان يلقيها على المريدين والعامّة في المسجد.ومن هذه الحكم قوله:(اجتهادك فيماضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك،دليل على انطماس البصيرة منك)([2])؛ فهي جاءت مختصرة بألفاظ فصيحة وأسلوب رصين تنبئ عن قدرة أدبيّة متميّزة.

ثانيا: الخطب الحربيّة

ازدهرت الخطابة الحربيّة في هذا العصر الّتي كانت تمارس من قبل القادة والعلماء لتوفّر دواعيها([3])،وقد مورست الخطابة الحربيّة من قبل القادة والعلماء، والّتي كانت تركّز على الحضّ على الجهاد والثبات، وبيان الثواب العظيم الّذي أعدّه الله للمجاهدين،وعواقب ترك الجهاد.والخطابة الحربيّة جاءت في أسلوبها وسماتها الفنّيّة مماثلة لما كانت عليه في العصر الأيّوبيّ؛ فالخطب قصيرة بشكل عام،جاءت دون مقدّمات طويلة، كما أنّ خطباءها لم يحفلوا بتزيين خطبهم بالمحسّنات البديعيّة،والأساليب البيانيّة المتنوّعة نظرا للظروف الّتي قيلت فيها.والباحث سيعرض أربعة خطب استطاع الوصول إليها،وهي على النّحو التّالي:

1. **خطبة السّلطان قطز(ت658م) في الأمراء قبل الخروج إلى المعركة:** يروي المقريزيّ أنّ السّلطان قطز طلب الأمراء للخروج معه فأبوا كلّهم،فقال لهم:(يَا أُمَرَاء الْمُسلمين لكم زمَان

([1])المصدر السابق ص10.

([2]) المصد السابق ص29.

([3]) انظر: المبحث الأوّل من هذا الباب حين تكلّم الباحث عن عوامل ازدهار الخطابة في هذا العصر.

تَأْكُلُونَ أَمْوَال بَيت المَال وَأَنْتُم للغزاة كَارِهُون، وَأَنا مُتَوَجِّه فَمن اخْتَار الْجِهَاد يصحبني وَمن لم يخْتَر ذَلِك يرجع إِلَى بَيته. فَإِنّ الله مطلع عَلَيْهِ وخطيئة حَرِيم الْمُسلمين فِي رِقَاب الْمُتَأَخِّرين)([1])

فما كان من الأمراء إلّا الموافقة على المسير،ولوكان ذلك شاقًّا على أنفسهم كما ينقل المقريزي([2]).

2. **خطبة السّطان قطزفي الأمراء قبل المعركة مباشرة:** جمع السّلطان قطز الأمراء قبل المعركة مباشرة لحضّهم على الجهاد والثّبات ونصرة دين اللّه، وقال لهم:(يا مسلمين، قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسّبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أنّ أيدي التّتار تحكّمت في الشّام وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحميّة، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حقّ القيام، يا قوم جاهدوا في الله بصدق النيّة. تجارتكم رابحة وأنا واحد منكم وها أنا وأنتم بين يدي ربٍّ لا ينام، ولا يفوته فائت ولا يهرب منه هارب) فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمّة([3]). ونلاحظ أنّ السّلطان قطز يركّز في استثارة عواطف الجند والأمراء على التّذكير بالواجب الدّينيّ الّذي في رقابهم في الدّفاع عن الدّين والعرض،كما أنّه يبعث في نفوسهم الأمل بالنّصر؛لأنّ اللّه معهم ومطّلع عليهم.

3. **خطبة ابن تيمية(728) في معركة شقحب سنة(702هـ):** شارك ابن تيمية في هذه المعركة ببسالة،وحضّ المسلمين على الجهاد مبيّنا قضيّة مهمّة كان يخشاها المسلمون في ذلك الوقت،وهي أنّ قازان وعسكره أعلنوا الإسلام فكيف تجوز محاربتهم (فقال الشيخ تقيّ الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليّ ومعاوية، ورأوا أنّهم أحقّ بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنّهم أحقّ بإقامة الحقّ من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبّسون به من المعاصي والظّلم، وهم متلبّسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطّن العلماء والنّاس لذلك، وكان يقول للنّاس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني) فتشجّع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونيّاتهم ولله الحمد([4]).وما قام به ابن تيمية يمثّل أهمّ عامل في النّصر في هذه المعركة،حيث نفى بكلماته أيّ شكٍّ أو شبهة بخصوص كفر التّتار ووجوب محاربتهم،وفي الصّورة الّتي ساقها في آخر الخطبة مزيد من التّأكيد على وجوب محاربتهم،

([1])المقريزي، السلوك515/1، ابن دقماق،نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص262.

([2]) انظر: المصدر السابق 515/1.

([3]) ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص263.

([4]) ابن كثير، البداية والنهاية 23/18

وعدم الاغترار بما يظهرونه من إسلام لم يلامس شغاف قلوبهم.وابن تيمية كان موقنا بنصر اللّه لا يشكّ فيه قيد أنملة؛وهذا ما يبيّنه ابن كثير في روايته لتحالف الأمراء والعلماء والعامّة على القتال حيث قال:(فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان الأخضر، وتحالفوا على لقاء العدوّ، وشجّعوا أنفسهم، ونودي بالبلد أن لا يرحل أحد منه، فسكن النّاس، وجلس القضاة بالجامع، وحلّفوا جماعة من الفقهاء والعامّة على القتال، وتوجّه الشّيخ تقيّ الدّين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة، فاجتمع بهم في القطيفة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والنّاس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك، وحلفوا معهم، وكان الشّيخ تقيّ الدّين ابن تيمية يحلف للأمراء والنّاس: إنّكم في هذه الكرّة منصورون على التّتار، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا، وكان يتأوّل في ذلك أشياء من كتاب الله، منها قوله تعالى:"ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور"([1]))([2]).

والتّحالف على الجهاد ما هو إلّا بيعات على الجهاد والثّبات لا بدّ أن يكون قد تخلّلها العديد من الخطب والمواعظ الّتي لم تسعفنا المصادر التّاريخيّة بنقلها.وأودُّ التّذكير هنا بموعظة الخليفة المستكفي أبي الربيع سليمان بن أبي العبّاس أحمد في معركة شقحب؛إذ كان الخليفة يقف بجانب السّلطان (ومعهما الْقُرَّاء يَتلون الْقُرْآن ويحثون على الْجِهَاد ويشوقون إِلَى الْجنَّة وَصَارَ السُّلْطَان يقف وَيَقُول الْخَلِيفَة: يَا مجاهدون لَا تنظروا لسلطانكم قَاتلُوا عن حريمكم وعَلى دين نَبِيكُم صلى اله عَلَيْهِ وَسلم وَالنَّاس فِي بكاء شَدِيد)([3]).

4. **خطبة الشّهاب محمود(ت725هـ)**(4) **لرامي نشّاب:** وهي خطبة أنشأها لرامي نشّاب متميّز في أدائه،وسيذكر الباحث هذه الخطبة وتحليلها في الفصل القادم.

ثالثا: الخطب السّياسيّة

مورست الخطابة السياسيّة في هذ العصر على نطاق ضيّق؛ واقتصرت على خطب المبايعات والوفود والوعظ الّذي كان يوجّه للحكّام،(ولم تعد الخطابة في هذا العصر خطابة سياسيّة تنطق بلسان أحزاب أو فرق لها اتّجاهاتها وعقائدها السّياسيّة والمذهبيّة،كذلك لم يكن

([1]) سورة الحج 60.

([2]) ابن كثير،البداية والنهاية 23/18.

([3]) العيني، عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك) 418/1، المقريزي،السلوك 356/2.

([4])تمّت التّرجمة له في المبحث السابق في " الخطباء من الأعيان"

للقادة أو الولاة نشاط سياسيّ يعلنونه بألسنتهم على المنابر كما كان الحال في عصر الأمويّين الّذي شهد ازدهارا للخطابة السّياسيّة من زعماء الفرق والقادة السّياسيّين والولاة)([1]).

والباحث سيعرض لأربعة من خطب المبايعات قام الخلفاء بإلقائها،وخطبتين في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكرالموجّه للحكّام فيما يخصّ الشّؤون السّياسيّة،ولم يقف الباحث على خطبة من خطب الوفود او السفارات في هذا العصر. والّتي لم تلق نفس النّشاط الّذي حظيت به في العصر الأيُّوبيّ؛لانتقال مركز الخلافة إلى القاهرة، وبسبب خضوع جميع الملوك لسلطان واحد في القاهرة، على عكس ما كانت عليه الأمور في المرحلة الأيّوبيّة بعد وفاة صلاح الدّين.

أ. **خطب المبايعات:** وهي الخطب الّتي كان يلقيها الخليفة بعد مبايعته للخلافة من قبل السّلطان المملوكي،ويقوم فيها بتولية السّلطان أمور السّلطنة، ويحضّ المسلمين على طاعة السّلطان،ويحثُّهم على الجهاد لحماية الدّين والأعراض وتحرير ما فقده المسلمون من أراض. وهذه المبايعات كانت صوريّة؛فما كان يملك الخليفة فيها أمره،وكان الهدف منها بالنّسبة لسلاطين المماليك إضفاء الشّرعيّة الدّينيّة والسّياسيّة على حكمهم.

1. **خطبة أبي العبّاس أحمد الحاكم بأمر الله(701هـ) في تولية الظاهر بيبرس:** وهي الخطبة الّتي خطبها سنة (661هـ) بعد أن بايعه الظّاهر بيبرس على الخلافة،وهي الخطبة نفسها الّتي خطب بها في مبايعة الأشرف خليل سنة(691هـ)،وهي من إنشاء شرف الدّين الفزاريّ([2])،وهذا نصُّها:(الحمد لله الذي أقام لآل العبّاس ركنا وظهيرا، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيرا، أحمده على السّرّاءِ والضّرّاء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النّعماء واستنصر به على دفع الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه، نجوم الاهتداء، وأئمّة الاقتداء الأربعة الخلفاء، وعلى العبّاس عمّه وكشّاف غمه، أبي السّادة الخلفاء الراشدين والأئمّة المهديّين، وعلى بقيّة أصحابه أجمعين، والتابعين بإحسان إلى يوم الدّين.

أيّها النّاس اعلموا أنّ الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام،

([1]) سلام،الأدب في العصر المملوكي11/2.

([2])انظر: العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك)228/1هـ، ابن كثير،البداية والنهاية 636/17.

يقوم على الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سُبِيتِ الحُرَم إلا بانتهاك المحارم، ولا سُفكت الدِّماء إلا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السّلام، واستباحوا الدّماء والأموال، وقتلوا الرّجال والأبطال والأطفال وسبواالصّبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء والأمّهات، وهتكوا حَرم الخلافة والحريم،وأذاقوا من استبْقَوْا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجّات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خُضّبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلا رُحِم لبكائه، فشمّروا عباد الله عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد، فاتقّوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا، وانفقوا خيرا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.فلم تبق معذرة في القعود عن أعداء الدّين والمحاماة عن المسلمين.

وهذا السّلطان الملك الظّاهر السيّد الأجل، العالم العادل المجاهد المؤيّد ركن الدّنيا والدّين قد قام بنصر الإمامة عند قلّة الأنصار، وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العبّاسيّة متكاثرة الجنود، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النّعمة، وأخلصوا نيّاتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشّيطان تظفروا، ولا يروعنّكم ما جرى، فالحرب سجال والعاقبة للمتّقين، والدّهر يومان، والآخِر للمؤمنين.

جمع الله على التّقوى أمركم، وأعزّ بالإيمان نصركم، واستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية: الحمد لله، حمداً يقوم بشكر نعمائه، ويشهد بوحدانيّته عدّة عند لقائه، والصّلاة على محمّد خاتم أنبيائه، عدد ما خلق في أرضه وسمائه.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، إنّ أحسن ما وُعِظ به الإنسان كلام الملك الديّان، " يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولى الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرّسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا "([1]) .نفعنا الله وإيّاكم بكتابه، وأجزل لنا ولكم من ثوابه، وغفر لي ولكم وللمسلمين أجمعين)([2]).

والخطبة ألقيت في يوم الجمعة؛ فهي في أصلها تعدّ خطبة دينيّة اتّبعت البناء الفنّي والشّرعي للخطب الدّينيّة،لكنّ موضوعها السّياسيّ جعلني أصنّفها ضمن الخطب السّياسيّة.وهي من الخطب المعدّة مسبقا،وكانت من إنشاء شرف الدّين الفزاريّ،ولم يظهر فيها التنمّق اللّفظي بشكل واضح،فقد سلكت طريقا متوسّطة في ذلك،متّبعة منهج ابن المنير الإسكندرانيّ.

([1]) سورة النساء 59.

([2])العينيّ،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك) 1/88-91،والخطبة مذكورة مع اختلافات بسيطة في:ابن واصل،مفرج الكروب 2/351-353،اليونيني،ذيل مرآة الزمان2/188-190،السيوطي،حسن المحاضرة 2/59-61،المقريزي،السلوك1/547-548.

2. **خطبتان لأبي العبّاس أحمد الحاكم بأمر الله في تولية الأشرف خليل سنة (689هـ)**: وهما الخطبتان اللّتان أوردهما العينيّ في تولية الأشرف خليل الأولى قبل معركة عكّا([1])،حيث قام الأشرف باستدعاء الخليفة على عجل،وطلب منه إعلان توليته للخلافة،فلم يكن بيد الخليفة حيلة؛فقام وخطب خطبة قصيرة ودعا للسلطان والمسسلمين ونزل ورفض أن يصلّي بالنّاس([2]).

ويقول العينيّ إنّ أبا العبّاس أحمد خطب في الجمعة الثّانية خطبة هذا نصّها:(الحمد لله الذي جعل من لدنّا سلطانا نصيرا، وكان فضل الله به على الإمامة فضلا كبيرا، سبّب أسباب النصر والظّفَر، وقرّب أمر الفتوحات بخير زمان كان ينظر؛ والصّلاة على سيّدنا محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه صلاة متوالية في العشيات والبكر.

اعلموا وفّقكم الله يا أنجاد الإسلام وحماته، ويا شجعانه وكماته، إنّ الله سهّل لكم نصْرا عزيزا؛ فانتهزوا فرصه، واجعلوا في أيام هذا السّلطان بشارة تقصّ على البلاد والعباد أحسن قصصه، وأخلصوا النيّات في الجهاد، وتعاونوا على ميعاد الظفر بالوفاء، إن الله لا يخلف الميعاد، اللهمّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها علي وعلى والديّ، وأجب اللهمّ دعائي في المحسن للإسلام وإليّ، وهو السّلطان الملك الأشرف الذي سخّرت له تأثيرات الفلك، فاجعله اللهمّ مالكا حيث ما سلك، وامنحه بنصرك إيّاه تفتح عليه ممالك الأرض وأبوابها، واجعل دار الإسلام دار السّلام ومنابر الخلافة بها، وانصر اللهمّ جنده، وانجز له وعده، وارض عن والده السّلطان الأجل الملك المنصور الذي جاهد في الكفّار جهده، وجعل الملائكة الكرام في تأييده جنده، ثم دعا للسّلطان وللمسلمين، ونزل وأمّ بالنّاس وصلّى)([3]).

3. **خطبة الخليفة أبي العبّاس أحمد الحاكم بأمر الله الثاني ابن المستكفي(ت753هـ)**: وهي خطبة أوردها السّيوطي بعد بيعة الحاكم بأمر الله الثّاني بالخلافة مباشرة يوم الإثنين سنة(742هـ)،وهي على النّحو التّالي:(قام الخليفة وخطب خطبة افتتحها بقوله: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"([4])، وبقوله: "وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا

([1]) تكلمت عن هذا الموضوع بالتفصيل في المبحث الثاني منهذا الفصل عند الحديث عن ترجمة أبي العبّاس أحمد.

([2]) انظر: العينيّ، عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك)211/1. والعينيّ يورد هذا الجزء من الخطبة(الحمد لله الذي أقام لآل عباس ملكاً ظهيرا، وجعل لهم سلطانا نصيرا) 211/1.

([3]) العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك)212/1.

([4]) سورة النّحل 90.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ"([1]) ثم أوصى الأمراء بالرفق بالرعية وإقامة الحق، وتعظيم شعائر الإسلام ونصرة الدّين، ثم قال: فوضت إليك جميع أحكام المسلمين، وقلدتك جميع ما تقلدته من أمور الدين "فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ"([2]) وقرأ الآية، وجلس)([3]).

وما يميّز هذه الخطبة أنّها لم تلق يوم الجمعة؛لذلك لم تحمل ملامح الخطابة الدّينيّة في أيّام الجمع كما عهدنا في خطب أبي العبّاس أحمد الأوّل، كما أنّها لم تتّبع البناء الفنّيّ للخطبة في اشتمالها على المقدّمة والعرض والخاتمة،بالإضافة إلى اشتمالها على كثير من الآيات الّتي تحضّ على العدل وإيفاء العهد وعدم نكثه؛ولعلّ السّبب في ذلك يعود إلى القصّة الّتي أوردها السّيوطي بخصوص العهد بالخلافة لهذا الخليفة من قبل والده أبي الرّبيع سليمان المستكفي(ت741هـ)،والّذي أشهد عليه أربعين رجلا من أهل قوص،لكنّ السّلطان النّاصر محمّد رفض إنفاذ هذا العهد؛فما كان من ولده السّلطان سيف الدّين أبي بكر منصور بن النّاصر محمّد([4]) إلّا أن أنفذ عهد الخليفة المستكفي لابنه الحاكم الثّاني بعد استشارة الفقهاء والعلماء في ذلك([5]) وكان ذلك في بداية سلطنته سنة(741هـ)،ممّا حدا بالخليفة إلى التّركيز في خطبته على معاني العدل وإيفاء العهد والالتزام به.

ب. **خطب الوفود:** وهي الخطب الّتي كان يلقيها رؤساء الوفود لإرساء السّلام وتقريب وجهات النّظر،وما بين أيدينا خطبتان هما:

1. **خطبة ابن تيمية أمام النّاصر محمّد سنة(700هـ) قبل وقعة شقحب:** فقد سأله نائب دمشق والأمراء أن يركب على البريد إلى السّلطان يسحثّه على الخروج لنصرة الشّام وقال له وقد أدركه في القاهرة:(إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه، ويستغلّه في زمن الأمن. ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشّام ثم قال لهم: لو قدّر أنّكم لستم حكّام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النّصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه؟ وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم. وقوّى جأشهم، وضمن لهم النّصر هذه الكرة)([6])

([1]) سورة النحل 91.

([2]) سورة الفتح 10.

([3])السّيوطي،حسن المحاضرة 80/2.

([4]) هوالملك المنصور سيف الدّين أبوبكر ابن الناصر محمّد،وهو أوّل من ولي السلطنة بعد النّاصر محمّد بعهد منه سنة (741هـ)،وقتل على يد أتابك عسكره قوصون سنة(742هـ). انظر: ابن إياس،بدائع الزهورص150–151.

([5]) السيوطي،حسن المحاضرة 69/2.

([6]) ابن كثير،البداية والنّهاية 738/17.

2. **خبر عن خطبة أُلقيت من قبل قاضي الموصل كمال الدّين موسى بن يونس حيث كان سفيرا لمحمود قازان إلى السّلطان الناصر بن محمد:**لم تذكر لنا المصادر نصّ الخطبة،إلّا أنّ المقريزي يقول واصفا الخطبة:(وَقَامَ قَاضِي الْموصل وعَلى رَأسه طرحة فَخَطب خطْبَة بليغة وجيزة فِي معنى الصُّلْح، ودعا للسُّلْطَان ولغازان وللأمراء، وَأخرج كتابا من غازان مَخْتُومًا فَلم يفتح)([1])،وما يهمّنا هنا هو وصف الخطبة بأنّها بليغة موجزة؛فقد كانت بليغة لأنّها كانت من الخطب المعدّة مسبقا،وهذا ما كانت عليه خطب السّفارات المعدّة مسبقا في العصر الأيّوبي،أمّا كونها وجيزة–على النّقيض من خطبة ابن العديم في العصر الأيّوبيّ– فلعلّ السّبب في ذلك هو وجود رسالة قازان مع الوفد، والّتي تحتاج لوقت آخر لقراءتها والاطلاع على ما فيها،وقد لاحظنا أنّ خطبة ابن تيمية كانت موجزة أيضا؛ولعلّ المقام هو الّذي يتحكّم بطولها وقصرها.

ت. **خطب الوعظ الموجّهة للحكّام والعمّال:** وهي خطب وعظيّة في المقام الأوّل،إلّا أنّي ذكرتها هنا كونها قيلت لوعظ شخصيّات سياسيّة، ولقدوقفت على خطبة في هذا العصر هي:

1. **خطبة إِسْمَاعِيل الوَاسِطِيّ خطيب مكّة لمّا حضر الظّاهر بيبرس الحجّ** (فقال في الخطبة: أيها السلطان إنك لن تدعى يوم القيامة بأيها السلطان لكن تدعى باسمك وكل منهم يومئذ يسأل عن نفسه إلا أنت فأنك تسأل عن رعاياك فاجعل كبيرهم أبا وأوسطهم أخا وصغيرهم ولدا)([2])

رابعا: الخطابة الاجتماعيّة

ازدهرت الخطابة الاجتماعيّة في العصر المملوكي أكثر ممّا كانت عليه في العصر الأيّوبيّ، للاستقرار الّذي نعم به المجتمع في هذا العصر، هذا وقد شملت عدّة مجالات : مناسبات الزّواج،وسمّيت الخطب الّتي تكتب فيها""خطب الأصدقة"،وخطب الختمات الّتي تشبه إلى حدٍّ كبير خطب التّأبين، وخطب المناسبات الاجتماعيّة: نحو الخطب الّتي كانت تلقى في الموالد،وخطب المناسبات الدّينيّة الّتي تحوّلت إلى ظواهر اجتماعيّة.

أ. **خطب الأصدقة"النّكاح"**: وهذه الخطب ثلاثة أنواع في طريقتها،فمنها ما كتب للملوك أو أبنائهم،ومنها ما كتب للرؤساء والأعيان وذلك حسب ما أورده القلقشنديّ([3])؛وهناك نوع ثالث

([1])المقريزي،السلوك 341/2، وانظر في خبر هذا الوفد:النويري،نهاية الأرب426/31،العيني،عقد الجمان387/1.

([2])ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي218/2.

([3]) انظر : القلقشنديّ،صبح الأعشى 341/14–364 فهو يورد أمثلة من خطب الصداق على النّوعي تصل إلى سبعة.

وهوما كتب لعامّة النّاس،وقد كان لابن الوردي خطبيتن من هذا النّوع([1]).فما كتب للملوك يذكر فيها تشرف المخطوب بالخاطب،وأشياء كثيرة من هذا القبيل،وتكون طويلة في العادة مليئة بالألقاب التشريفيّة،وما ذكر لغير الملوك تكون أكثر اختصارا من الأولى،ويذكر فيها تشرف الخاطب بالمخطوب.أمّا ما ذكر للعامّة،فيكون الأكثر اختصارا ولا تحتوي على الألقاب التّشريفيّة لكنّها في الغالب تكون حافلة بالآيات والأحاديث النّبويّة. وهذه الخطب كانت تلقى في احتفالات الزّواج؛ وما يدلّ على ذلك ما أورده القلقشنديّ خلال حديثه عن إحدى الخطب حيث قال:(فلذلك قام خطيب هذا الحفل الكريم، ...، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم)([2]).وهي من الخطب المعدّة مسبقا؛ لذلك يظهر فيه الالتزام بالبناء الفنّي للخطبة،مع مقدّمة متناسبة مع الموضوع،واحتشاد للآيات القرآنية والأحاديث النبويّة والتّضمينات المتناغمة مع الموضوع،هذا بالإضافةإلى ظهور للصور الفنيّة والمحسّنات البديعيّة بشكل واضح.

والباحث استطاع الوقوف على عشرة من خطب النّكاح في هذا العصر:ثمانية في صبح الأعشى،واثنتان في ديوان ابن الوردي وسيقوم الباحث بإيراد مقتطفات لخطبة على كلٍّ نوع؛عارضا إيّاها كاملة في الملحق وتاركا الباقي لمن أراد الاستزادة بالرّجوع إليها في مصادرها المبيّنة مخافة الإطالة، وهي على النّحو التالي:

1. **خطبة صداق من إنشاء محيي الدّين بن عبدالظاهر(692هـ):** وهي في خطبة الصداق الّذي عقد للملك السّعيد ناصر الدِّين محمّد بركة بن الظاهر بيبرس على ابنة الأمير سيف الدّين قلاوون الألفي الصّالحي،حيث قرأ محيي الدّين تلك الخطبة بالمجلس، وأورد الجزء الأخير منها:(بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب مبارك تحاسدت رماح الخطّ وأقلام الخطّ على تحريره، وتنافست مطالع النّوّار ومشارق الأنوار على نظم سطوره، فأضاء نوره الجلالة وأشرق، وهطل نوءه بالإحسان فأغدق، وتناسبت فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل فقال الاعتراف: هذا ما تصدّق، وقال العرف: هذا ما أصدق مولانا السلطان: أصدقها ما ملأ خزائن الأحساب فخارا، وشجرة الأنساب ثمارا، ومشكاة الجلالة أنوارا...)([3])

([1]) انظر:ابن الوردي، عمر بن المظفّر(1968م).ديوان ابن الوردي.(د.ط)،الكويت: دار القلم،تح:أحمد فوزي الهيب ص95-107،96-108

([2])انظر: القلقشنديّ،صبح الأعشى 361/14.

([3])القلقشندي،صبح الأعشى 343/14.

2. **خطبة صداق من إنشاء شهاب الدّين أحمد ابن فضل الله العمريّ(749هـ)** ([1]): وهي نسخة صداق ناصر الدّين محمّد بن الخطيريّ،وهي مثال على صداق الأعيان،وهذه مقتطفات منها: (الحمد لله الذي زاد الأصول الطّيّبة قربا، وزان الأنساب الطّاهرة بصلة تتأكّد حبّا، وصان كرائم البيوت القديمة الفخار بمن يناضل عن حسبه ذبّا، ويناظر العلياء فلم يبن إلا بين منازل النّجوم بيوتا ولم يسبل سوى السّمر سمر القنا حجبا... وبعد، فإنّ أولى ما اشتبك وشيجه، واشتبه في منابت الأيك بهيجه، ...ما اتّبعت فيه الشريعة المطهّرة حيث لا تختلف الأئمّة، والسّنة النبويّة على من سنّها أفضل الصلاة والسّلام فيما تأتلف به البعداء وتكثر لمباهاته الأمم يوم القيامة هذه الأمّة، وتدنو به الأجانب بعضهم من بعض ويجعل بينهم مودّة ورحمة، ...وهو النّكاح الذي تشتدّ به الأواصر، وتعتدّ به الموارد لتمثيل أكثر الصّور من أزكى العناصر...)([2]).

3. **خطبة صداق من إنشاء عمر بن المظفّر بن الوردي(749)(3)**: وهي خطبة أنشأها لبعض بني النّصيبي على بنت عمّه، وهذه مقتطفات منها:(فإن أولى ما بادر إليه أولو الأحلام، وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لتكثير الأمة متضمنًا، ولفضيلة العاجل والآجل نافعًا نفعًا بيّنًا، وهي سنة النكاح التي عظمت بها المنة، وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليها يد السنة، وخصوصًا بنات العم التي أرشدت قصة البتول –عليها السلام– إليها، وحَسُنَ أن يُتلى لها بطريق الأولى. (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها)([4])، فإن بنات العم أجدى بالصحبة وأجدر، وأوفى بالمودة وأوفر، وأصبى إلى العهد وأصبر، ولا سيما من حازت كرم (المفاخر، وأوتيت طيب) الأوائل والأواخر، وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر...)([5])

ب. **خطب الختمات"التأبين"**: وهي الخطب الّتي كانت تلقى بعد ختمة القرآن على روح أحد الأموات من الأعيان،والعيني يورد خبرا يذكر فيه أنّ الخليفة أبي العباس أحمد الحاكم بأمر الله(701هـ) كانت له خطبة بعد ختم القرآن عند قبر المنصور قلاوون في عهد ابنه الأشرف خليل قلاوون سنة (690هـ) حضّ فيه على الجهاد وإنقاذ العراق من أيدي التتار،ولم يورد لنا نصّ هذ الخطبة([6])،وينقل ابن كثير خبرا آخر عن هذه الختمات الّتي كانت تمارس فيها الخطابة،وقد

([1]) هو شهاب الدين أحمد ابن فضل الله،ولد في دمشق سنة 700هـ،وتوفي في القاهرة سنة 449هـ، وتقلّد رئاسة ديوان الإنشاء في عهد السلطان النصر محمد بت قلاوون،وهو صاحب كتاب مسالك الأبصار.انظر:الصفدي، الوافي بالوفيات 163/8.

([2])القلقشنديّ،صبح الأعشى355/14-365.

([3])هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، زين الدين ابن الوردي المعروف ولد في حلب سنة 691هـ،وتوفي في معرّة النعمان سنة 749هـ،وهو فقيه وأديب وشاعر،وهوصاحب كتاب"تاريخ ابن الوردي"انظر: الزركلي،الأعلام67/5.

([4]) سورة الروم 20.

([5]) ابن الوردي،ديوان ابن الوردي107-108.

([6])العيني،عقد الجمان(عصر سلاطين المماليك) 223/1.

حدثت في نفس هذه السّنة حيث قال:(وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة بالميدان الاخضر إلى جانب القصر الابلق، فقرئت ختمات كثيرة ثم خطب الناس بعدها الشّيخ عز الدين الفاروثي، ثم ابن البزوري، ثم تكلّم من له عادة بالكلام وجاءت البريديّة بالتهيؤ لغزو العراق)([1]). وهذا الخبر يبيّن أنّها جرت في ميدان عامّ،حيث أضحت ظاهرة مجتمعيّة تمارس فيها الخطابة الّتي تذكّر بفضائل المتوفّى وتحثُّ على الجهاد.

وقد بيّن الباحث في معرض حديثه عن الخطابة الدّينيّة بعض خطب المناسبات الّتي ألقاها علي بن داود([2])، والّتي فضّلت ذكرها هناك لاتّصالها بخطب علي بن داود.

خامسا:الخطابة العلميّة

وهي الخطب الّتي كانت تلقى في اليوم الأوّل لتدريس الشيخ أو المدرّس في المدرسة،والباحث استطاع الوصول إلى خطبتين منها ألقيت في ذلك العصر، والباحث يورد أهمّ الأجزاء منهما على أن يورد الخطبة الثانية كاملة في الملحق لاشتمالها على العديد من المصطلحات العلميّة الحديثيّة الّتي تجعلها فريدة في صياغتها،وهما على النّحو التّالي:

1. **خطبة أبي الفتح محمّد بن عبد اللّطيف السّبكي(3) في افتتاح دروسه في المدرسة الركنيّة بمصر:** (الحمد لله ناصر الملك الناصر للدين الحنيفي وممضي عزائمه ومشيد أركانه القائم بالشرع المحمدي ومقوّي دعائمه ...وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يعينها اليقين بخوافيه...وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله والكفر قد أطل بتعاضده وتعاظمه...

أمّا بعد فإن غريب الدار وإن نال مناط الثريا، فيكفي أن يقال غريب وبعيد المزار ولو تهيأ له ما تهيأ فما له في الراحة منهم نصيب، ولمشقة الغربة ازدادت رتبة الهجرة في العبادة وشرفت الوفاة حتى جاء موت الغريب شهادة. والغربة كربة ولو كانت بين الأقارب، ومفارقة الأوطان صعبة ولو عن سم العقارب وأنّى يقاس ببلاد الغربة وإن شرف قدرها وعذب شرابها)([4]).

([1])ابن كثير،البداية والنهاية637/17.

([2])انظر هذا المبحث " الخطابة الدينية" عندما ناقشت خطب علي بن داود.

([3]) محمد بن عبد اللطيف بن علي بن تمام السّبكي(705-744هـ)،الفقيه المحدّث الأديب المتفنّن.انظر:السبكي،طبقات الشافعية الكبرى 180/9، وهو ليس الإمام علي بن عبد الكافي تقي الدين السبكي العالم المشهور(683-756هـ)،وهما يلتقيان في الجد. انظر:الزركلي،الأعلام 302/4.

([4])انظر: السبكي،طبقات الشافعية الكبرى 180/9.

وهذه الخطبة من النّاحية الفنّيّة جاءت مستوفية أركانها،متوسّطة في اتباعها الصّنعة اللّفظيّة،تغمرها عاطفة الحنين للوطن؛فالخطيب من مصروانتدب للقضاء في دمشق عن غير رغبة،ثمّ يعود إلى مصر للتدريس والقضاء،ويعبِّر عن مشاعرالحنين إلى وطنه بهذه الخطبة([1]).

2. **خطبة خليل بن كيكلدي صلاح الدّين الدمشقي(694-761هـ)(2)**: وهي خطبة أنشأها لدرس الحديث بحلقة صاحب حمص،وهذه مقتطفات منها:(الحمد لله الذي رفع متن العلماء وجعل لهم من لدنه سندا ...وأنجز لهم من صادق وعده علو قدرهم المرفوع وأطاب بألسنة الأقلام وأفواه المحابر مشافهة ثنائهم المسموع وجعل شرفهم موقوفا عليهم وشرف من عداهم من جملة الموضوع ...وأشهد أن لا إله ألا الله وحده لا شريك له شهادة ...وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أنصح من جاء عن ربه مرسلا وأفصح من خاطب بوحيه حتى أمسى جانب الشرك متروكا مهملا.. وطاعن بالعوالي حتى استقام، وقوي متن الدين الصحيح. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وأصحابه الذين أبادوا المنكر، وأربى على المتفق والمختلف سنا مجدهم الأكبر صلاة معتبرة الإفراد دالة على أنهم في فضل الدنيا والآخرة نعم السّادة الأفراد)([3]).

والملاحظ انّه في هذه الخطبة قد أكثر من استخدام مصطلحات علم الحديث في سياقات مختلفة،وفي ذلك براعة في التّوظيف وتناغم مع الموضوع .

سادسا:خطابة المناظرات(الخطابة الدّفاعيّة)

وهي الخطابة الّتي كنت تتمّ حول المسائل العقديّة بالدرجة الأولى،والمسائل الفقهيّة بين كبار العلماء، وقد اشتهرت هذه الخطابة بين ابن تيمية وخصومه واشتدّت،وابن ايبك الدّاودار ينقل لنا مجالس محاكمة ابن تيميّة بناء على هذه الاختلافات،وأنقل جزءا من مجلس محاكمته بمصر أورده ابن أيبك في حوادث سنة 505م حيث قال: (عقد له مجلس في دار النّيابة بحضور الأمير سيف الدّين سلّار،وأحضروا العلماء والأئمّة القضاة الأربعة،وحضر الأمير ركن الدّين بيبرس.فتكلّم القاضي شرف الدِّين بن عدلان الشّافعيّ،وادّعى على الشيخ تقي الدّين دعوى شرعيّة في أمر عقيدته. فعند ذلك قام الشيخ تقي الدّين وحمد الله وأثنى عليه وتلجلج.ثمّ أراد أن يذكر الله ويذكر عقيدته في فصل طويل،فقالوا له : يا شيخ إلي بتقوله معلوم،ولا حاج إلى

([1])انظر:سلام،الأدب في العصر المملوكي15/2.

([2])خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقيّ، أبو سعيد، صلاح الدين: محدث، فاضل، بحاث. ولد وتعلم في دمشق، ورحل رحلة طويلة. ثم أقام في القدس مدرسا في الصلاحية سنة 731 هـ فتوفي فيها. انظر:الزركلي،الأعلام321/2.

([3])النعيمي،الدّارس48/1.

الإطالة، وأنت قد ادّعى عليك هذا القاضي بدعوى شرعيّة،أجب عليها.فأعاد القول في التّحميد وحاد عن الجواب،فلم يمكّن في تتمّة تحاميده.فقال : عند من هذه الدّعوى؟فقالوا: عند القاضي زين الدّن المالكي،فقال: عدوّي وعدوّ مذهبي...فعند ذلك حكم القاضي المالكي باعتقاله على ردّ الجواب،فقال الشيخ:" ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه...)([1]).

والظاهر لديّ أن الشيخ ابن تيمية أراد أن يعرض عقيدته عن طريق مقدّمة طويلة لخطبة،وذلك بذكر صفات اللّه على الوجه الّذي يعتقده ويخالف فيه الأخرون،وقد ذكر ابن أيبك العديد من الحوادث الأخر الّتي تدلُّ على ازدهار الخطابة الدّفاعيّة([2]).

وقد وجدت خطابة الثناء والشكر في هذا العصر؛فقد روي ابن فضل الله العمريّ لعليّ بن داود خطبة يشكر فيها كافل الممالك الشّاميّة في أوّل جمعة خطب فيها في الجامع السّيفي،وهذه مقتطفات منها:(الحمد لله منشئ أصناف الأمم وصانعها، ومؤلف أشلائها بعد العدم وجامعها، ومنطق جوارحها بما اخترجت وسامعها، وباعث هممها على الخير ووازعها ، ومجري سوابق آمالها في ميدان آجالها، نحو مطامع مطامعها الذي أجزل مواهب السعادة لمن شيّد بيوت العبادة، وشكر صنيع من قدح بالإحسان زناده؛ فوعده الحسنى وزيادة. وفضّل بقاع الأرض بعضها على بعض، فاعلى في الشّرف محلّها، وناط بها أسباب السيادة فاتخذها صالح عباده معاهد للعبادة. فطوبى لمن حلّها، وادّخر من القرب نفائس يحق في مثلها التنافس، ثم وفّق لها قوما كانوا أحقّ بها وأهلها...

أيّها الناس جدّوا في الطاعة قبل تعذّر الاستطاعة، وجذّوا حبائل الأطماع بمدى القناعة.فكم أطلعكم الدهر تقلّبه على الحقائق فاغفلتم اطّلاعه، وكم أسمعكم لسان حوادثه أبلغ المواعظ لو وعيتم إسماعه! فيالها غفلة شاملة، وأمنية باطلة وأطماعا كاذبة...)([3])

وما يترجّح لدى الباحث أنّ الخطبة كانت لشكر كافل الممالك الشّاميّة على إنشاء هذا المسجد؛لإشارته إلى شرف من أنشأ بيوت الله في مقدّمة الخطبة.والخطبة جاءت متماشية والطابع العامّ في العصر من التزام للمحسّنات البديعيّة وظهور واضح للعاطفة الدّينيّة،وهي من النّاحية الفنّية أفضل من خطب علي بن داود الأخرى الّتي ذكرت في الخطابة الدّينيّة.

([1]) ابن أيبك الدّاوادار،كنز الدرر(الفاخر في سيرة الملك النّاصر)137/9.

([2])انظر:ابن أيبك،كنز الدرر 133–145،النويري،نهاية الأرب 101/32–120 والنويري يذكر الحادثة والمناظرات بشكل موسع.

([3])انظر: ابن فضل الله العمري،مسالك الأبصار 205/7.

المبحث الرّابع:السّمات الفنيّة للخطابة في هذا العصر

بعد دراسة نماذج متنوّعة من الخطب في العصرين الأيّوبيّ والمملوكيّ الأوّل،واستعراض الظّروف السّياسيّة والحربيّة وما يترتّب عليها من انعكاسات ثقافيّة واجتماعيّة وعلميّة، وجد الباحث أنّ الخطابة في العصرين كانت متشابهة إلى حدٍّ كبير في دواعيها وموضوعاتها و وبنائها الفنّيّ ومدارسها الأدبيّة الّتي كانت تنسج على منوالها،إلّا أنّ الباحث لاحظ نقاط التّقاطع والافتراق التّالية على الخطابة في العصرين، فيما يخصّ موضوع الخطابة بشكل عامّ، والسّمات الفنّيّة الّتي تميّزها، وهي على النّحو التّالي:

1. تابعت الخطابة الحربيّة ازدهارها في العصر المملوكيّ؛ لتشابه الظروف السّياسيّة والعسكريّة، حتّى صار ذكر الجهاد والمقاومة من بديهيّات الخطابة الدّينيّة وخطابة الختمات وخطابة المبايعات،ناهيك عن الخطابة الحربيّة نفسها.

2. ازدهرت الخطابة الاجتماعيّة في هذا العصر أكثر ممّا كانت عليه في العصر الأيّوبيّ، وذلك للشّعور العام الّذي بدأ يسري في أوساط المجتمعات بالاستقرار الجزئيّ نظرا لتحوّل حركة الجهاد من دفاعيّة إلى هجوميّة، وتفاعل المهاجرين من العلماء والعامّة مع المجتمعات المستقبلة بشكل إيجابيّ، ممّا جعل تلك المجتمعات تعكس ألوانا مختلفة لعادات وثقافات مكوّناتها المختلفة الأمر الّذي أدّى إلى إثراء الخطابة الاجتماعيّة.

3. راوحت الخطابة السّياسيّة مكانها الّذي كانت عليه في العصر الأيُّوبيّ،حيث اقتصرت على خطابة السّفارات والوفود ووعظ الحكّام، ولاحظنا ازدهار خطابة البيعات أكثر مما كانت عليه في العصر الأيّوبيّ؛ بسبب إحياء الخلافة العبّاسيّة في القاهرة.

4. شهدت خطابة الوفود نوعا من التّراجع نظرا لانتقال الخلافة إلى القاهرة،فضلا عن وجود مرجعيّة واحدة للدّولة المملوكيّة في القاهرة متميِّزة في ذلك عن الدّولة الأيّوبيّة الّتي أنهكها الصّراع على السّلطة بين أقطاب البيت الأيّوبيّ،الأمر الّذي تطلّب نشاط السّفارات للإصلاح بينهم. كما أنّ خطب الوفود والسّفارات في هذا العصر جاءت أقصر ممّا كانت عليه في العصر الأيّوبيّ؛ولعلّ الظّروف المحيطة هي الّتي كانت تتحكّم في هذه المسألة.

5. انقسمت الخطب الّتي قيلت في هذا العصر إلى قسمين من حيث الارتجال: فمنها وهو القسم الأكبر ما كان معدًّا مسبقا وهذا النّوع كان يظهر في : الخطب الدّينيّة الراتبة في الجمع والأعياد، وخطب النّكاح المكتوبة، وخطب السّفارات والبيعات،أمّا القسم الآخر فهو الّذي كان يقال بديهة،ويتمثّل بشكل أساسيٍّ في الخطب الحربيّة،وخطب الوعظ الدّينيّ،وخطب الإنكار على الحكّام الوعظيّة وخطب المناظرات.وهذا التّقسيم نفسه الّذي كانت عليه الخطابة من حيث الارتجال في العصر الأيّوبيّ،إلّا أنّ عنصر الارتجال كان ظاهرا أكثر في العصر الأيّوبيّ؛فكما لاحظنا أنّ خطبة النّكاح الّتي ألقاها "ابن الرّفاء" والد الشّرف الأنصاري شيخ الشّيوخ كانت مرتجلة، كما أنّ خطبة محيي الدّين بن زكي الدّينيّة تميّزت بأنّها قيلت بديها ولم يكن محيي الدّين ابن زكي متوقِّعا أن يتمّ اختياره للخطابة في ذلك اليوم.

6. لم يصل إلينا الكثير من الخطب الّتي قيلت في هذا العصر،للأسباب نفسها الّتي حالت دون وصول الكثير من الخطب إلينا في العصر الأيّوبيّ، إلّا أنّها في مجملها تعدّ أكثر من خطب العصر الأيّوبيّ؛والباحث يعزو ذلك إلى شيوع حالة من الاستقرار النّسبيّ في المجتمع جعلت حفظ هذه الخطب أيسر ممّا كان عليه في العصر الأيّوبيّ.

7. انتشرت ظاهرة الخطابة من إنشاء الآخرين بشكل أكبر في العصر المملوكيّ؛ فخطبة الخليفة في بيعة الظاهر بيبرس وبيعة الأشرف خليل بن قلاوون كانت من إنشاء شرف الدّين الفزاريّ،وهناك العديد من الخطب من هذا القبيل.

8. لوحظ أنّ الوعظ الصّوفيّ في العصر المملوكيّ الأوّل بدأ يخرج من حلقاته الضّيّقة المقتصرة على المريدين إلى التّوجُّه نحو الوعظ العامّ الّذي يشمل الجميع،وفي وعظ ابن عطاء الله الإسكندريّ خير دليل على ذلك.

9. كان للوعظ الدّينيّ العام في مجالس الوعظ تأثيرا لا بأس به في المجتمع، ومواعظ عبد السّلام أحمد شاهدة على ذلك،إلّا أنّها لم تحظ بنفس التّأثير الجماهيريّ الشّعبي الّذي كانت تحظى به مجالس سبط ابن الجوزيّ وابن نجا وجمال الدّين أبو الفرج ابن الجوزيّ.

10. تشابهت الخطابة في العصر المملوكيّ الأوّل في كثير من السمات الفنّيّة الخاصّة مع الخطابة في العصر الأيّوبيّ من حيث: الالتزام بالبناء الفنّي للخطبة من حيث المقدّمة والعرض

والخاتمة، وتناسب المقدِّمة مع موضوع الخطبة،واحتشاد الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة والأمثال الدِّينيّة في الخطب، ناهيك عن العاطفة الدّينيّة الجلِيّة الّتي تسود سائر أنواع الخطب،بالإضافة إلى استمرار ظهور المذهبين الفنِّيَّين المشهورين : مذهب الخطيب الحصكفيّ الّذي يهتمّ بالتأنق اللّفظيّ والمحسّنات البديعيّة حتّى ولو كان ذلك على حساب المعنى،ومذهب العزّ بن عبد السّلام الدّاعي إلى التخلّص من الصنعة اللّفظيّة وإطلاق الخطابة مسترسلة متدفّقة.

11. مع وجود نقاط التّشابه المشار إليها آنفا؛ إلّا أنّ الباحِث لاحظ ما يلي فيما يخص السّمات الفنّيّة المميِّزة للخطابة:

أ. بروز اتّجاه فنّي جديد في الخطابه يتبنّى المذهبين الفنّيّين ويتوسّط بينهما في إنتاج خطاب مسترسل متدفّق تظهر في أثنائه اللّمسات البيانيّة الّتي تخدم المعنى،والمحسِّنات البديعيّة الّتي تضفي جرسا موسيقيًّا ومظهرا أدبيًّا رشيقا متناغما والسّياق. وظهر هذا المذهب في خطابة ابن المنير الإسكندرانيّ بشكل أساسيّ، والخليفة العبّاسيّ.

ب. خلوّ الخطب الحربيّة من المقدِّمات في هذا العصر،وهذا يتجلّى في خطب قطز وابن تيميّة بعكس ما كانت عليه في العصر الأيّوبيّ،حيث كانت تحتوي على مقدِّمة قصيرة؛والباحث يرى أنّ السّبب في ذلك يرجع إلى أنّ الخطب الحربيّة الّتي نقلت إلينا في هذا العصر لم تلق في مجلس للتّشاور، بل أُلقيت إمّا في ميدان الجهاد نفسه،أو من فوق الخيل في معرض الحثّ على الجهاد والتّشجيع له،وهذا يستدعي التّوجّه نحو الهدف مباشرة.

ت. ظهرت الصّنعة اللّفظيّة في خطب الوعظ والإرشاد مثلما عاينّا في خطب عبد السّلام أحمد،وعلي بن داود على عكس ما كانت عليه خطب الوعّاظ في العصر الأيّوبيّ؛ولعلّ هذا ما يفسّر فقدانها نسبة من تأثيرها الجماهيريّ الّذي كانت تتمتّع به في العصر الأيّوبيّ.

هذا ما استطاع الباحث أن يلمسه من ملامح عامّة للخطابة في العصر المملوكيّ الأوّل،ومن سمات فنّيّة مميّزة لها.وسأنتقل في الصّفحات القادمة لعرض نموذجين من عيون الخطب في العصرين بشيء من التّحليل الأدبي اللغويّ؛ الّذي ربّما قد يساهم في الكشف عن مكنونات هذه الخطب،وإبراز مزيد من سماتها الفنّيّة والأدبيّة وأسرارها التّركيبيّة اللغويّة.

الفصل الخامس
التّحليل الأدبي

المبحث الأوّل: تحليل خطبة ابن زكي القدسيّة

المبحث الثاني : تحليل خطبة رامي النّشّاب للشّهاب محمود

النتائج والتّوصيات

المبحث الأوّل: تحليل خطبة ابن زكي في فتح القدس

أولا: التعريف بخطبة ابن زكي

هي الخطبة الّتي ألقاها محيي الدّين ابن زكي[1] في المسجد الأقصى بعد تحريره في السابع والعشرين من رجب سنة 583هـ[2]،وقد ألقيت الخطبة في أوّل جمعة بعد الفتح أي في الرّابع من شعبان سنة583هـ[3]،وكان يوم التّحريريوم جمعة،وساعة دخول القدس كانت ساحة حلول وقت الصّلاة،إلّا أنّ المسلمين لم يستطيعوا إقامة الخطبة في المسجد الأقصى في ذلك اليوم؛وذلك لأنّ المسجد الأقصى لم يكن معدًّا للصّلاة،ولانشغال المسلمين بالفتح والسّيطرة على المدينة فتمّ الاشتغال بالأولى[4].

وكان ابن زكي قد تنبّأ بفتح القدس في رجب،وذلك عند فتح السّلطان صلاح الدّين الأيّوبي حلب سنة 579هـ[5]،ولقد استند على نبوءة لابن برّجان[6] في تفسيره[7]،فتقدّم ابن زكي وعمل قصيدة مدح فيها السّلطان بمناسبة فتحه لحلب وذكر فيها النبوءة قائلا :

وفتحكم حلبا بالسّيف في صَفر مبشِّر بِفُتوح القُدسِ في رَجَب[8]

وشرّف السلطان صلاح الدّين القاضي ابن زكي باختياره ليكون أوّل خطيب يخطب بالمسجد الأقصى بعد تحريره لنبوءته السابقة حسب ما صرّح به الكثير من العلماء[9].وقد(أعجب القدماء بهذه الخطبة البديعة البليغة الهامّة)[10]،و ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار هذه الخطبة أهمّ نصٍّ خطابيّ بقي لنا من ذلك العصر[11]، بل ذهب عبد اللّطيف حمزة إلى أبعد من ذلك حيث

([1]) تمّ التّعريف بابن زكي في فصل "الخطابة في العصر الأيّوبيّ" مبحث "أشهر خطباء هذا العصر".

([2]) انظر: المقريزي،السلوك 210/1.

([3]) المصدر السّابق 210/1.

([4])انظر : أبو شامة، الروضتين 221/3.

([5]) انظر: ابو شامة الروضتين 103/3-111.

([6])عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الإشبيلي، أبو الحكم(000 - 536 هـ): متصوف، من مشاهير الصالحين. له كتاب في " تفسير القرآن - خ " أكثر كلامه فيه على طريق الصوفية لم يكمله، توفي بمراكش.انظر: الزركلي،الأعلام 6/4.

([7]) انظر: االبواعنة،دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزوالفرنجي(الصّليبيّ)للمشرق الإسلامي ص183-186،فهو يذكر قصّة النبوءة بتفاصيلها ويقوم بتحليلها ونقدها مرجّحا أن يكون ما تنبأ به ابن برجان قد أضيف إلى تفسيره فيما بعد،وليس من أقواله.

([8]) الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل 317/1،وانظر:أبو شامة،الروضتين 111/3.

([9]) انظر: عبد المهدي، عبد الجليل (1989).ابن زكي وخطبته القدسية.مجلة مجمع اللغة العربيةالأردني،السنة الثالثة عشرة، العدد 36،ص191.

([10]) الباشا، الأدب في بلاد الشّام ص723.

([11]) أحمد بدوي، الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصّليبيّة بمصر والشّام ص382.

وصفها بأنّها من الخطب الّتي ألقيت إبّان الحروب الصليبيّة و:(لم نعرف لها نظيرا في الأدب العربيّ،غير خطب ابن نباتة صاحب سيف الدّولة)[1].وهو يعني أنّه لم نشهد لها مثيلا في الخطب الّتي ألقيت خلال فترة الحروب الصّليبيّة.

والباحث يرى أنّ هناك عدّة عوامل تضافرت في إعطاء هذه الخطبة الأهميّة الّتي حظيت بها،وهي: المناسبة الّتي ألقيت فيها الخطبة، والنّسج المحكم لغويّا الرّائق بلاغيًّا وجماليًّا،والاعتقاد السّائد بأنّها كانت مرتجلة [2]منح لها قيمة فنّيّة تضاهي إلى حدٍّ كبير ما قيل من خطب في العصور الذّهبيّة للخطابة،كما أنّها تعدّ نموذجا جليًّا للخطابة الدّينيّة الّتي اشتملت على مواضيع سياسيّة وعسكريّة.

ثانيا: جوّ الخطبة

ساد جوٌّ من الفرح الغامر قلوبَ المسلمين،بسبب النّصر والتّمكين، واحتشدت جموع غفيرة من المصلّين لحضور أوّل جمعة في الأقصى بعد الفتح،وكان منهم ثلّة من العلماء الّذين رشّحوا أنفسهم للخطبة في جمعة الفتح،وأخذوا لذلك أُهبته، (وجهز كلٌّ واحد منهم خطبة بليغة، طمعا في أن يكون هو الّذي يعيّن لذلك)[3]،والعماد الكاتب يصوّر هذا الجو بأسلوب أدبيّ حيث يقول:(ولَما أَصبَحْنَا يَوْم الْجُمُعَة وجدنَا الْعِلَل مزاحة، والهمم مراحة، والخواطر إِلَى وردهَا ملتاحة مرتاحة، وَهُنَاكَ فضلاء بلغاء وعلماء أتقياء وكلّ مِنْهُم قد سبق بِخِطْبَة الْخُطْبَة، وأمل الْفَوْز بفضيلة تِلْكَ الرُّتْبَة، وَأعد لذَلِك الْمقَام مقَالا... واستعبرت للفرح بِمَا يسرّه الله الْعُيُون، وآن لدين الله أَن تقضى لَهُ الدُّيُون وَتَفُك الرهون، ووجلت الْقُلُوب وخشعت الْأَصْوَات وَحسنت الظنون)[4]،فلمّا حان وقت الخطبة نصّ على القاضي محيي الدّين بن زكي[5] ؛فنال هذا الشّرف، وألقى خطبة بليغة ابتدأها بسورة الفاتحة،ثمّ بالتحميدات من عدّة سور، ثمّ جاء بالخطبة الأولى،أتبعها باستراحة ثمّ جاء بالخطبة الثّانية،واختتمها بالدّعاء للمسلمين وللسّلطان.

([1]) حمزة،أدب الحروب الصّليبيّة ص214.

([2])انظر: عبد المهدي،ابن زكي وخطبته القدسيّة ص192، فهو يرجّح كونها مرتجلة استنادا إلى ما أورده الصّفدي في حقّ ابن زكي بأنّه لم يكن(قد استعدّ لها،بل خرج إليه،وقد أذّن المؤذّنون على السّدّة،وسأله السّلطان أن يخطب ويصلّي بالنّاس،وهذا مقام صعب) انظر: الصفدي،الوافي بالوفيّات 122/4.

([3]) ابن خلّكان،وفيات الأعيان 230/4، الحنبلي،الأنس الجليل 332/1.

([4]) أبو شامة،الروضتين 247/3.

([5]) انظر : ابن كثير،البدايةوالنهاية 589/16.

ثالثا: البناء الفنّي للخطبة

جاءت الخطبة في بنائها الفنّيّ متوافقة تماما مع ما كان معهودا بالنّسبة للبناء الفنّي للخطب بشكل عامّ من وجود مقدّمة تتناسب وموضوع الخطبة،وعرض يحتوي على الأفكار الأساسيّة للخطبة،وخاتمة شكّلت الخطبة الثّانية أهمّ مكوّن لها،فضلا عن الجلسة بين الخطبتين الّتي تعتبر ركنا أساسيًّا في خطب المناسبات الدينيّة.

أمّا المقدّمة فقد جاءت متميّزة ببراعة استهلال تجذب الأسماع والأنظار لما سيقال،حيث كانت البداية بسورة الفاتحة المصدّرة بالحمد الخالد، ومن ثمّ بكلمات ذات وقع قويٍّ توحي بأن بيانا عسكريًّا سيتمّ إلقاؤه،وهذه الكلمات هي قوله تعالى:(فقطع دابر القوم الّذين ظلموا والحمد لله ربِّ العالمين)[1]،ثمّ أُتبِعَت بتحميدات الكتاب العزيز[2]الّتي تعكس الحالة الشّعوريّة الوجدانيّة الغامرة للمكان والشّخوص والزّمان.

ثمّ كان العرض الّذي عَمَد فيه إلى الإطناب المتناغم مع الحدث الجلل،مع التّدليل الّذي استند بشكل أساسيٍّ إلى آي القرآن الكريم، والمعاني المستوحاة من النّصوص الشّرعيّة والتّراث الدّينيّ،وقد اشتمل العرض على الأفكار الأساسيّة في الخطبة الّتي من أهمّها: الحديث عن الجهاد وبيان فضيلة المسجد الأقصى والقدس بشكل عامّ،وبيان الشّرف الّذي حازوه بوقوع الاختيار الإلهيّ عليهم بأن يكونوا في طليعة الجيش الفاتح الّذين ذكرهم اللّه فيمن عنده،وتهنئتهم على هذا الفتح،وحثِّهم على الشّكر الّذي يوجب دوام النّعم ومزيدا من الفتوحات،وحذّرهم من العجب والغرور،بل ومن أن يُتَّخذ الفتح ذريعة للنّشوة والزّهو واقتراف المعاصي واتّباع الشّهوات، لأنّ النّصرمن عند الله.وحثّهم على الجهاد ورغّبهم فيه،وحذّرهم من النّكوص والتّولي بعد التّمكين.

وكانت الخاتمة بالجزء الثّاني من الخطبة الّتي اشتملت على الدّعاء للسّلطان وللمسلمين بما فيه صلاح الدّنيا والدّين، وبما فيه الدّعوة إلى تحرير ما تبقّى من أراضٍ في أيادي الصّليبيّين.هذه إطلالة عامّة على الخطبة سيقوم الباحث بإتباعها بعرض كامل للخطبة على أجزاء ؛ لكي يسهل تقسيمها حسب الأفكار،وليتمّ تناول أجزائها بالتحليل الأدبي اللغويّ الشّامل.

([1]) سورة الأنعام 45.

([2]) السبكي،طبقات الشافعية الكبرى 158/6.

رابعا: عرض الخطبة[1] مع التحليل

سيقوم الباحث بعرض الخطبة معتمدا على رواية واحدة لها؛لعدم وجود اختلافات جوهريّة في نسخها المختلفة،ولئلا يكون هناك حياد عن المقصد الأساسيّ لعرض الخطبة وهو التّحليل وليس التّحقيق،وسيعتمد الباحث نسخة ابن خلّكان في العرض؛لاشتمالها على النّصّ الكامل للخطبة .

أ. **المقدِّمة: اشتملت على التحميدات الّتي استشهد لها من آي الذّكر الحكيم**

فلمّا رقِي المنبر استفتح بسورة الفاتحة، وقرأها إلى آخرها، ثم قال: (فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)[2]، ثم قرأ أول سورة الأنعام: (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)[3]، ثم قرأ من سورة سبحان: (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا)[4]، ثم قرأ أول الكهف: (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) الآيات الثلاث[5]، ثم قرأ من النمل: (وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)[6]، ثم قرأ من سورة سبأ: (الحمد لله الذي له ما في السموات)[7]، ثم قرأ من سورة فاطر: (الحمد لله فاطر السموات والأرض)[8]، وكان قصده أن يذكر جميع تحميدات القرآن الكريم[9]

لقد كانت البداية بسورة الفاتحة تحاكي الحالة المجتمعيّة السّائدة بعد الفتح من حمد الله وشكره على مستوى الأفراد والجماعات تمامًا كسورة الفاتحة التي تلهج بها ألسنة المسلمين يوميًا أفرادا وجماعات معلنة الحمد الأزليّ اللائق بصفات الله، والواجب لذات الله الذي هدانا للصّراط المستقيم، والذي لولاه لما كان بالإمكان التّغلّب على المنحرفين عن الصّراط القويم، وتحقيق النّصر المبين.

([1]) انظر نصّ الخطبة في:أبو شامة، الروضتين في أخبار الدّولتين 148/3-253،ابن خلكان،وفيات الأعيان 230/4-235،الحنبلي،الأنس الجليل 232/1-238،اليافعي،مرآة الجنان وعبرة اليقظان282/3-284، الحنبلي،شفاء القلوب 146-152

([2]) ورة الأنعام 45.

([3]) سورة الأنعام 1.

([4]) سورة الإسراء111.

([5]) سورة الكهف 1-3 .

([6]) سورة النمل 59

([7]) سورة سبأ 1،2 ذكر ذلك في شفاء القلوب 146.

([8])سورة فاطر 1 .

([9]) هذا من كلام ابن خلّكان.

والفاتحة فيها بيان للمنهج الصّحيح الذي ارتضاه الله لعباده، وهو الصّراط المستقيم الذي ما سلكه أحد إلا فاز بالرّضى الأزليّ، وأصبح أهلًا للنّفحات الربّانيّة، وللنّعم السّرمديّة، كما أنّ الفاتحة تبيّن المناهج المرجوحة التي حادت عن الطّريق القويم؛ فباءت بالخسران والضّلال والغضب الأزلي ما دامت تصرّ على مناكفة أنوار الحقائق اللدنيّة التي أصبحت متمثّلة في أهل النّعم والقرب من سالكي الصراط المستقيم، والذين ما حادّهم أحد إلّا قرع سنّه ندمًا على ما بدر منه بحقّهم، وهذا تمامًا ما حدث للصّليبيّين في عاقبة الأمر "ولله عاقبة الأمور" (1).وفي سورة الإسراء دلالة أوضح على قدسيّة هذه المدينة المحرّرة، ومكانتها الشّريفة في ديننا، وهكذا يسهب ابن زكي في ذكر آيات الحمد من القرآن والّتي غالبًا ما تتبع ببيان فضل الطّريق القويم على باقي الطّرق المنحرفة، ونعمة الله على عباده من سالكي هذا الطّريق بالنّصر والهدى والتّمكين. وهذه الآيات القرآنيّة الّتي ابتدأت بها الخطبة كانت(ذات معان متوائمة مع موضوع الخطبة،لتكون استهلالا لها،ومدخلا سهلا إلى النّفوس)(2).

ب. متابعة للمقدّمة:(ثم شرع في الخطبة، فقال: الحمد لله معزّ الإسلام بنصره، ومذل الشّرك بقهره، ومصرّف الأمور بأمره، ومديم النّعم بشكره، ومستدرج الكفار بمكره، الذي قدّر الأيّام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتّقين بفضله، وأفاء على عباده من ظلّه، وأظهر دينه على الدين كلّه، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظّاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهير بيته المقدّس من أدناس الشّرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، شهادة من طهّر بالتّوحيد قلبه، وأرضى به ربّه، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله رافع الشّك، وداحض الشرك، وراحض(3) الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى إلى سدرة المنتهى، عندها جنّة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى، صلّى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السّابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصّلبان، وعلى أمير

---

(1) سورة الحج 41

(2) ابن وهب الكاتب،اسحق بن سليمان(1969م).البرهان في وجوه البيان.ط1،القاهرة:مكتبة الشباب،تح:حفني شرف،153/2.

(3)رَحَضْتُ يدي وثوبي أَرْحَضَهُ رَحْضاً: غسلته. والثوبُ رَحيضٌ ومرحوض. والمِرْحاضُ: خشبةٌ يُضْرَبُ بها الثوبُ إذا غُسِلَ. والمِرْحاضُ: المُغْتَسَلُ. انظر: الجوهري،الصّحاح باب رحض. في شفاء القلوب "داحض الإفك".

المؤمنين عثمان بن عفان ذي النّورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشّرك ومكسّر الأوثان، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان)

ثم يستمرّ في مقدمة خطبته حامدا الله بتحميدات من إنشائه على النّعم المتّعدّدة التي أفاء بها على عباده، لا سيّما نعمة النّصر والظفر، وقد أطنب في ذكر الحمد تناغما مع الموقف،وتأكيدا على شعور المسلمين الصّادق نحو ربّهم الّذي حباهم بهذه النّعمة،ويقينهم بقدرته المطلقة على تحقيق النّصر والتّمكين.

وقد ركَّز ابن زكي في تعداده للصّفات الموجبة لحمد الله على استخدام صيغة "اسم الفاعل" العامل فيما بعده نحو: معزّ،مذلّ، مصرّف،القاهر، الحاكم...؛ وذلك لأنّها أقوى في التّعبير من الفعل المضارع أو الماضي، كما أنّها تدلّ على الوصف وعلى الحدث الملازم لذلك الوصف، وقد كانت المقدّمة متناغمة تمامًا مع موضوع الخطبة والحدث الجلل الذي رقصت له قلوب المسلمين فرحًا وطربًا، وحلّقت له أرواحهم لاهجة بحمد الله.

والمقدّمة التي استهلّ بها خطبته ذات وقع قوي، كأنّها موسيقا حربية شجية تعلن النّصر والتمكين، والسّجع الذي استخدمه في هذه المقدّمة سجع مقبول غير متكلّف لا يجعل الألفاظ أسيرة للمعاني، بل تنساب المعاني بسلاسة طبيعية في قوالبها المتناغمة مع الحدث والسياق والجِرس الموسيقي الذي يشعر النفس بنشوة النصر التي غمرت الزمان والمكان والشخوص، فوحَّدت المشهد الذي سجد كل شيء فيه حامدا الله.

وقد اتّفق في إيراد هذه السّجعات مع ما شرطه ابن الأثير في بيان السّجع المقبول غير المتكلّف حيث قال: (وأمَّا إذا كان محمولًا على الطبع غير متكلَّف فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام)(1)، وفي كونه تابعا للمعنى قال:(أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموّه، على باطن مشوّه)(2).

---

(1)ابن الأثير،ضياء الدِّين(د.ت).المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر.(د.ط)،القاهرة:دار نهضة مصر للطباعة والنّشر،تح:أحمد الحوفي،بدوي طبانة 213/1.

(2) انظر: المصدر السّابق، 213/1.

وفي السّجع الّذي أورده ظهر بعض التّرصيع[1] في قوله: داحض الشرك، وراحض الإفك. وقد ترافق هذا التّرصيع مع الجناس غير التّامّ في لفظتي:الشّكّ والشّرك،وداحض وراحض،وفي ذلك زيادة حسنة حسب ما أورده ابن حجة الحمويّ[2].

وهو يمضي في مقدمته للتأكيد على المعاني العقديّة التي ذكرها سابقًا، من جعْلِ دينه ظاهرًا على الدين كله، ومن كون أمره لا يردّ ولا يعاند، مما يستوجب الحمد الأبديّ اللائق بجلاله وعظمته، والذي يلامس شغاف القلب فيملؤه سكينة ورضى.

وبعد ذلك أتى بالشّهادة التي تعتبر من أركان الخطبة وأسسها، وذكر النّبيّ_ صلّى الله عليه وسلم_ وهو ما درج عليه الخطباء في بنائهم الفني لخطبهم، والذي التزم به ابن زكي في كل جزء من أجزاء خطبته.

وقد أثنى على النبي _صلى الله عليه وسلم_ بذكر صفاته نحو: رفع الشك، ودحض الشرك ...، وهي صفات متناسبة تمامًا مع الموضوع والحدث؛ حيث إنّ الفتح يمثل دوامًا لنهج النبي صلى الله عليه وسلم في رفع الشك الذي حاول الصّليبيون بثّه، وفي دحض الشّرك الذي دنّسوا به المسجد الأقصى، كما أنّه ذكر حادثة الإسراء والمعراج؛ لإظهار حقِّ المسلمين في هذا المكان المقدَّس الذي يمثل جزءًا من عقيدتهم ومقدساتهم بارتباطه ارتباطًا وثيقًا بشخصيّة النبي صلى الله عليه وسلم.

ونراه يذكر الخلفاء الراشدين بصفات متناغمة مع الحدث، مما يساهم في رسم وحدة موضوعية واضحة الخيوط تجعل الخطبة تظهر كأنّها لوحة فنية شديدة الترابط لا يعتريها تنافر أو شذوذ، وهذا مما يقوّي الاعتقاد لديّ بأن الخطبة كانت معدّة مسبقًا بعناية أدبية فائقة، لكنّها أُلقيت ارتجالًا.

وقد جاءت ألفاظه واضحة ذات إيحاء خاصٍّ يرتبط بالتّراث الدّينيّ والتّاريخيّ في وعي المتلقِّين،ويستدعي المعاني العزيزة الّتي طالما جاشت بها نفوسهم وقلوبهم،واحتفظت بلذّتها الخاصّة في شعورهم.

([1])هو عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت، أو فقرة النثر، بلفظة على وزنها ورويها، ومن أمثلته الشريفة في الكتاب العزيز قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}. انظر: ابن حجة الحموي،تقي الدّين أبو بكر(2004م).خزانة الأدب وغاية الأرب.الطبعة الأخيرة،بيروت: دار ومكتبة الهلال، تح:عصام شقيو 409/2.

([2]) انظر: المصدر السابق 409/2.

ت. الالتفات نحو المؤمنين بالخطاب والتذكير بفضله عليهم، وبيان مكانة المسجد الأقصى.

(أيها النّاس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدّرجة العليا؛ لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضّالّة، من الأمة الضّالّة، وردّها إلى مقرّها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشّرك عن طرقه بعد أن امتدّ عليها رواقه واستقرّ فيها رسمه، ورفع قواعده بالتّوحيد،فإنّه بني عليه وشيّد بنيانه بالتّمجيد، فإنّه أسّس على التّقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيّكم محمّد عليه الصّلاة والسّلام، وقبلتكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومدفن الرّسل ومهبط الوحي، ومنزل به ينزل الأمر والنّهي، وهو في أرض المحْشر وصعيد المنْشر،وهو في الأرض المقدّسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الأقصى الذي صلّى فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلم بالملائكة المقرّبين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم، وروحه عيسى الذي كرّمه برسالته وشرّفه بنبوّته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديّته، فقال تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون)[1]. كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيدا (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون)[2]، (لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم)[3] إلى آخر الآيات من المائدة، وهو أوّل القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشدّ الرّحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه،فلولا أنّكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه،من سكّان بلاده، لما خصّكم بهذه الفضيلة الّتي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم(ترادف) في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النّبويّة، والواقعات البدريّة، والعزمات الصّدّيقيّة، والفتوحات العمريّة، والجيوش العثمانية، والفتكات العلويّة، جددتم للإسلام أيام القادسيّة، والملاحم اليرموكيّة، والمنازلات الخيبريّة، والهجمات الخالديّة، فجزاكم الله عن نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء)

والآن يلتفت إلى النّاس مبشّرًا إياهم ببلوغهم درجة استحقاق الرضى الإلهيّ بتحقيق هذا الفتح على أيديهم، وهي غاية مطالب المحبين ناشدي القرب، ولكأنّي بهم وهم يستمعون إلى هذه

([1])سورة النّساء 173.

([2]) سورة المؤمنون 91.

([3]) المائدة 72.

الكلمات الرقراقة التي انسابت بردًا وسلامًا إلى قلوبهم الحرّى لنظرة رضى من الكريم الجليل، وهو في هذه الالتفاتة المبشّرة يرصّع خطابه بجناس تامّ ذي دلالة رائعة؛ حيث يبيّن أنّ القدس كانت ضالّة "ضائعة" بسبب وجودها في قبضة الأمة الضّالّة، وأنها كادت تبدو في ظاهرها بمظهر المدينة الضّالّة بسبب ما أحدثه الصّليبيّون فيها من رسومات وتغييرات توافق مذهبهم،فضلا عمّا في ذلك من صورة فنّيّة ترتكز على الاستعارة التصريحيّة في تشبيه القدس بالدّابّة الضالّة الّتي كانت تقودها أمّة ضالّة؛ممّا يسبب الاشمئزاز في نفوس المتلقّين من الصّورة الماضية،والاستبشار بنعمة الله سبحانه وتعالى باستردادها، وبعد ذلك قام بالتّركيز على ما ألحقه الاحتلال الصّليبيّ بالقدس من محاولات لإرساء مبادئه وتعاليمه؛ مما حتّم على جيش الفتح أن يقوم بواجبه في التّحرير والتّطهير، وإماطة الشرك، ورفع قواعد التوحيد من جديد، وقد استعمل المقابلة في (من خلفه ومن بين يديه) للدلالة على أنّ هذا المسجد يجب أن يكون دائمًا معمرًا بالتقوى ولا يسمح لأحد غير المتّقين بإدارة أموره.

ومن ثَمّ يشرع في بيان فضائل المسجد الأقصى، وعلاقة المسلمين الوثيقة به، فهو موطن أبينا إبراهيم، ومعراج النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو المكان الذي شرّف الله _سبحانه وتعالى_ فيه عبده ونبيّه عيسى عليه السّلام بتكليفه برسالة السماء، فهو شاهد على تلك الرسالة وتلك الأحداث. ويلفت انتباههم إلى أنّهم ممّن اصطفاهم الله واختارهم لهذه الفضيلة ألا وهي فتح بيت المقدس، ولم يهبها الله لغيرهم من عباده.وهو في ذكره للفضائل أضاف لمسة فنّيّة لطيفة وهي مراعاة النّظيرنحو: هو أوّل القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين.

ومن الصّور الأدبيّة الفنّيّة الأخرى الّتي برزت في هذا الجزء من الخطبة والّتي ترتكز على التّشابيه والاستعارات:"ردّها إلى مقرّها من الإسلام"،"إماطة الشّرك من طرقه"،"امتدّ عليها رواقه"،"استقرّ فيه رسمه"، "كلمته الّتي ألقاها"، ظهرت على أيديكم المعجزات النبويّة،رفع قواعده بالتوحيد،أسّس على التّقوى،تنزّل الأمر والنّهي، بذلتم من مهجكم.

ومن الكنايات الّتي ارتكزت على استلهام الموروث الدّينيّ والثقافيّ: "شدّ الرّحال" كناية عن السّفر،و"عقد الخناصر" كناية عن العزم على فعل شيء وهو التّحرير هنا،امتدّ عليها الرّواق كناية عن السّيطرة. وقد استخدم الخطيب المجاز المرسل أيضا لإضفاء مزيد من اللّمسات البيانيّة على خطبته نحو: رسوله "وكلمته"،"وروحه" عيسى.

وبالإضافة إلى الاستشهاد الواضح بآيات القرآن الكريم،كان هناك اقتباس بيّن للآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة نحو: "أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه" اقتباس للآية الكريمة (في بيوت أذن الله أن ترفع)[1]،و "لا تشدّ الرّحال بعد المسجدين إلا إليه" اقتباس للحديث النّبويّ الشريف " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد"[2].

وقد كان الإطناب بيّنا في هذا القسم من الخطبة،مع وضوح في العبارة؛ فمرّة كان الإطناب بالتّرادف اللفظي نحو: بنى وشيّد،اختاره واصطفاه،يجاريكم ويباريكم،ومرّة بالتّرادف المعنوي نحو:الغاية القصوى والدّرجة العليا،رفع قواعد التّوحيد وشيّد بناءه بالتّمجيد،ومهبط الوحي ومنزل به ينزل الأمر والنّهي،ومرّة بالتّفصيل والشّرح نحو: وهو مقرّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومدفن الرّسل ومهبط الوحي؛وذلك لتأكيد المعاني التي ذكرها.كما أنّ في استخدام الجمل الخبريّة ذات المعنى الإنشائي مزيد من تثبيت المعاني نحو:فطوبي لكم،تقبّل الله منكم.

وفي استخدام اسم المكان المرتبط بالمعاني الدّينيّة التّاريخيّة لوصف المسجد الأقصى نحو: مهبط،مقرّ،موطن،مقصد... دلالة عميقة على ثبات واستقرار هذا المكان في ثقافة المسلمين وعقيدتهم وعدم تصوّر انفصاله عنهما.

ومن التشكيلات الجماليّة في هذا الجزء تلك السّجعات القصيرة المتتابعة الخفيفة ذات الوقع الإيجابيّ على النّفس نحو: الوقعات البدريّة،الهجمات الخالديّة،والفتوحات العمريّة، وهي سجعات في مجملها ما زادت على عشرة؛ ممّا يجعلها مقبولة غير ممجوجة[3]،ولقد عدّها عبد اللّطيف حمزة من عناصر قوّة الخطبة حيث وصفها بأنّها: (تلك السّجعات القصار الّتي تقرع الأسماع قرعا قويًّا،والّتي كان يأتي بها الخطيب من آن لآخر)[4].

ث. تذكير المؤمنين بعظم هذه المنّة ووجوب شكر الله عليها

(فاقدروا رحمكم الله هذه النّعمة حقّ قدرها، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها، فله تعالى المنّة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب

([1]) سورة النّور 36.

([2]) البخاري، محمد بن إسماعيل(2001م).صحيح البخاري.ط1، دار طوق النّجاة، تح: محمد زهير 60/2.

([3]) انظر:عبد المهدي،ابن زكي وخطبته القدسيّة ص209

([4]) عبد اللطيف حمزة،أدب الحروب الصّليبيّةص212.

السماء،وتبلّجت(1) بأنواره وجوه الظلماء،وابتهج به الملائكة المقربون، وقرّ به عينا الأنبياء، والمرسلون، فماذا(له)(2) عليكم من النّعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح على يديه البيت المقدس في آخر الزمان، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النّبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله، وأن تكون التهاني لأهل الخضراء، أكثر من التّهاني لأهل الغبراء،أليس،هو البيت الذي ذكره الله في كتابه، ونصّ عليه في محكم خطابه، فقال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)(3)، أليس هو البيت الذي عظّمته الملل، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله تعالى لأجله الشّمس على يوشع أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله عزّ وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم في التّيه عقوبة للعصيان؟ فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم،لما نكلت(4) عنه بنو إسرائيل، وقد فضلت على العالمين، ووفقكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى،فليَهْنِكُم،أنّ الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لأهويتكم جنده،وشكر لكم الملائكة المنزلون، على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التّوحيد،ونشر التّقديس،والتّمجيد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشّرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث،فالآن تستغفر لكم أملاك السّموات، وتصلّي عليكم الصّلوات المباركات، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النّعمة عندكم، بتقوى الله الّتي من تمسّك بها سلم،ومن اعتصم بعروتها(5)،نجا وعصم، واحذروا من اتّباع الهوى،وموافعة الرّدى، ورجوع القهقرى،والنّكول عن العدا، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصّة،وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا –عباد الله– أنفسكم، في رضاه إذ جعلكم من خير عباده)

ويمضي ابن زكي في التّذكير على أنّ هذا النّصر منّة من الله عليهم ؛فيذكرهم بضرورة التّقدير لهذه المنّة وشكر المنعم عليها،وأن يتجنّبوا مواقف الجاحدين قبلهم.ويرسم صورة بهيجة

(1)(بلج) الباء واللام والجيم أصل واحد منقاس، وهو وضوح الشيء وإشراقه. البلج الإشراق، ومنه انبلاج الصبح. انظر:ابن فارس،معجم مقاييس اللغة.

(2) من شفاء القلوب.

(3) سورة الإسراء 1.

(4)(نكل) النون والكاف واللام أصل صحيح يدل على منع وامتناع، وإليه يرجع فروعه. ونكل عنه نكولا ينكل. وأصل ذلك النكل: القيد، وجمعه أنكال، لأنه ينكل: أي يمنع. وهو ناكل عن الأمور: ضعيف عنها.انظر:ابن فارس،معجم مقاييس اللغة،مادة نكل .

(5) عُرَى المَرْجان: قلائدُ المَرْجان. وَيُقَالُ لطَوْق القِلادة: عُرْوَةٌ. انظر: لسان العرب مادة عرا.

للملائكة والكائنات تستغفر لهم،وتصلي عليهم،فلا بدّ من متابعة الحال الّتي وصلوا إليها من الالتزام بتقوى الله والسّير على طريقه.

ونلاحظ أنّه في أسلوبه هنا عمد إلى المراوحة بين استخدام الجمل الإنشائية والجمل الخبر؛ ليحقق الإقناع و التوكيد مع الإمتاع و الإثارة و جذب الانتباه، وجاءت جمل الأمر الإنشائيّة تارة للنصح والإرشاد نحو: اقدروا هذه الرّحمة، فاحمدوا الله،وتارة أخرى للنّصح والإرشاد نحو: فلْيَهْنكم. واستخدم الأسئلة التّقريريّة للتأكيد على قدسيّة هذا المسجد وأهميّته نحو: أليس هو البيت الذي عظّمته الملل؟ أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه؟ مبيناً فيها فضائل هذا البيت، وكان لزوم الإجابة عن الأسئلة كلها: "بلى، والحمدلله"، ليقرِن أسئلته بأمر الحمد لما فضّلهم الله به على غيرهم.كما أنّ الجملة المعترضة النّدائيّة في :"وبيعوا–عباد الله–أنفسكم"نوع من التّخصيص وجذب للانتباه. وقد حافظ على أسلوبه في الإطناب، فكان الترادف نحو: الجيش والجند، والطيب والنّشر،التّقديس والتّمجيد، والأنبياء والمرسلون.وكان التّفصيل والشّرح نحو: ومواقعة الرّدى، ورجوع القهقرى، والنّكول عن العدا.

كما ظهر في هذا الجزء ما يسمى "بالجمع مع التقسيم": وهو جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه أو تقسيمه ثم جمعه[1] نحو: على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التّوحيد،ونشر التّقديس،والتّمجيد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشّرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث. وقد استخدم التّقديم والتّاخير في قوله: وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لأهويتكم جنده، فأخّر جنده عن الفعل جعلكم للتّشويق والمقارنة بين الماضي والحاضر،وفي قوله: فله تعالى المنّة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة؛ فقدّم "له" لحصر نعمة التّمكين من الفتح بالله، وقصرها عليه.

ولقد أبدع ابن زكي في هذا الجزء من خطبته باستخدام حسن التّعليل عندما قال: وقوموا لله تعالى بواجب شكرها... فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، كما أنّه في ذكر هذا التّعليل يستلهم الموروث الأدبيّ التّاريخي من قول أبي تمّام[2] في فتح عمّوريّة:

فتح تفتّح أبواب الّسماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

(1) انظر: القزويني،جلال الدين محمّد(1998م).الإيضاح.ط4، بيروت:دار إحياء العلوم ص335.

(2) أبو تمام، حبيب بن أو الطّائي(1969م).ديوان أبي تمام.ط3،القاهرة: دار المعارف،تح:محمد عبده عزام 45/1.

وقد حفل هذا الجزء بالصور الفنّيّة المعتمدة على الاستعارات والتّشبيهات والمجاز، والّتي أضفي عليها نوع من الحركة بالتّجسيم والتّشخيص نحو: إزالة ما بقي من الغصّة، اتّباع الهوى، احرسوا هذه النّعمة،بتقوى اللّه الّتي من تمسّك بها سلم، تبلّجت بأنواره وجوه الظّلماء، وقرّت بها عينا الأنبياء، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشّرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، أمضى عزائمكم، بيعوا أنفسكم، وجمع لأجله كلمتكم. كما أنّ الكناية كانت حاضرة في إعطاء المعاني قوّة ورونقا في قوله: وقرّت به عينا الأنبياء للكناية عن الرّضى،وبيعوا أنفسكم كناية عن صفة التّضحية والفداء،وباعد بين خطواتها كناية عن الإبطاء.

وقد ظهرت المحسّنات البديعيّة في هذا القسم بالتزام السّجع في جلّ هذا القسم،والطّباق في : الغبراء والخضراء،اتّباع ورجوع، والجناس غير التّام في : الفتح وفتحت.

ج. النهي عن الغرور وارتكاب المعاصي،ودعوة للجهاد واستنقاذ ما بقي من الأراضي.

(وإيّاكم أن يستزلّكم الشّيطان، وأن يتداخلكم الطّغيان، فيخيّل لكم أنّ هذا النّصر بسيوفكم الحداد، وخيولكم الجياد، وبجِلادكم في مواطن الجِلاد، لا والله ما النّصر إلا من عند الله إنّ الله عزيز حكيم، فاحذروا –عباد الله – بعد أن شرّفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصّكم بنصره المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا كبيرا من مناهيه، وأن تأتوا عظيما من معاصيه، فتكونوا كالّتي نقضت غزْلها من بعد قوّة أنكاثا، وكالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشّيطان فكان من الغاوين، والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم، وأشْرف عاداتكم، انْصروا الله ينصركم، احْفظوا الله يحفظكم، اذْكروا الله يذكركم، اشْكروا الله يزدكم ويشكركم، جِدّوا في حسم الدّاء، وقلع شَأفة الأعْداء، وطهِّروا بقيّة الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثّوا أصوله، فقد نادت الأيام يا للثّارات الإسلاميّة والملّة المحمّديّة، الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر. واعلموا رحمكم الله أنّ هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، وغنيمة فحوزوها، ومهمّة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيّروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدوّ المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنّهم قوم لا يفقهون)[1]، أعاننا الله وإياكم على اتّباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيّدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده (إن ينصركم الله

([1]) سورة الأنفال 65.

فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)[1]، إنّ أشرف مقال يقال في مقام، وأنفذ سهام تمرّق عن قسيّ الكلام، وأمضى قول تحلّ به الأفهام، كلام الواحد الفرد العزيز العلام، قال الله تعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون، أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرحمن الرحيم)[2]، وقرأ أوّل الحشر، ثم قال: آمركم وإيّاي بما أمر به من حسن الطاعة فأطيعوه، وأنهاكم وإياي عمّا نهاكم عنه من قبح المعصيّة فلا تعصوه، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه).

يبدأ هذا الجزء بتحذيرهم من أن يوسوس لهم الشيطان فيتكبروا ويظنّوا أنّ هذا النّصر ما كان ليكون إلا بسيوفهم وقوّتهم، وينسوا فضل الله عليهم، والتّحذير جاء باستخدام اسم فعل الأمر"وإياكم"؛ لأنّه أكثر وقعا وقوّة. ولمزيد من التّأكيد استخدم القسم "واللهِ" والنّفي والاستثناء والاقتباس في قوله: (لا والله ما النّصر إلا من عند الله إنّ الله عزيز حكيم)،وفي وصفه بأنّه من عند الله تخصيص وحصر ونسبة إلى فاعله الحقيقيّ.ويستمرّ في تحذيرهم من الاغترار والعجب،وبالتّالي الوقوع في المعاصي والكبائر

ويأتي الأمر بعد ذلك بالجهاد بأسلوب الإغراء المشتمل على التّكرار في قوله: "والجهاد الجهاد" إمعانا في التّأكيد على أهميّته وضروريّته. والجمال يكمن في دقّة استعماله لكل من الفعلين المترادفين (قطع واجتثّ) في صيغة الأمر، فاستعمل اقطعوا مع الفروع، واجتثوا مع الأصول وكليهما للكفر، وذلك لأن (اجتثّ) تعني استئصال الشيء من جذوره.

ينتقل بعد ذلك إلى التكبير بأسلوب تتوالى فيه السّجعات القصيرة ذات الوقع الموسيقيّ العسكريّ القويّ،كأنّها إعلان بهيج بالنّصر، ومن ثمّ يذكّرهم بفعل ما يرضي الله ليفوزوا بالنّصر الأزلي برضاه،ويختم خطبته بأدعية وآيات قرآنيّة تناسبت مع جوّ الخطبة وسياقها.

وقد جاء هذا الجزء مزيّنا بالمحسّنات البديعيّة ذات الفواصل القصيرة نحو التّرصيع في قوله:بسيوفكم الحداد وخيولكم الجياد،وانصروا الله ينصركم واذكروا الله يذكركم،والطباق في

([1]) سورة آل عمران 160.

([2]) سورة الأعراف 204.

:فروع وأصول،واتباع وازدجاروالجناس غير التامّ في : داء وأعداء،وسيروا وسرايا؛مما يضفي جمالا طبيعيًّا على نظم هذه الخطبة بعيدا في معظمه عن التكلُّف.

وقد استمرّ في أسلوبه في الإطناب لتقرير المعاني في النفوس نحو: وإيّاكم أن يستزلّكم الشّيطان، وأن يتداخلكم الطّغيان، فيخيّل لكم أنّ هذا النّصر بسيوفكم الحداد، وخيولكم الجياد، وبجِلادكم في مواطن الجِلاد، وقوله: واعلموا رحمكم الله أنّ هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، وغنيمة فحوزوها، ومهمّة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيّروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها،وهو بيّنٌ في معظم أجزاء هذا القسم.كما أنّه استخدم الإيجاز في مواضع أخرى نحوالإيجازفي طرح الأمر وبيان النّتيجة المترتّبة عليه باستخدام أسلوب "الجزم في جواب الطّلب" نحو: انصروا الله ينصركم،واذكروا الله يذكركم،و حذف الخبر في قوله :الأمور بأواخرها،والمكاسب بذخائرها،وذلك للعلم به اكتفاء بمعرفة المتلقين وقدرتهم على استنباطه.

كما أنّ الصّور الفنّيّة اعتمدت على الاستعارات والتشبيهات والمجاز نحو :يستزلكم الشّيطان،ويتداخلكم الطّغيان،وأعلق أيديكم بحبله المتين،فخذوا في حسم الدّاء،وقطع شأفة الأعداء، واقطعوا فروع الكفر،واجتثّوا أصوله،فقد نادت الأيّام،هذه فرصة فانتهزوها، فريسة فناجزوها،سيّروا إليها سرايا عزماتكم.

وقد استخدم التّشبيه التّمثيلي لرسم صورة تشمئزّ لها الأنفس للأشخاص الّذين يرتدّون على أعقابهم،وذلك في قوله: أن تقترفوا كبيرا من مناهيه، وأن تأتوا عظيما من معاصيه، فتكونوا كالّتي نقضت غزْلها من بعد قوّة أنكاثا،وكالّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشّيطان فكان من الغاوين،حيث أتى بمشهد منفّر بهاتين الصورتين المقتبستين من القرآن الكريم.

وقد تابع التّنويع في أسلوبه بين استخدام الجمل الخبريّة والإنشائيّة، وجاء بالأوامر للدلالة على التّحذير في قوله : وإيّاكم، والإغراء في قوله: الجهاد الجهاد،والتّحريض والحضّ نحو:اقطعوا فروع الكفر، واجتثّوا أصوله،والإرشاد والنّصح في قوله: احذروا عباد الله...،كما أنّه استخدم الجمل الخبريّة ذات المعاني الإنشائيّة للدّعاء في قوله:أعاننا الله وإياكم،وأيّدنا معشر المسلمين؛لطلب ثبات وديمومة هذه المنح الإلهيّة.

ح. الخطبة الثّانية والدّعاء

ثم خطب الخطبة الثانية على عادة الخطباء مختصرة ثم دعا للإمام الناصر خليفة العصر .ثم قال:(**اللهمّ وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك، الشّاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذّاب عن حرمك الممانع، السيّد الأجل، الملك النّاصر، جامع كلمة الإيمان، وقاطع عبدة الصلبان، صلاح الدّنيا والدّين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهّر البيت المقدّس أبي المظفّر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين، اللهم عمّ بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدّين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملّة المحمّديّة عزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسلام مهجته، وق للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته، اللهمّ كما فتحت على يديه البيت المقدّس بعد أن ظنّت الظّنون، وابتلي المؤمنون، فافتح كما فتحت على يديه داني الأرض وقاصيها، وملكه صياصي الكفر ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزّقها، ولا جماعة إلا فرّقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها، اللهمّ اشكر عن محمّد صلى الله عليه وسلم سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهمّ وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك وأكنافها، اللهمّ ذلّل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجّار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وابثث سرايا جنوده في سبل الأقطار. اللهم ثبّت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم. اللهمّ كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام، وتتخلد على مر الشّهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفد في دار اليقين، وأجب دعاءه في قوله: (ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ، وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)[1]، ثمّ دعا بما جرت به العادة.**

وقد ألقى محيي الدين بن زكي الخطبة الثانية على عادة الخطباء محافظًا على البناء الفني للخطبة، حيث جاءت الخطبة الثانية متوافقة في موضوعها مع الخطبة الأولى؛ فقد ركّز فيها على الدّعاء لقائد الفتح المبين بأسلوب يمتاز بالرّصانة واحتوائه على الأساليب البلاغية المتنوّعة التي أضفت عليه جمالًا وهيبة تتناسبان مع مقام المدعوّ له، وتجدر الإشارة هنا إلى

([1]) سورة الأحقاف 15.

تأخير الإشارة إلى قائد الفتح إلى نهاية الخطبة؛ لبيان عدم الانكباب على مدح السّلاطين في بدايات الخطبة في ذلك العصر.

وقد قام بوصف السلطان بأنّه عبد خاضع لهيبة الله، شاكر لأنعمه، معترف بفضله؛ وذلك يظهر مدى التواضع الذي كان يتمتّع به السّلطان، وقد وصفه ابن زكي منسوبًا إلى ضمير المخاطب العائد إلى الله سبحانه وتعالى نحو: سيفك القاطع، وشهابك اللامع؛ وذلك زيادةً في تشريف هذا القائد، وبيانًا لوجود قدر الله الماضي في اختياره.

ونلمس في هذا الدعاء العاطفة الصّادقة الجيّاشة التي تظهر الحبّ الحقيقيّ لهذا السّلطان النّاصر، كما أنّ ابن زكي قد تفنّن في استعمال الفنون البديعية المختلفة فيها؛ وذلك لجذب الأسماع لمحتواها اللائق بشخصيّة الفاتح، حيث استعمل السّجع الشجيّ المتناسق مع المعاني السّامية في هذا الدعاء نحو: جامع كلمة الإيمان، وقاطع عبدة الصلبان، صلاح الدّنيا والدّين، سلطان الإسلام والمسلمين. كما كان استعمال الطباق واضحًا في عدّة ألفاظ، لتناسق الطّباق مع موضوع الخطبة الأساسي وهو بيان انتصار الحق على الباطل، وكان الطباق في الألفاظ التالية: المشارق والمغارب، وأمره ونهيه، وأرجاء المماليك وأكنافها.

كما استعمل الجناس غير التام في لفظتي: نواصي وصياصي، وكان ذلك منسجمًا مع السياق متناغمًا مع موسيقاه، ولم تكن الكناية غائبة حيث قال: أرغم به أنوف الفجار، وهي كناية عن إذلالهم وتحقيرهم، وقوله: وملكه صياصي الكفرة ونواصيها كناية عن السّيطرة عليهم وقيادتهم، ولا يخفى ما في ذلك من مجاز أيضًا.

وتأتي الاستعارات لتأخذنا في رحلة إلى خيال محلّق يتّسع لكل الأرض عندما شبّه ملكه بالمرأة التي لها شعر طويل وذوائب في قوله: وانشر ذوائب ملكه وفيه أيضا كناية عن التمكين والسّيطرة،فضلا عن الّصور الفنّيّة الأخرى المحتشدة في هذا الدّعاء نحو: سيفك القاطع، وشهابك اللامع، جامع كلمة الإيمان، وقاطع عبدة الصلبان، اللهم أبق للإسلام مهجته، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزّقها،وغيرها الكثير الّذي يظهر ضلوع ابن زكي مجالي البلاغة والفصاحة؛مما يفسّر لنا انتدابه من قبل صلاح الدّين الأيّوبيّ لأداء هذه الخطبة.

وفي نهاية هذا التّحليل يلخّص الباحث السّمات الفنّيّة للخطبة على النّحو التّالي:

1. التزامها بالبناء الفنّي للخطبة الدّينيّة على غرار سائر الخطب الدِّينيّة في هذا العصر.
2. تناغم المقدّمة مع الموضوع شأنها في ذلك شأن بقيّة خطب العصر الأيوبيّ.
3. ظهورالعاطفة الدّينيّة بشكل جليّ،وكثرة الاستشهادات والاقتباسات من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة تمشّيا مع روح العصر.
4. التزامها الصّنعة البديعيّة المجمّلة للمعنى،والمبتعدة عن التكلّف والجمود في معظمها.
5. احتشاد الصور الفنّيّة المرتكزة على التشبيهات والاستعارات والكنايات والمجاز،والّتي بثّت الحياة والحركة في سائر أرجاء النّص.
6. وضوح المعاني الّتي أدّيت في ألفاظ فصيحة وفي خطاب بليغ.
7. الإطناب في معظم أجزاء الخطبة لتقرير المعاني الّتي يريدها الخطاب وتأكيدها.
8. المراوحة بين أساليب الخبر والإنشاء دفعا للملل وجذبا للانتباه وتأكيدا على المحتوى.
9. براعة الاستهلال بالآية القرآنيّة،وخروج الخطبة في هذه الجزئية عمّا كان معهودا.
10. ظهورالثّقافة الدينية والتاريخيّة والأدبيّة الواسعة للخطيب والّتي استلهمها في خطبته.

المبحث الثاني:خطبة الشّهاب محمود[1] في رامي نّشّاب

أوّلا: التّعريف بالخطبة

هي خطبة قام الشّهاب محمود بكتابتها في رامي نّشّاب، ويوردها في كتابه "حسن التّوسّل"، كما أنّ النّويري يوردها في كتاب "نهاية الأرب" في باب ذكر ما قيل في تركيب القوس ومبدأ عملها. والشّهاب محمود يذكر في نهاية الخطبة ما يفيد بأنّه قام بتأليفها في رامي نشّاب مشهور وذلك تكريما لجهوده في الجهاد في سبيل الله،والباحث يرجّح أنّ الخطبة كانت قد أنشئت بطلب رسميّ من قبل الدّولة لتكريم هذا الشّخص المتميّز، وكانت قد ألقيت في حفل خاصّ لتكريمه، ولحثِّ الآخرين على أن يقتدوا به.وهذه الخطبة تعدّ نموذجا للخطب المكتوبة المعدّة مسبقا بعناية فائقة،ممّا يفسّر احتشاد الظواهر الأدبيّة الفنّيّة فيها.

ثانيا: الجوّ العام للخطبة

هو جوّ الجهاد والحرب الّذي أصبح جزءا لا يتجزّأ من حياة الجند والعامّة في تلك الفترة،وهو جوٌّ ساد فيه التّركيز على مهارات القتال وأدوات الحرب حتّى صرنا نشهد مقطوعات أدبيّة تؤلّف في الماهرين في الجهاد، وفي وصف أدواتهم ومنها هذه الخطبة.

ثالثا: البناء الفنّي للخطبة

جاءت الخطبة في بنائها الفنّي متناغمة مع البناء الفنّي للخطب في هذا العصر،حيث احتوت على مقدّمة موشّحة بالحمد الّذي أطنب في سرد موجباته،والِشّهادة الّتي بيّن فضائلها في مجال الرّمي والجهاد،والصّلاة على النّبيّ القدوة في مقارعة الظّالمين والباطل،الحاضّ على الرّمي للذبّ عن الدّين والعرض. والمقدّمة في جميع مكوّناتها كانت متناسقة تماما مع السّياق والحدث الّذي ألّفت فيه الخطبة،إلّا أنّها جاءت طويلة تظهر فيها البراعة في استخدام المحسّنات البديعيّة والصّور الفنّيّة على غير ماعهد في الخطب الحربيّة؛ وذلك لأنها أعدّت مسبقا بعناية لتلقى في مراسم التّكريم،على خلاف الخطب الحربيّة الأخرى الّتي كانت تلقى في مواطن الجهاد ارتجالا تبعا لما يفرضه الموقف.

([1]) تمّت التّرجمة له في الفصل الرابع، مبحث "أشهر خطباء العصر" في " الخطباء من القادة والأعيان"

ثمّ أتبعت بالعرض الموشّى بالمحسّنات البديعية المتناسقة مع المعنى والسياق،والّتي اختيرت بعناية لتضفي لمسة جماليّة على الخطبة. وقد احتشدت فيها الصوّر الفنّيّة المليئة بالألوان والأصوات القائمة على التّخييل والبراعة في التّشخيص والتّجسيد، بحيث ينقلك الخطيب فيه إلى قلب الحدث،وكأنّك في خضمّ مشهد عابق بالحياة والحركة.كلّ هذا جاء في أسلوب أدبيّ بليغ وبراعة في اختيار الألفاظ الفصيحة المعبّرة عن الحدث،وفي تسلسل منطقيٍّ للأحداث مدعّم بالشواهد القرآنيّة والأحاديث النّبويّة واستلهام الأحداث التّاريخيّة والدّينيّة،وتضمين للشّعر ممّا يشير إلى ثقافة واسعة حظي بها صاحب الخطبة.

وجاءت الخاتمة مباشرة واضحة تعلن الفضيلة العظيمة الّتي قام بها رامي النشّاب المقصود بهذه الخطبة ممّا استدعى تكريمه وإنشاء خطبة خاصّة لبيان فضيلته.والخطبة في مستواها الأدبي سارت على وتيرة واحدة من الالتزام بالألفاظ الفصيحة، والعبارات الأدبيّة الرّصينة، والموسيقى البديعيّة الشّجيّة الّتي تبعث النّشوة وتحيي مشاعر العزّة،والصوّر الفنّيّة المرتكزة على التّشبيهات والاستعارات والمجاز والكنايات،كلّ ذلك جاء في بناء فنّيٍّ متناسق ممّا ينبئ عن مقدرة أدبيّة وفنّيّة فريدة،لا سيّما إذا أخذنا بالحسبان أنّ الشّهاب محمود كان ينشئ الكتب والتقاليد والخطب مباشرة دون الاحتياج إلى صنع مسوّدة في البداية كما أشرت إلى ذلك في ترجمته.

رابعا: عرض الخطبة

أ. **المقدّمة: بيان فضيلة الرّمي في الجهاد،وأهميّته في نصرة الحقّ على الباطل**

ومن إنشاء المولى القاضي شهاب الدين محمود الحلبي الكاتب : خطبةٌ عملها لرامي نشاب، وهي(1) :(**الحمد لله الذي جعل سهم الجهاد إلى مقاتل أعداء دينه مسدّدا، وحكم الجلاد بإصابة الغرض في سبيله مؤيّدا، وسيف الاجتهاد في نكاية من كفر به وبرسوله على الأمد مجرّدا، وركن الإيمان بإعداد القوّة وهي الرّمي فيما ورد عن نبيّه على كرّ الجديدين مجدّدا ؛ الذي أعاد رداء الجهاد في مواطن الصبر بالنّصر مُعْلماً، وأباد أهل الإلحاد بأن جعل لحماة دينه في**

---

(1) انظر : النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب 236/6–239 .والغريب أنّ هذه المقدّمة لم يوردها الشهاب محمود نفسه في حسن التّوسّل؛فقد بدأ الخطب بقوله "وبعد،فإنّ الرّمي" وهذه البداية تشير إلى أنّه كان هناك مقدّمة محذوفة.والّذي يرجّحه الباحث أنّ النويري نقل الخطبة من كتاب آخر للشّهاب محمود نهج فيه الإطناب في العرض؛لأنّ كتاب حسن التّوسّل يسلك فيه طريقة الاختصار. انظر: الشهاب محمود،حسن التوسل ص103،102.

أرواحهم أقساما وفي مقاتلهم أسْهما، وأزال بأيدي القسيّ([1]) من معاقل أهل الكفر حكْم كماتهم الّذين ارتقوا منها خشية الموت سلّما، وأفاء على الإسلام من النّصر ما فاء به كلّ دينٍ له خاضعاً وآل إليه مستسلما، وأبان حكم الأدب في تجرّد العبد من القوّة إلا به بقوله عزّ من قائل : " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى "([2]) . نحمده على نعمه التي لم يزل بها قِدْح الدين فائزاً وسهمه مصيبا، ومننه التي ما برح بها جَدّ([3]) الكفر مدبراً فلا يجد له في إصابة نصلٍ([4]) أو نصرٍ نصيبا، وآلائه التي لا تنفكّ بها سَوامّ([5]) السّهام تَرِد مِن وريد الشّرك منهلاً عذْباً وترود من حبِّ القلوب مرعىً خصيبا، ونَشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تدني النَصر وإن بعد مداه، وتدمي النّصل الذي على راميه إرساله إلى المقاتل وعلى الله هداه، وتُسمي القَدْر لمن ناضل([6]) عليها فيفوز في الَدنيا والآخرة بما قدمت يداه ؛ ونشهد أنَ محمّداً عبده الذي نصر بالرّعب على من كفر، ورسوله الذي رمى جيش الشّرك بقبضةٍ من تراب فكان فيها الظّفر، ونبيّه الذي نفر إلى أهل بدرٍ بنفرٍ من أصحابه فجمع الله النّصر والفخر لأولئك النّفر ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آمنوا بما أنزل عليه وجاهدوا بين يديه واختصّوا بالذّبّ عنه بمزايا القرب حتى سعِد سعدٌ بما جمع له، حين أمره بالرمي، في التّفدية بين أبويه، وخصّ بعموم الرضوان عمّه العباس الذي أقرّ الله بإسلامه ناظريه وبشّره رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ باستخلاف بنيه في الأرض فيما أسرّ به إليه)

جاءت المقدّمة كتمهيد لبيان فضيلة الرّمي والرماة،حتّى تتّصل بالهدف الّذي أعدت له الخطبة،كما أنّ الخطيب استند فيما يقول إلى الاستشهاد بالقرآن الكريم،وتأييد الله السّابق لعباده في الجهاد، ومواقف الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم في وقعاته ضدّ الباطل وأهله،ومدحه للرّماة وفي مقدّمتهم سعد الّذي افتداه بأبيه وأمّه وحضّه على الرّمي.وأهمّ الأفكار الّتي اشتملت عليها المقدّمة هي :

([1]) جمع القوس. انظر: ابن منظور،لسان العرب مادّة "قوس"

([2]) سورة الأنفال 17.

([3]) الجَدّ: العظمة وهو مصدر يقال منه:جدّ في عيون النّاس إذا عَظُم.انظر: الفيومي،المصباح المنير مادّة "جدّ"

([4]) النّصل: حديدة الّهم والرّمح. انظر: الزبيدي،تاج العروس باب "نصل".

([5]) السامّة من الخشاش ما يسمّ ولا يبلغ أن يقتل سمّه كالعقرب،والجمع سوامّ.انظر:الفيومي،المصباح المنير ،مادّة سوم.

([6])ناضل عنه: إذا دافع وتكلم عنه بعذره وحاجج وخاصم،انظر:الزبيدي،تاج العروس مادّة"نضل"،والمقصود هنا : رمى.

1. بيان فضيلة الرّمي وأنه المقصود بالقوّة المطلوب إعدادها في الجهاد في قوله تعالى :(وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة)[1] حسب حديث النبيّ _صلّى الله عليه وسلّم_ في تفسير هذه الآية حيث قال:(ألا إنّ القوّة الرّمي)[2]،والاستشهاد بآية أخرى لبيان فضيلته.
2. بيان أهميّة الرّمي في الجهاد، وفي إعلاء راية الإيمان ودحض الباطل وأهله.
3. الإشارة إلى فضائل النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، والّتي كان من أهمّها رمي المشركين بحفنة من تراب، وتشجيع المؤمنين على الرّمي، والإشارة إلى حديث النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم في مدح سعد وتفديته بأبيه في الحديث الّذي رواه عليّ بن أبي طالب حيث قال: (مَا جَمَعَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ، غَيْرِ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنَّهُ جَعَلَ يَقُولُ لَهُ يَوْمَ أُحُدٍ: «ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»)[3] .

جاءت المقدّمة بجمل طويلة فيها نوع من الإطناب والإسهاب في وصف النشّاب ودوره في الجهاد،وذلك للتّأكيد على أهميّته،فكان هناك تفصيل في وصفه مرّة بأنّه سهم الجهاد،وأخرى بأنّه المقصود من الإعداد،وأنه الّذي رفع راية الجهاد وحمى رداءه.كما كان التّفصيل في بيان دوره في إحراز النّصر وإرغام الأعداء، وأسهب في ذكر فضائل راميه بالفوز بالآخرة،وشرف تحصيل الهداية،وكسب رضى النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وكانت الصّنعة اللفظيّة بالتزام المحسّنات البديعيّة واضحة في المقدّمة،حيث نلاحظ التزامه بقافية الألف المديّة الّتي تطلق سهام الفكر إلى أبعد مدى،وقافية الراء الّتي تمثّل موسيقى حربيّة تتناسب والموضوع نحو: فجمع الله النّصر والفخر لأولئك النّفر،إلّا أنّ الجمل التي استخدم فيها السّجع كانت طويلة إلى حدٍّ يجعلها مسستثقلة على السّمع، وهو ما يخالف ما استحسنه أهل البلاغة في هذا المجال،حيث قال ابن حجّة الحمويّ في بيان ذلك:(فمن الإنشاء الفصيح البليغ، قول ابن عباد، وقد قيل له: ما أحسن السجع! فقال: ما خف على السمع)[4].(ولولا طول الجمل

([1])سورة الأنفال 60.

([2])فى صحيح مسلم بإسناده الى عقبة بن عامر أنه كان يقول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى» . انظر: النيسابوري،مسلم ابن حجاج(د.ت). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.(د.ط)،بيروت:دار إحياء التّراث العربيّ،تح:محمّد فؤاد عبد الباقي،1522/3.

([3]) المصدر السابق:1876/4.

([4])ابن حجة الحموي،خزانة الأدب 414/2.

في بعض الأحيان، لقلنا إنّها من أبرز خصائص الخطابة)([1])وظهر الجناس التامّ في ألفاظ : نفر ونفر ليرسم صورة النّفير بعدد قليل؛ ومع ذلك فقد كانت النّتيجة النّصر، وسعِد وسعْد لتعطي فسحة من التّأمّل في تصوّر سعادة رامي السّهام، وسهم بمعنى النشّاب وسهم بمعنى النّصيب؛ لبيان أثرالنّشّاب في الظفر. والجناس غير التامّ في: نصر ونصل،ترد وتورد، سوام وسهام.كما كان للطّباق نصيب في المقدّمة في قوله: أبان وأزال،وأباد وأعاد. والمقابلة في قوله : وأزال القسيِّ من معاقل أهك الكفر حكم كماتهم...،وأفاء على الإسلام من النّصر ما فاء به.

وجاءت المقدّمة محتشدة بالصور الفنّيّة المرتكزة على الاستعارات والتّشبيهات والمجاز نحو: سهم الجهاد، سيف الاجتهاد،ركن الإيمان، بأيدي القسيّ، وأفاء على الإسلام،قدح الدين فائزا وسهمه مصيبا،جدّ الكفر مدبرا،سوام السهام،تسمي القدر. والرّوعة كانت في هذه الصورة الفنّية الرّاقية التي ارتكزت على الاستعارة المكنية والتّشبيه في قوله: ترد من وريد الشرك منهلا عذبا،وترود من حبّ القلوب مرعى خصيبا،حيث رسم صورتين متضادّتين للسّهام إحداها تشبّهها بالوحوش الكاسرة القاتلة للأعداء،والثّانية تشبهها بالخراف الوديعة الّتي تسعد القلوب وتبهجها بالنّيل من الأعداء. ولم تكن الكناية غائبة في قوله: "كرّ الجديدين" كناية عن تعاقب الليل والنّهار،و"قدح الدّين فائزا" كناية عن النّصر والظّفر.

ب. الجزء الأول من الخطبة

(وبعد، فإنّ الرّمي أفضل ما أعدّ للعدا، وأكمل ما أفيض به على أهل الكفر رداء الرّدى ؛ وأبلغ ما يبعث إلى المقاتل من رُسُل المنون، وأنفع ما يُقتضى به في الوغى من أعداء الدّين الديون، وأسرع ما تبلغ به المقاصد فيما يرى قريباً وهو أبعد ما يكون ؛ وأنكى([2]) ما تقذف به عن الأهلّة شُهُب الحتوف، وأسبق ما تدركَ به الأغراض قبل أن تعرف بها الرماح أو تشعر بمكانها السّيوف، ما طلع في سماء النّقع قوسه إلا سحّ وبْل([3]) النبل، ولا استبقت الآجال وسهمه إلا كان في بلوغها السّبق من بعد والسّبق من قبل .

ومن أسباب فضله الذي أصبح به قدره ساميا، وفخره ناميا، وقطره في أفق النّصر هاميا، ما ورد من قوله صلّى الله عليه وسلم لفتيةٍ ممن أسلم من أسلم : " ارموا يا بني إسماعيل فإنّ أباكم كان راميا "([4]) .

([1]) الساريسي،نصوص من الأدب الإسلامي في عصر الحروب الصليبية ص124.

([2])نَكَيْتُ فِي العَدُوِّ أَنْكِي نِكايةً أَي هَزَمْتُه وغَلَبْتُه. انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة"نكأ"

([3]) الوبل والوابل :المطر الشديد الضّخم القِطر.انظر: ابن منظور،لسان العرب مادّة"وبل".

([4]) البخاري،صحيح البخاري 1062/3.

وممّا عظمت به على الأمّة المنّة، وغدت فيه نفوس أرباب الجهاد بالفوز في الدنيا والآخرة مطمئنّة، قوله صلى الله عليه وسلم : " تعلّموا الرّمي فإنّه ما بين الغرضين روضةٌ من رياض الجنة "[(1)]. ومن فضل الرّمي الّذي لا يعرف التّأويل، ما نقل من قوله صلى الله عليه وسلم : " من رمى بسهم في سبيل الله أخطأ أو أصاب فكأنّما أعتق رقبةً من ولَد إسماعيل "[(2)] وممّا يرفع قّدر السّهم ما روي عنه صلّى الله عليه وسلّم من قوله : " إنّ الله يدخل بالسّهم الواحد ثلاثة نفرٍ الجنّة صانعه يحتسب في صنعته الخير وراميه ومنبله "[(3)].

وممّا حضهم به على الرّمي ليجتهدوا فيه ويدأبوا : قوله صلى الله عليه وسلم : " ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا "[(4)].

جاء هذا القسم من الخطبة مليئا بالشّواهد من سنّة النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم،وذلك لبيان شرف الرّمي في الجهاد وثوابه العظيم حيث بيّن عليه الصّلاة والسّلام أنّ سيدنا إسماعيل كان راميا،وأنّ الرّمي سبب لدخول رياض الجنّة،وبيان ضمان الجنّة للرامي.

وجاء هذا حافلا بالسّجعات اللّطيفة القصيرة نحو : أصبح به قدره ساميا، وفخره ناميا، وقطره في أفق النّصر هاميا. كما أنّ البداية اعتمدت على عدّة قواف مضفية بذلك تنويعا موسيقيا يبعد الرّتابة والملل نحو: العدا، المنون،النبل.كما أنّ هذا الجزء توشّح بالعديد من المحسّنات البديعيّة الأخرى نحو: الطباق في الدنيا والآخرة،وقريب وأبعد ما يكون،وأخطأ وأصاب،والجناس غير التام في أعدّ للعدا،وساميا وناميا وهاميا،رداء الرّدى.

أمّا بالنّسبة للصور الفنّيّة فقد تتابعت في مشهد سريع سرعة السّهام والرّمي مضفية تجسيدا وتشخيصا حافلا بالحركة؛ فالرّدى له رداء،والسهام ترجع الدّيون من الأعداء، والأقواس مثل الأهلّة الّتي تقذف الشّهب،والرماح تعرف والسيوف تشعر، وتراشق السهام مثل وبل المطر،والآجال تستبق مع السهام لكن السهام تسبقها، والفخر ينمو، والسهام مثل المطر تهمي وتنزل بغزارة. كما كان في تشبيه السهام برسل المنون استعارة تصريحية وكناية عن القتل، وقدجاء كل ذلك في أسلوب رائق متناسق لا يعتريه تنافر أو غموض.

([1]) الألباني،ناصر الدّين(1985م).إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل.ط2،بيروت: المكتب الإسلامي 342/5، والألباني يجزم بأنّ هذا الحديث ضعيف،وفي إسناده إنقطاع.

([2]) ابن كثير،أبو الفداء إسماعيل(1998هـ). جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن.ط2،لبنان:دار خضر للطباعة والنشر.581/6، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى

([3]) الجزري،ابن الأثير(د.ت).جامع الأصول في أحاديث الرسول.ط1،سوريا:مكتبةالحلواني،43/5.

([4])المصدر السابق 43/5.

ت. الجزء الأخير مع الخاتمة

(ومن خصائص السّهم أنّه ذو خطوة في الهواء وحكمٍ نافذٍ في الماء، وتصرّفٍ حتى في الوحش السّانح([1]) في الأرض والطّير المحلّق في السّماء ؛ يكلّم بلسانٍ من حديد، ويبطش عن باعٍ مديد ؛ إن رام غرضاً طار إليه بأجنحة النّسور، وإن حمى معلما أصاب الحدق وصان الثغور ؛ يوجد بصره حيث فقد، وإذا انْفصل عن أمه لم يسر من كبدٍ إلا إلى كبد ؛ أنجز فعله على ما فيه من إخلاف الطباع، وشرفت أجناسه بكونها أولى أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع .ومن خصائص القوس أنّها عقيمٌ ذات بنين، صامتةٌ وهي ظاهرة الأنين ؛ لها كبدٌ وهي غير مجوّفة، ويدٌ لا تملك شيئا وهي في الأرواح متصرفة ؛ ورجلٌ ما نقلت قدما، وقبضةٌ ما عرفت إثراءً ولا عدما ؛ فهي نونٌ([2]) ما ألف الماء، وهلالٌ ما سكن السماء، وقاتلةٌ ما باشرت الدماء .
ولمّا كان أهل هذه الفضيلة يتفاوتون في مواهبها، ويتباينون في مذاهبها ؛ ويبلغ أحدهم بصنعته ما يبلغه الآخر بقواه، ويصل بإتقانه إلى ما لا يدركه من وجود التّساوي سواه ؛ وكان فلان ممّن له هذا الشّأن الباع المديد والسّاعد الشّديد، والإتقان الذي يتصرّف به في الرّمي كيف يشاء ويضع به السّهم حيث يريد ؛ كأنّما سهمه بذرع([3]) الفضاء موكّل، أو للجمع بين طرفي الأرض مؤهل، أو لسبق البروق معدّ إذا لمعت في حواشي السّحاب المفوّفة([4]) وخطرت في هداب الدّمقس([5]) المفتّل . وله المواقف التي تشق سهامه فيها الشّعر، وتبلغ بها من الأغراض المتباعدة ما يشقّ إدراكه على النظر ؛ فمنها أنّه لما كان في اليوم الفلاني فعل كذا وكذا . ووصف ما فعله)

تركّز هذه الفقرة على وصف السّهم بطريقة أدبيّة فنّيّة بديعة،كما أنّه يصف القوس الّتي ينطلق منها السّهم،ويختم هذا الجزء ببيان صفات رماة السّهام المتمرّسين الّذين يبلغون بصنعتهم وبتضحيتهم أسمى المراتب.

وهذا الوصف جاء بأسلوب أدبي رشيق، حيث تابع الكاتب استخدام الصّنعة اللفظيّة المتناسقة مع المعنى،فالسّجعات استمرّت في تظليل النّص بجمالها الموسيقي،بل وزانها بالترصيع في قوله: فهي نون ما الف الماء،وهلال ماسكن السماء،وقاتلة ما باشرت الدّماء.ونرى الطباق المتتابع الّذي يشير إلى الصورة وعكسها في آن واحد في : عقيم ذات بنين،صامتة ظاهرة

([1]) السانح:السائر. انظر: ابن منظور،لسان العرب مادّة "سنح".

([2]) النون : الحوت.انظر: ابن منظور، لسان العرب مادّة "نون".

([3]) ذرع:أصل واحد يدلّ على امتداد وتحرك. انظر: ابن فارس،معجم مقاييس اللغة مادّة ذرع.

([4]) المفوّف: الرقيق. انظر: ابن منظور،لسان العرب مادّة "فوف"

([5]) الدّمقس: الدّيباج،ويقال :هو الحرير. انظر: ابن منظور،لسان العرب مادّة"دمقس"

الأنين،وهو تعبير بليغ رشيق. ونرى التّقابل في قوله : لها كبد وهي غير مجوّفة،ويد لا تملك شيئا وهي في الأرواح متصرّفة،أنجز فعله على ما في إخلاف الطّبع ونرى الجناس المعبّر في قوله : من كبد إلى كبد، التساوي سواه.وهذه المحّسنات البديعة جاءت متناسقة مع المعنى تخدمه بإخلاص من غير أن تطغى عليه أو تأسره.

كما نلمس الإطناب في وصف القوس والسّهم والرامي حيث كان التّكرار بالترادف في: يتفاوتون ويتباينون، الباع المديد والساعد الشديد، والتفصيل في قوله: نون ما ألف الماء،وهلال ما سكن السماء،وذلك للتأكيد على هذه الصّفات وتقريرها في نفوس المتلقّين.

وتأتي هذه الصّفات معتمدة على استخدام اسم الفاعل لدلالته على الثّبات والقوّة نحو: صامتة،ظاهرة الأنين،مؤهّل،موكل...، وعلى التّشبيهات والاستعارات والكنايات ؛ فمن التشبيهات : التشبيه البليغ في قوله :فهي نون ما ألف الماء،وهلال ما سكن السّماء.ومن الاستعارات المكنيّة : يكلّم بلسان من حديد،لم يسر إلا من كبد إلى كبد،يوجد بصره حيث فقد،ومن الاستعارة التّصريحيّة قوله : إذا انفصل عن أمّه. ومن الكنايات : تشقّ سهامه الشعر كناية عن الخوف الّذي يولده،و طار إليه باجنحة النّسور كناية عن السّرعة،ذو خطوة في الهواء وحكم نافذ في الماء كناية عن القوّة والسّيطرة.

وظهر الاقتباس والتّضمين في هذا الجزء أيضا؛ حيث اقتبس قوله : أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع من الآية الأولى من سورة فاطر، واقتبس قوله : وخطرت في هدّاب الدّمقس المفتل من قول امرؤ القيس في معلقته :

فظل العذارى يرتمين بلحمها   وشحم كهدّاب الدّمقس المفتّل

وهذا يدلّ على ثقافة أدبية وشعريّة واسعة في هذا المجال.(وممّا يستوقف النّاظر في هذا العمل الأدبيّ دلالته الاجتماعيّة على عصره؛فالحديث عن آلات الحرب في خطبة كاملة دليل معبّر عن معالم الحياة الّتي كان يحياها النّاس في هذا العهد،فالحرب وأدواتها والحديث عنها هي أحاديثهم ومجال نقاشاتهم في أوقات فراغهم).([1]) ظلّت هذه الخطبة شاهدة على بقاء السّليقة العربيّة المبدعة قائمة في العصر المملوكيّ،وتوضّح الطّابع الدِيني والعسكري الذي اصطبغ به العصر، كما أنّ المتمعّن فيها يلاحظ بروز السمات الفنيّة لخطابة العصر المملوكي في طياتها.

أكتفي بهذا القادر من التّحليل آملا أن يكون قد شكّل مزيدا من الإضاءة على فنّ الخطابة في هذا العصر،ومستواها الفنّي والأدبي والتّركيبي.

([1]) الساريسي،نصوص من الأدب الإسلاميّ في عصر الحروب الصّليبيّة ص124.

النّتائج والتّوصيات

تهدف هذه الدّراسة إلى التعرّف على فنّ الخطابة في العصرين الأيّوبي والمملوكي الأوّل، والوقوف على الظّروف الّتي ساعدت على ازدهار هذا الفنّ وتطوّره أو تراجع بعض ألوانه وتقلّص دورها، وبيان الدّور الّذي أدّته الخطابة في توجيه دفّة الأحداث السّياسيّة والحربيّة بخاصّة،والاجتماعيّة والعلميّة والدّينيّة بعامّة، والمكانة الّتي حظيت بها بين الفنون النّثريّةالأخرى، وتوضيح السّمات الفنّيّة والأدبيّة للخطابة في العصرين مع إجراء مقارنة أدبيّة سريعة تجلّي الفروق الفنّيّة البسيطة الّتي تميّزت بها الخطابة في كلا العصرين، وانتهت الدّراسة إلى ما يلي:

1. كان العصر الأيّوبيّ يمثّل فترة النّشوء والتّطوّر لردّة الفعل الإسلاميّة ضد الغزوين الصّليبيّ والتّتري،ويمثّل العصر المملوكي الأوّل فترة النّضوج والاستقرار وبسط السّيطرة.
2. تشابه الظروف السّياسيّة والعسكريّة في العصرين الأيّوبيّ والمملوكي الأوّل، وما ترتّب على ذلك من انعكاسات دينيّة واجتماعيّة وتعليميّة جعلت العصرين يظهران كأنّهما عصر أدبيّ واحد مع وجود بعض الفروقات الفنّيّة البسيطة بينهما.
3. شهدت الحياة العلميّة والفكريّة والأدبيّة تطوّرا وازدهارا في العصرين الأيّوبيّ والمملوكي نتيجة لعدّة عوامل تضافرت في بعث الحياة فيهما من جديد من أهمّها: الاستجابة للنّهضة السّياسية والحربيّة الّتي وفّرت للعلماء والأدباء مجالا خصبا للإبداع،وتشجيع السلاطين الأيّوبيّين والمماليك على الإبداع في كافّة العلوم واحتضانهم للعلماء والمفكّرين.
4. شهدت الخطابة الدّينيّة والوعظيّة والحربيّة ازدهارا في العصرين؛فقد لعبت دورا في تحقيق الانتصارات الكبيرة الّتي أحرزها قادة الدّولتين،لا سيّما في معارك فتح القدس وعين جالوت وفتح عكّا وشُقحب،كما أنّ الخطابة الدّينيّة الوعظيّة كان لها دور كبير في حركة الإصلاح الاجتماعي والسّياسيّ.
5. كان للخطابة دور كبير في إضفاء الشّرعيّة على الخلفاء والسّلاطين؛فكان الدّعاء للخليفة والسّلطان في الخطبة يمثّل صكّ اعتراف دينيّ وشعبيّ بشرعيّة خلافته،وقطع الدّعاء له يمثّل

نزعا للشّرعيّة منه وانقلابا عليه،وهذا ما عاينّاه في قطع الخطبة عن الخليفة العاضد الفاطميّ،وموقف العزّ بن عبد الّسلام مع الصّالح إسماعيل.

6. مورست الخطابة بشكل واسع من قبل الخطباء والوعّاظ المعيّنين بشكل رسميّ من قبل الدّولة،والوعّاظ الّذين كرّسوا أنفسهم لخدمة الدّين سواء في المجالس العامّة أو في الحلقات العلميّة والدّينية الخاصّة،ولم تقتصر ممارسة الخطابة عليهم بل كان للخلفاء والسّلاطين والأعيان والعلماء والمدرّسين دور كبير في شيوعها وتطوّرها.
7. لم تشهد الخطابة السّياسيّة للخلفاء وقادة الفرق والأحزاب نشاطا واسعا على غرار ماكان معهودا في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ؛وذلك للانشغال بالهمّ الأكبر وهو ردّ الخطر الخارجيّ الّذي جعل الجميع يتوحّد خلف القيادة السّياسيّة، وبسب الخطاب الدّيني المعتدل الّذي تبنّاه قادة كلا الدّولتين الّذي كان يستمدّ شرعيّته من الخلافة العبّاسيّة.
8. اقتصرت الخطابة السّياسيّة على خطب الوفود والسّفارات والبيعات ووعظ الحكّام،مع نشاط ملحوظ لخطب الوفود والسّفارات في العصر الأيّوبيّ وتراجع لخطب البيعات في العصر نفسه،مقابل تراجع لخطب الوفود والسّفارات ونشاط في خطب البيعات في العصر المملوكيّ الأوّل، بينما احتلّت الخطابة الوعظيّة السّياسية المكانة نفسها في العصرين.
9. مورست الخطابة الاجتماعيّة في المناسبات الاجتماعيّة نحو الزّواج والتّأبين والختمات والمناسبات الدّينيّة الاحتفاليّة الّتي اتخذت طابعا اجتماعيّا نحو: المولد النبويّ ورأس السّنة الهجريّة. بينما عالجت الخطابة الدّينيّة والوعظيّة مظاهر الفساد الّتي اعترت المجتمع نتيجة التّأثّر الثّقافيّ بعادات وتقاليد الصّليبيّين والتّتار.
10. شهدت الخطابة الاجتماعيّة في العصر المملوكيّ ازدهارا أكثر ممّا كانت عليه في العصر الأيّوبيّ،وذلك بسبب حالة الاستقرار النّسبيّ الّتي شهدتها الحواضر الإسلاميّة في ذلك الوقت.
11. ظهر في هذين العصرين ما يسمّى بالخطابة العلميّة؛وهي الخطب الّتي كانت تلقى في حفل افتتاح المدارس الّتي انتشرت بشكل كبير في العصرين،وقد ازدهرت بشكل أكبر في العصر المملوكيّ الأوّل؛ بسبب الانتشارالكبير للمدارس في هذا العصر كنتيجة طبيعيّة للاستقرار.
12. ازدهرت خطابة المناظرات أو ما يسمّى بالخطابة الدّفاعيّة في العصرين لا سيّما بين المتكلّمين من الأشاعرة والحنابلة،وقد كان للشّيخ العز بن عبد السّلام من الأشاعرة والشيخ تقيّ الدّين بن تيمية من الحنابلة الباع الكبير في هذا المجال.

13. كان الوعظ الّذي مورس في مجالس الوعظ العامّة في جلّه لونا من ألوان الخطابة الدّينيّة.
14. سيطرت النّزعة الدّينيّة على معظم الخطب الّتي قيلت في العصرين من حيث: العاطفة،وكثرة الاستشهاد بالقرآن والأحاديث النبويّة،وكثرة الاقتباس منهما،بالإضافة إلى استلهام الموروث الدّينيّ في معظم الخطب على اختلاف أنواعها،وذلك تمشّيا مع الطّابع العام للعصر.
15. ظهر في هذين العصرين مذهبين أدبيّين أساسيّين من حيث الالتزام بالصّنعة اللّفظيّة: مذهب الخطيب الحصكفيّ والقاضي الفاضل والعماد الكاتب والكثير من خطباء العصرين، والّذين كانوا يغرقون في استخدام الصّنعة اللّفظيّة والمحسّنات البديعيّة والأساليب البيانيّة بشكل كبير ويعدّون ذلك من المميّزات الفنّيّة للخطابة والكتابة،حتّى صار مذهبهم هو الطّابع العامّ للعصر.والمذهب الآخر هو مذهب التّحرّر من الصّنعة اللّفظيّة وعدم الوقوع في شباكها بحيث تصبح المعاني أسيرة للألفاظ،بل وعدّوا التأنق اللّفظي في الخطابة بدعة يجب أن تقاوم؛ فقاموا بإلقاء خطبهم مسترسلة لا تحفل بالصّنعة اللفظيّة، وكان المنظّر الأساسيّ لهذا المذهب الشّيخ العزّ بن عبد السّلام،وتبعه في ذلك كبار العلماء نحو : ابن دقيق العيد وابن تيمية.
16. ظهر في العصر المملوكيّ الأول ملامح اتّجاه أدبيّ فنّيٍّ ثالث فيما يخصّ الصّنعة اللفظيّة،وظهر بشكل أساسيّ في خطب ابن المنير الإسكندرانيّ والخلفاء العباسيّين،حيث تأثّروا بالمذهبين السابقين وتوسّطوا بينهما في إنتاج خطاب مسترسل متدفّق تظهر فيه اللّمسات البيانيّة والمحسّنات البديعيّة مع عدم الإغراق في استخدامها.
17. امتازت معظم الخطب الّتي ألقيت في العصرين بالوضوح المتميّز بالفصاحة في انتقاء الألفاظ المناسبة،وأداء المعاني في أسلوب لغويّ بعيد عن التّعقيد، في حين لوحظ التزام بعض الخطباء بالتّأنّق اللّفظي الّذي كان مقصودا لذاته ممّا أدّى إلى غياب للمعاني في ثنايا المحسّنات البديعيّة.
18. بدأت سمة ارتجال الخطب تضعف في العصرين الأيّوبيّ والمملوكي الأوّل،لا سيّما في العصر المملوكي الأوّل،وكنّا نرى في ترجمة بعض الخطباء عبارة "يخطب من إنشائه"،إلّا أنّ ذلك لا يعني انعدام هذه السّمة؛فقد شهدنا الخطب الحربيّة وخطب مجالس الوعظ الّتي كانت تتميّز بأنها تلقى بديهة استجابة للموقف،وشهدنا بعض الخطب الدّينيّة وخطب الزّواج الّتي كانت تُرتجل.
19. تعدّ الخطب الّتي وصلت إلينا في العصرين قليلة مقارنة بما وصل من نماذج منها في العصور الماضية؛وذلك يعود إلى طبيعة فنّ الخطابة في كونها تلقى ارتجالا، وحركة إبادة التّراث الّتي شهدها العصران على أيدي الصّليبيّين والتتار.

20. شهدت خطب الوعظ الصّوفيّ ازدهارا أكثر ممّا كانت عليه في العصر الأيّوبيّ بحيث صارت تمارس في الحلقات العامّة في المساجد بعد أن كانت مقتصرة على المريدين.

وتوصي الدّراسة بما يلي:

1. إجراء مزيد من البحوث حول فنّ الخطابة في العصور الّتي لم يبحث فيها، لبلورة صورة كاملة عن هذا الفنّ ومكانته بين الفنون النّثريّة الأخرى، وبيان دوره في الأحداث السياسيّة والحربيّة والاجتماعيّة، وإسهامه في إثراء الأدب العربيّ.
2. عقد بحث استقصائي يشمل المكتبات العربيّة والعالميّة والمتاحف الدّوليّة ويدعم من جهات حكوميّة وعلميّة،ويروم إلى محاولة تتبّع دواوين الخطب الّتي ألّفت في العصرين ولم يتمّ التوصّل إليها، كما يشمل مسح المئات من المصادر المطبوعة والمخطوطة الّتي ألّفت حول هذين العصرين باللغة العربيّة واللغات الأخرى؛ للحصول على عيّنات أكثر من خطب هذين العصرين، ممّا يساهم في إلقاء مزيد من الضّوء على دور الخطابة في الحياة السّياسيّة والأدبيّة والعلميّة والاجتماعيّة فيهما.
3. إجراء بحوث خاصّة حول شخصيّات اشتهرت بالخطابة في هذين العصرين ولم يصلنا عيّنات من خطبهم،ومحاولة الوصول إلى نماذج منها والّتي ربّما تكون أشير إليها بشكل غير مباشر في ثنايا مؤلفاتهم نحو: العزّ بن عبد السّلام، ابن دقيق العيد، ابن تيمية.
4. إجراء العديد من البحوث الّتي تروم الكشف عن الملامح العلميّة والأدبيّة في شخصيّات سلاطين المماليك، والّتي ما زالت غير مجلّاة بشكل كبير إلى الآن.
5. إجراء دراسة مقارنة تبحث السّمات الفنّيّة والأدبيّة للخطابة وفنّ الكتابة لاسيّما فنّ الرسائل،وتوضيح نقاط الاتّفاق والافتراق بينهما.

ملحق الخطب

خطبة البابا أربان الثاني[1]

(يا شعب الفرنجة، يا شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد، بلاد المسيحيين في الشرق ؛ قلب موائد القرابين المقدسة، ونهب الكنائس وخربها وأحرقها، وساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، ودنسوا الأماكن المقدسة برجسهم، وقطعوا أوصال الإمبراطورية البيزنطية، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين .. على من أذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم . أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم ؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم – أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا – الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست – لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وتلك الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بمن يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية . طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، وأقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها . فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات)

---

[1] ديورانت، ول(1950 م).قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت وتونس، 15/ 15-16، وانظر: حمادة،محمد ماهر (1982م). وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي. ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 99-101.

خطبة الشّرف الأنصاريّ(1) عي عقد نكاح بعض مماليك الخليفة على بعض جواريه

وندب لعقد نكاح ببغداد لبعض مماليك الخليفة على بعض جواريه، فقال بديهاً: (الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً، فجعله نسباً وصهراً، وشرع النكاح لعباده وأثابهم عليه أجراً، أحمده على نعمه التي أوجب التوثيق بحمدها شكراً، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة أعدّها للمعاد ذخراً، وأشدّ بها للرشاد أزراً، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله المبعوث إلى العالم طُرّاً(2)، الموروث عنه من الحكم ما يطبق الآفاق برّاً وبحراً، ويدعو إلى التّناكح والتّناسل ليعود قلّ المؤمنين كُثراً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة هم بها أحق وأحرى، وعلى عمه العبّاس بن عبد المطلب الذي فاق الأعمام شرفاً وقدراً، وأولد من الأئمّة المهديّين نجوماً زُهراً(3)، جدّ مولانا وسيّدنا الإمام النّاصر لدين الله أمير المؤمنين الذي أوسع الإسلام إنجاداً ونصراً، وأوسع الأنام إرفاداً وبرّاً، وقمع أهل الكفر والعناد إرغاماً وقهراً، صلّى الله عليه صلاة ترفع له في الدّارين رتباً وذكراً، وبعد فالنّكاح من السّنن المنوّه بها شرعاً وعقلاً والأعمال المفضّلة عند الحاجة إليها على أفضل العبادات إذا كانت نفلاً وبه تمت الحكم الإلاهية، ووردت الشّريعة المحمدية، ونسخت المسافحة الجاهلية ورسخت أقدام المناسب(4) الطّاهرة الزكيّة، وقد رسم أعلى اله المراسم وأمضاها وأنفذها في أقصى الأرض وأدناها أثناء عقدة النّكاح بين فلان وفلانة مملوكي الخدمة الشّريفة المكتفيَين بهذه العبودية في التّلقيب شرفاً، وبهذه المملوكيّة ملكاً عظيماً مؤتنفاً(5) على صداق مبلغه كذا وكذا فخاراً لله لأمير المؤمنين صلوات الله عليه صلاة دائمة إلى يوم الدّين في هذا المرسوم المبين ولمملوكيه في هذا العقد المتين، وجعله مقروناً لأمير المؤمنين،

---

(1)محمد بن عبد المحسن المشهور ب"ابن الرّقاء" والد شيخ شيوخ حماة الشّرف الأنصاريّ،انظر ترجمتهما في :مبحث "عوامل ازدهار الخطابة" في الحديث عن الخطابة الاجتماعيّة.

(2) قولهم جاؤوا طُرا أي جميعا؛ وفي حديث قس: ومزادا لمحشر الخلق طرا:أي جميعا، وهو منصوب على المصدر أو الحال. قال سيبويه: وقالوا مررت بهم طرا: أي جميعا. انظر:ابن منظور، لسان العرب، مادّة طرّ.

(3) الأزهر من الرجال الأبيض العتيق البياض النير الحسن، وهو أحسن البياض كأن له بريقا ونورا، والجمع زُهر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادّة زهر.

(4) وذاتِ مَناسِبٍ جَرْداءَ بِكْرٍ، وذاتُ مَناسب: يُرِيدُ فَرَسًا مَنْسُوبَةً مِنْ قِبَلِ الأَب والأُم.انظر:ابن منظور، لسان العرب، مادّة قرزم.، والّذي يظهر للباحث أنها جمع كلمة "مَنسَب" وهي المصدر الميمي للفعل "نسب".

(5) (أنف) الهمزة والنون والفاء أصلان منهما يتفرع مسائل الباب كلها: أحدهما أخذ الشيء من أوله، والثاني أنف كل ذي أنف. وقياسه التحديد. فأما الأصل الأول فقال الخليل: استأنفت كذا، أي رجعت إلى أوله، وائتنفت ائتنافا. ومؤتنف الأمر: ما يبتدأ فيه. انظر:ابن فارس، معجم مقاييس اللُّغة، مادّة أنف.

بالنّصر والتّمكين ولمملوكيه المذكورين بالرفاء والبنين، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين)([1])

خطبة كمال الدّين بن العديم([2]) في سفارته إلى الخليفة العبّاسيّ في بغداد

(الحمد لله الذي أسبغ علينا جزيل النّعمة، ودفع عنا وبيل النّقمة، ومنّ علينا بالخلفاء الراشدين، والأئمّة المهديّين . وجعلنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بأنوارهم خير أمّة .

أحمده على هباته السنيّة، وصلاته الهنيّة، ومننه التي لا تحصى بحدّ، ونعمه التي لا تستقصي بعد – حمد من لزمه الحمد ووجب، وتمسّك من الطّريقة المثلى بأقوى سبب، وأحلّنا الله دار المقامة من فضله، لا يمسّنا فيها نصب .

وأشهد أن لا إله الله وحده، شهادة من أزال عنه الشكّ ونفى، وخلص منه الإيمان وصفا، وتبوّأ من منازل الفوز غرفا، واكتسب بطاعة إمامه فخرا وشرفا . وأشهد أن محمداً عبده المصطفى المجتبي، ورسوله الذي اقتعد ذروة الشرف واجتبى، وتبوّأ على المقامات رتبا، وفضل العالمين أصلا ونسبا – صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ما هبّت شمالٌ وصبا .

والصّلاة والسّلام على قسيم النبّي في النسب، وشريكه في مدارج الفخار والرتب . واحدي ماله من المناقب والحسب، خليفة الله في أرضه القائم بسننه وفرضه،المستخرج من عنصر النّبوة، المخصوص بفضيلتي العلم والأبوّة : إمام الزّمان، المتهجّد بتلاوة القرآن،الذي هجر في حفظ دين الله وَسَنَه، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ذي الفضل المبين، والحق اليقين . الإمام الأوّاه : المستعصم بالله، أمير المؤمنين لا زالت جباه الملوك العظماء بثرى عتباته الشريفة موسومة، وأرزاق العباد بما جرى من أوامره اللطيفة مقسومة، والأقضية والأقدار جاريةً بما يوافق حكمه ومرسومة، والأقذية والأقذار بطول بقائه منفيةً محسومة :

ماذا يقول الذي يتلو مدائحه   وقد أتتنا بها الآيات والسّور
إن قال، فالقول يفنى دون غايتها   وإن أطال، ففي تطويله قصر

([1])اليونيني،ذيل مرآة الزمان 29/2-293.

([2])عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي،مؤرخ، محدث، من الكتاب، له شعر حسن، ولد بحلب، ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق، وتوفي بالقاهرة،ازركلي،الأعلام 40/5.

بحبهم يدرك الأمل والسول([1])، وطاعتهم مقرونةٌ بطاعة الله والرسول، تعظيمهم واجب مفترض، وبموالاتهم يدرك الفوز والغرض، أقرب الناس إلى الله من هو في ولايتهم عريق، وأولاهم بالنجاة من هو في بحر محبتهم غريق . ولما كان عبد الديوان العزيز : يوسف بن محمد بن غازي – المستعصمي – ممن تقمّص بلباس هذه الأوصاف، وتخصص باقتباس هذه الشّيم الشّراف، وتردّى([2]) بالتمسّك في هذه الحلّة الجميلة، وتبدي بالتنسّك بهذه الخلّة الجليلة، واغتدى متقلباً في صدقات الديوان، واغتذى[3] من نعمه بلبان الإحسان، وورث ولاء هذا البيت النبويّ الفاخر، كابراً عن كابر، وأصبح أوّلاً في العبوديّة، وإن أمسى زمنه الآخر، وكان أحقّ العبيد بأن يقبل لسلفه سوالف الخدم، وأولاهم بأن يسبل عليه معاطف أذيال الجود والكرم، أحبّ أن تظهر عليه آثار هذه النّعمة، وأن يدرك بها الفضل في الدّنيا، كما يرجو في الآخرة الرّحمة .فارتاد من رعيته من يقوم مقامه في تقبيل الأرض، ويقف عنه هذا الموقف الجميل لأداء .

ووجد هذا العبد المملوك – الماثل بين يدي مولانا : سلطان الوزراء وسيد الملوك – أقدمهم في ولايات هذه الدّولة النبويّة المعظّمة أصلا، وأبلغهم في موالاة المواقف المقدّسة المكرّمة نسلا، وأصلبهم عند العجم في دعوى الرقّ والولاء عودا، وأثبتهم في التّعلّق بدولة الحقّ والانتماء عمودا، فندبه إلى المسير إلى دار السّلام،والنّيابة عنه في هذا المقام،والطّواف حول كعبة الرّجاء والاستلام، وإنهاء ما تجدّد من الأحوال بمصر والشّام،وأن يضرع إلى عواطف الإفضال، ومشارع النّوال، ويخضع لمواقف الآمال، وشوارع الإقبال في أن يحفظ له حق الآباء والجدود .

وقد وقف العبد المملوك عنه في هذا الموقف الجليل، وحجّ عن فرضه إلى كعبة الجود والتأميل، وحظى باستلام حجر ركنها وفاز بالتّقبيل، ويودّ مرسله لو فاز به أو استطاع إليه سبيل، فإنّه قد حصل للعبد من القبول والثّواب ما أفاء على الأمل وزاد على الحساب، وتصدّق عليه من الدّيوان العزيز بصدقة يبقى فخرها في الأعقاب، ولا ينسخ حكمها مرّ السّنين والأحقاب، والله تعالى يسبغ ظلّ الدّيوان العزيز على كافّة أوليائه، ويمتّعهم بدوام اقتدار سلطانه وطول بقائه، ويوزعهم شكر مولانا سلطان الوزراء وجزيل آلائه،ويتولى حسن مجازاته عنهم،

---

(1) والسول: ما سألته. وفي التنزيل العزيز: قال قد أوتيت سؤلك يا موسى؛ أي أعطيت أمنيتك التي سألتها، قرئ بالهمز وغير الهمز. وأسألته سولته ومسألته أي قضيت حاجته؛ والسولة: كالسول. انظر:ابن منظور، لسان العرب، فصل السين المهملة.

(2) أي لبس، ويقول ابن فارس: (مما شذّ عن الباب الرِّداء الذي يُلبَس، ما أدري مِمّ اشتقاقُه، وفي أيِّ شيءٍ قياسُه. يقال فلانٌ حسَنُ الرِّدْية، من لُبْس الرداء). انظر: ابن فارس،معجم مقاييس اللغة باب (ردي)

(3) (واللبان)، بالكسر: (الرضاع). يقال: هو أخوه بلبان أمه، ولا يقال بلبن أمه، إنما اللبن الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرها من البهائم. انظر:الزبيدي، تارج العروس، مادّة لبن

فإنّهم عاجزون . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليما .

قد سيّر عبد الديوان العزيز : يوسف، إلى الخزائن المقدّسة، والمواطن التي هي على التّقوى مؤسّسة – خدمةً على يد أقلّ مماليك الدّيوان وعبيده من طارف إنعام الدّيوان العميم وتليده [1]، وسالف الإحسان القديم وجديده، وهو يضرع إلى العواطف الرحيمة، ويسأل من الصّدقات العميمة، أن ينعم عليه بقبولها، والتّقدم بحملها إلى الخزائن الشّريفة ووصولها،وأن يكسى بذلك فخراً لا يبلي جدّته مر الليالي والأيام،ولا يذهب نضرته كرّ السنين والأعوام، والسّلام)[2]

[1] العرب تقول: ماله طارف ولا تالد ولا طريف ولا تليد،فالطّارف والطّريف: ما استحدثت من المال واستطرفته،والتلاد والتليد: ما ورثته عن الآباء قديما. انظر: الزبيدي، تاج العروس، مادّة طرف.

[2]النويري،نهاية الأرب 370/29-376.

خطبة صلاح الدّين الأيوبيّ في المصاف الأعظم على عكّا
بصيغة العماد الكاتب

(وحضر أكابر الأمراء عند السلطان يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان. فقال:اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله، وأناخ بكلكل([1]) كَلِّه، وقد برز بالكفر كلِّه الإسلام كله، وجمع حشْدَه وحَشَدَ جَمْعَهُ، واسْتَنْفَدَ وسعه، وإن لم نعالج الآن فريقَه، والبحر قد منع طريقه، أعضل داؤه، وتعذر غدا لقاؤه، فإنّه إذا سكن البحر، واستسهل ركوبَه السّفر، تضاعفت أعداد الأعداء، فظهر الإعدام من الأعداء، وخرج الداء عن قبول الدّواء.
ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها، ولا قوة نستحضرها. وما بلي بهذا المعشر إلا معشرنا، وما بإزاء عسكر الكفر إلا عسكرنا، وما في المسلمين من ينجدنا، وما في بلاد الإسلام من يسعدنا. وعساكرنا حاضرة، وعزائمنا للتواني حاظرة، وعيون اسنّتنا إلى الفتك بالعدا ناظرة، وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين، ولا بقاء للنِّقاد([2]) إذا أصحر منه ليث العرين. فالرأي كل الرأي في المناجزة، قبل وقوفهم على محاج المحاجزة. ثم قال: ليشر كل منكم برأيه، ولا يقدم على قول ورأيه من ورائه) [3]

([1])جمع كلاكل: صدر، أو هو ما بين التّرقوتين. أناخ عليه البؤس بكلكله: ثقل عليه وضغط.

([2]):ضَرْبٌ من الشَّجر له نَوْرٌ أصفرُ ينبُتُ في القيعان

[3]ابن العماد الأصفهانيّ، الفتح القسي ص175.

خطبة من الوعظ الصوفي لابن عربي[1]

(نفسي أخاطب، وإياي أعاتب، أيها المرسل عنان شهواته، الجائل في ميدان لذاته، السابق في حلبة هفواته، إلى كم ذا الاغترار بالعمر القصير؟، كأنك ما علمت أن إلى الله المصير!، فبادر إلى التوبة لعلّك تقال، وألق عن ظهرك أوقار الأوزار الثقال، يصح لك ما أمّلت في العقول، في حضرة القبول، فقد قال قيّوم السماوات والأرض: وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ،وأمر به في كتابه المبين: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)([2])،ثم رغّب فيما يحبه للمذنبين، فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)([3])

فيا أيها الناس! اعلموا أن كل من ظهرت منه حوبة ؛ فإن لله عليه توبة، فمن عظمت حوبته، جلّت توبته، فتوبة عالم الشهادة من الأعمال، وتوبة النفوس من الآمال، وتوبة الأرواح من الوقوف مع حضرات الجمال، وتوبة الأسرار من معاينة غين الكمال، وتوبة أسرار الأسرار مما لا ينال، والسر الواحد الجامع، عدم رؤية الثواب النافع، وهذا باب يدق وصفه، ويمنع كشفه، فألق سمعك أيها المغتر بحياته!، المحجوب على الحقيقة بمشاهدة صفاته، وخذ خطاب الحق، من حضرة الفرق بلسان الصدق، فيا محلّ العدم! عليك بالبكاء والندم، ويا محلّ التمحيص والاختبار! عليك بالافتقار والاعتذار، ويا محل الاطلاع! عليك بالنزوع والإقلاع، فشمّر الذيل، واقطع بالتلاوة زمان الليل، وطهّر ثيابك قبل انسلاخك عنها، واعرف قدر جنايتك وتب إلى الله عز وجل منها، وإياك والخديعة، باسترسال الطبيعة، وأقم ميزان العدل بين حجبك وجنايتك، وكحّل بميل الاعتبار عين بصيرتك، لتعرف قدر ظلام عمايتك، واعلم أنك على ما فرّطت في جنب الله نادم، وعلى ما قدّمت بين يديك قادم، وأدنى مرامي أفعالك وأقصاها في كتاب: (لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها)([4])

فطوبى لمن غدا تائبا منيبا   ذليلا لربّ جليل
تراه إذا جنّ ليله   كثير الأنين كثير العويل
قريح الفؤاد حليف السهاد   يراعي النجوم بطرف عليل
إذا الدمع سال على خدّه   محا أثر الدمع حر الغليل)([5])

---

[1] محمد بن علي بن محمد ابن العربي المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر(560-638هـ): فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية (بالأندلس) وقام برحلة، فزار الشام وبلاد الروم.وأنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه.واستقر في دمشق، فتوفي فيها. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة. انظر:الزركلي،الاعلام 281/6

([2]) النور 31

([3])البقرة222

([4]) الكهف 49

([5]) ابن فضل الله العمري،مسالك الأبصار 332/8-333.

خطبة أخرى لابن عربي

(فلا يقع بصر إلا عليه، ولا يخرج خارج إلا منه، ولا ينتهي قاصد إلا إليه، فيا أولي الألباب!، أين الغيبة والحجاب:

ومن عجب أني أحنّ إليهم وأسأل شوقا عنهم، وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

الله من سُنّة الغفلة-: أنّ المحاسبة في هذه الدار على قدر المحاسب، فمنهم معاقب، ومنهم مغالب، ومنهم معاتب، ومنهم محاسب. فمحاسبة الإحساس معاقبة، والأنفاس مغالبة، والأرواح معاتبة، والأسرار مخاطبة. فحاسب نفسك- يا أخي! - في مهل الأنفاس، قبل حلول الأرماس([1])، ومثّلها كعامل خراج بين يديك من قبل أن ينعكس الأمر عليك، فكأني بك في ذلك اليوم تدعو فلا تسمع مجيبا إلا: كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)([2])

([1])الرمس :القبر مستويا مع الأرض والجمع أرماس.

([2])ابن فضل الله العمري،مسالك الأبصار 333/8.

خطبة ابن المنير الإسكندرانيّ([1])لما دخل هولاكو الشام سنة 658هـ

(الحمد لله الَّذِي يرحم العيون إذا دمعت، والقلوبَ إذا خَشَعت، والنَفوسَ إذا خَضَعت، والعزائم إذا اجتمعت، الموجود إذا الأسباب انقطعت، المقصود إذا الأبواب امتنعتْ، اللّطيف إذا صدمت الخطوب وصدَّعت، رُبَّ أقضيةٍ نزلت فما تقدّمت حتّى جاءت ألطافٌ دفعت، فسُبحان من وسِعت رحمته كلَّ شيء، وحقّ لها إذا وسِعت، وسعت إلى طاعته السماوات والأرض حين قَالَ {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا}([2]) فأطاعت وسمعت، أحمده لصفاتٍ بَهَرتْ، وأشكره عَلَى نعمٍ ظهرتْ، وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك لَهُ، شهادةً عَنِ اليقين صدرتْ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله بعثَهُ والفتنةُ قد احتدَّت والحاجة قد اشتدَّت، ويدُ الضَلالِ قد امتدَّت، وظُلُمات الظُّلم قد اسودَّت، والجاهليّة قد أخذت نهايتها وبلغت غايتها، فجاء بمحمدٍ صلَّى الله عليه وسلم، فملك عِنانها وكَبَت أعيانها , وظهرت آياته فِي الجبابرة، فهلكت فرسانها، وفي القياصرة فنكّست صُلبانها، وفي الأكاسرة فصدّعت إيوانها، فأوضح عَلَى يده المحجة وأبانها، صلى اللَّه عَلَيْهِ وعلى آله فروع الأصل الطّيّب، فما أثبتها شجرة وأكرم أغصانها.

أيها النّاس، خافوا اللَّه تأمنوا فِي ضمان وعده الوفي، ولا تخافوا الخلق وإن كثروا، فإن الخوف منهم شركٌ خفيّ، ألا وإنّ من خاف اللَّه، خاف منه كل شيء، ومن لم يخفِ اللَّه خاف من كل شيء , وإنما يخاف عزّ الربوبيّة من عرف من نفسه ذُلّ العبوديّة، والاثنان لا يجتمعان فِي القلب، ولا تنعقد عليهما النية، فاختاروا لأنفسكم، إما الله وإمّا هذه الدنيا الدَّنية، فمن كانت الدنيا أكبر همه لم يزل مهموماً، ومن كانت زهرتها نُصب عينه لم يزل مهزومًا، ومن كانت جِدّتها غاية وَجْده لم يزل مُعْدَمًا حتّى يصير معدومًا، فالله اللَّه عباد اللَّه، الاعتبار الاعتبار، فأنتم السُّعداء إذا وُعظتم بالأغيار، أصلِحوا ما فَسد، فإنّ الفساد مقدّمة الدّمار، واسْلكُوا الْجدّ تنجوا فِي الدّنيا من العار، وفي الآخرة من النار، اتقوا اللَّه وأصلِحوا تُفْلحوا، وسلموا تَسلموا، وعلى التّوبة صمّموا واعزموا، فما أشقى من عقد التّوبة بعد هذه العِبَر ثمّ حلّها، ألا وإنّ ذنبًا بعد التّوبة أقبح من سبعين قبلها) ([3]).

([1]) هو: أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن منصور بْن القاسم بْن مختار القاضي العلّامة ناصر الدّين ابن المنير الإسكندرانيّ(620-683هـ) كَانَ مَعَ علومه لَهُ يدٌ طُولى فِي الأدب وفنونه، ولناصر الدّين " ديوان خُطب "، وقد وليّ قضاء الإسكندرية وخطابتها مَرّتين. انظر ترجمته في: الذهبي، تاريخ الإسلام 490/15-491،اليونيني،ذيل مرآةالزمان209/4-210

([2]) سورة فصلت 11.

([3]) الذّهبي، تاريخ الإسلام 491/15، اليونيني،ذيل مرآة الزمان 209/4.

خطبة عن الزلزلة سنة 702هـ

قائلها غير معرف

(الحمدلله الذي حلم علينا فعفا! وسامحنا فغفر ما ظهر منّا وما خفا، وجمّلنا بلطفه الجميل إذ على شفا، أحمده على نعمه التي لا يُحصى عددها، ولا يعدّ مددها، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، إلهٌ بلا فأحسن في بلايه، وقدّر وقضا. فحكمه نافذٌ في أرضه وسمايه، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله الذي بمولده ظهرت الدلايل، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دايمة البواكر والأصايل. أيّها النّاس، إنّ المعاصي قد كثُر عمّالها، حتّى تباهيتم في أعمالها، وفشت في ساير الأرض وأعمالها (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)([1]) فلذلك (زُلزِلت الأرض زلزالها) (وقال الإنسان مالها) ([2]) ولولا رحمة الله علينا لأخرجت الأرض أثقالها فيا لها من ساعة يا لها، تالله قد زهقت النفوس عندها، وطاشت العقول، إلّا أنّ الله بلطفه ردّها، لما ماجت الأرض بأسرها، وظُنّ أن ذلك يوم حشرها، فلولا ما سبق من آجالها، لهلكت النفوس عند زلزالها.

فالتوبة التوبة عباد الله في الأيام الباقية الفانية! واستحيوا ممن لا تخفى عليه خافية، واعتبروا بمن هلك تحت ردمها فجأة، وقد كان في تلك الساعة في عافية، وأصبح منزله بعد التشييد مهدومًا، وماله بيد الورّاث مقسومًا، وحُمِل إلى قبره، فعاد التراب إليه مردومًا، ولم تغنِ عنه الدنيا وأموالها، لما هلك في ساعة زلزالها! فرحم الله امرأ تاب عمّا جنا، وتقرّب من فعل الخير ودنا، وتزوّد للآخرة. فإنّ الدنيا ليست لحيٍّ وطنًا، ولبس للخير أثوابًا، فلا بدّ أن يلبس للقبر كفنًا. فنسأل الله السّلامة إذا حمِيَت سلاسلُها وأغلالها و(زُلزِلت الأرضُ زلزالها) (يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خير محضرًا)([3]) (يوم تأتي كلّ نفسٍ تجادل عن نفسها)([4]) محررًا، يوم يفرّ الوالد من الولد، والولد من الوالد، يوم لا ينفع المال الصامت، ولا الناطق ولا التّالد، يوم تُنسَف جبالها (إذا زلزلت الأرض زلزالها) أعاذنا الله وإياكم من عذاب النار، وأسكننا وإياكم دار

([1]) سورة محمد 24.

([2]) سورة الزلزلة 1+2.

([3]) سورة آل عمران 30.

([4]) سورة النحل 111.

القرار،فنعم عُقبى الدار. وصلّى الله على سيّدنا محمد الشفيع في القيامة عند أهوالها (إذا زلزلت الأرض زلزالها) وحسبنا الله ونعم الوكيل.

خطبة عبد السّلام أحمد([1])

وعمل بدمشق مجلساً في حدود السبعين والستمائة فارتجل فيه خطبة، أولها:

(الحمد لله الذي ملأ الوجود جوداً وإحساناً، وأسبغ على كل موجود من سوابغ نعمه سراً وإعلاناً، وجعل السّجود لقربان حضرته قرباناً، وأوفر القلوب بتحقيق شهوده إيماناً. زفّت عليهم عروس محبّته، فجعلوا النّفوس عليها سكراناً، واستبدلوا من الملبوس أشجاناً وأحزاناً، ونثروا الدّموع على الخدود فسالت غدرانها.

فلمّا وثّقوا العقود وحفظوا العهود، أعطوا من الصدود أماناً. فلو رأيتهم وقد جنّ عليهم الليل، لحسبتهم في ثياب الخشوع رهباناً، وفي مصابرة الولوع فرساناً. صفّوا على سرير الصفا إخواناً، لا تجد فيهم خوّاناً، وأصبحوا في خلوة الوفاء نُدماناً، لا تعرف فيهم نَدماناً. نصبوا للنّصّب أشباحهم، ورفعوا للرُّعب نُواحهم، وخفضوا من الرّهّب جباهم، وفيهم نائح باك، وصائح شاك، يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً. قد تجلى لهم الجليل، ونادى يا جبريل! أنم فلاناً وأقم فلانا...**(يذكر شعرا هنا)**

يا جبريل! أكحل بالنّوم أجفان من جفانا، فإنّا لا نرضى لهّوانا من رضى لنفسه هّوانا، ولا يدخل إلى حمانا إلا من وقف على أبوابنا زمانا، ولا يفوز بلقانا إلا من صرف وجهه تلقانا. فمن كان بالمحبة عّنانا أطلق في ميدان المحبة عِنانا، ومن تفرّد لهوانا تجرّد عمّن سوانا.

يا جبريل! ما ضرّ من فرّقه الشّوق ألوانا إذا ما حشر تحت لوانا، ولا ضلّ من فتنة الوجد أفنانا، إذا ما انتهى إلى فّنانا. يا جبريل! بعينا يعمل المتجمّلون سرًّا وإعلانا، وبسمعي ما لاقى المحبوب شيباً وشبانا. فمن بات بما قضيت له فرحانا، أهديت له روحاً وريحانا. ومن جعل قلبه لمحبتي ميدانا، ملأته عَرفاً وعِرفانا، ومن هجر في هواي أهلاً وأوطانا، أمّنتهم عند لقائي صدّاً وهِجرانا، ومن تحمّل بالافتراق عصيانا، أنزلته بالاعتراف عفواً وغفرانا، ومن أبحته النّظر إلى جمالي عيانا، فقد وجب الشّكر عليه شكراً وشكرانا). ([2])

ويذكر شعرا طويلا أتركه للرجوع إلى المصدر الذي ورد فيه.

([1])عبد السّلام بن أحمد بن عساكر، عزّ الدّين أبو محمد الأنصاري المقدسيّ، الواعظ المطيق المغلق، الشاعر الفصيح الذي ينسج على منوال ابن الجوزي وأمثاله،وكان له قبول من الناس.**انظر:**العيني،عقد الجمان(عصرسلاطين المماليك)169/1،الزركلي،الأعلام 355/3.

([2])اليونيني،ذيل مرآة الزمان 15/4-17

خطبة ثانية لعبد السّلام أحمد

في مجلس حضره مجموعة كبيرة من العلماء في مكّة

(الحمد لله ذى القدرة التي لا تضاهى، والحكمة التي لا تتناهى، والقسمة لا يطيق خلق أن يتعداها. الذي تعزز في أزليّته، فلا يعرف الأول أولها. تسرمد في أبديته، فلا يدرك الآخر أخراها، وتقدس في أحديته فلا تتحيل العقول خلاها. كيف تعرفه العقول وقد عقلها عن بلوغ مناها؟ وكيف تتكره النفوس وقد ألهمها فجورها وتقواها؟ وكيف يمثله الجهول، وقد أعجزه عن معرفة نفسه كيف سواها؟ وكيف يعطله العطول وقد أغطش ليلها وأخرج ضحاها؟ من ذا الذي سمك السماء وعلى غير عمد بناها؟ من ذا الذي دوّر أفلاكها وفي قضاء بيد مشيئته مشّاها؟ ومن ذا الذي سخّر أفلاكها وفي حمى حمايته حماها؟ من ذا الذي قال للسّموات ائتينا طوعاً وكرها فأتت طائعة حين دعاها؟ من ذا الذي يعلم خفايا الغيوب وما في طواياها؟ من ذا الذي يبصر طوايا القلوب وما في رؤياها؟ من ذا الذي يسمع أنه العليل إذا هو في علته أبداها؟ من ذا الذي ينقع غلّة الغليل إذا اشتكت ظماها؟ من ذا الذي يرحم ذِلّة الذليل إذا الخطب الجليل وافاها؟ من ذا الذي يستر زلّة الخاطي وغطّاها؟ من ذا الذي يغفر زلّة العاصي وفي صحائف السّيئات محاها؟ من ذا الذي تجلّى على قلوب أوليائه ومن دون الشّك جلّاها؟ ومن ذا الذي أدار كؤوس محبته على ندمان حضرته يستقاها؟ من ذا الذي جعل خليقته في قبضتينفهذه أسعدها وهذه أشقاها؟ من ذا الذي صوّرك فأحسن صورك؟ وفتق سمعك، وخرق بصرك، ثم برحمته شملك، وعلى أكفّ رأفته حملك، وجعل عن يمينك ملك، وعن شمالك ملك، ينقلان عملك إلى من ملك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. انظر إلى الرّياض، كيف أخباها، فاستخرج منها ماءها ومرعاها، وانظر إلى الغياض كيف اهتزت رباها، إذْ هو بلطيف حكمته ربّاها. انظر إلى الأرض كيف دحاها، ونشرها من تحت هذه البقعة الشّريفة بعد ما طواها. فسبحان من شرّف هذه البنية واصطفاها، وجعلها حمى لمن حام حول حماها، وحرما آمنا لمن وفّى ما عليه حين وافاها، ووجهه لمن واجهها الجاها، وأراد عندها جاها. فهي التي هاجر منها الحبيب، ما هجرها ولا قلاها، وما انقلب قلبه سواها. حتى أنزل عليه جبريل في آيات تلاها: " قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينّك قبلة ترضاها "([1])) ([2])

ويذكر شعرا متوسّطا في طوله

([1])سورة البقرة 144.

([2])اليونيني،ذيل مرآة الزمان،19/4.

خطبة محيي الدّين بن عبد الظاهر([1]) المكتوبة
في عقد نكاح لأبناء السّلاطين والأمراء

وهذه نسخة صداق، كتب به للملك السّعيد بركة، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ، على بنت الأمير سيف الدّين قلاوون الصالحيّ الألفيّ قبل سلطنته بالقلعة المحروسة، من إنشاء القاضي محيي الدّين بن عبد الظاهر؛ وهي:

(الحمد لله موفّق الآمال لأسعد حركة، ومصدّق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقّق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانه وصهره ملكه، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا، وميّز أقدارهم باصطفاء تأهّله حتّى حازوا نعيما وملكا كبيرا، وأفرد فخارهم بتقريبه حتّى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نورا، وشرّف به وصلتهم حتّى أصبح فضل الله عليهم بها عظيما وإنعامه كثيرا، مهيّيء أسباب التّوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع كلّ إملاك من الأملاك بالشّموس والبدور والأهلّة آهلة، جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار حتّى حصلت لهم النّعمة الشّاملة وحلّت عندهم البركة الكاملة.

نحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنّعمة الاستيداع، وأجمل لتأميلهم الاستطلاع، وكمّل لأخيارهم الأجناس من العزّ والأنواع، وأتى آمالهم بما لم يكن في حساب أحسابهم من الابتداء بالتّخويل والابتداع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حسنة الأوضاع، مليّة بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع، ونصلّي على سيّدنا محمّد الذي أعلى الله به الأقدار، وشرّف به الموالي والأصهار، وجعل كرمه دارّا لهم في كلّ دار، وفجْره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار، صلّى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يانعة الثّمار.

وبعد، فلو كان اتّصال كلّ شيء بحسب المتّصل به في تفضيله، لما استصلح البدر شيئا من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئا من الرّياض لهطوله، ولا الذّكر الحكيم لسانا من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثّمين شيئا من التّيجان لحلوله؛ لكن ليتشرّف بيت يحلّ به القمر، ونبْت يزوره المطر، ولسان يتعوّذ بالآيات والسّور، ونِثار يتجمّل باللآليء والدّرر؛ ولذلك تجمّلت برسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصهاره وأصحابه، وتشرّفت أنسابهم بأنسابه، وتزوّج صلّى الله عليه وسلّم منهم، وتمّت لهم مزيّة الفخار حتى رضوا عن الله ورضي عنهم.

والمرتّب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمدّه الوجود، وتقرير أمر يقارن سعد الأخبية منه سعد السّعود، وإظهار خطبة تقول للثّريّا لانتظام عقودها:

([1])ا عبد الله بن عبد الظاهر القاضي محيي الدين االسعدي المصري(620–692) ولد ونشأ بالقاهرة،وتفقّه ومهر في الإنشاء والأدبيّات، كان شيخ أهل التّرسل، ومن سلك طريق الفاضلية في إنشائه. انظر: الكتبي،فوات الوفيات 179/2.

كيف، وإبراز وصلة يتجمّل بترصيع جوهرها متن السّيف الذي يغبطه على إبداع هذا الجوهر به كلّ سيف، ونسج صهارة يتمّ بها- إن شاء الله- كلّ أمر سديد، ويتّفق بها كلّ توفيق تخلق الأيّام وهو جديد، ويختار لها أبرك طالع:

وكيف لا تكون البركة في ذلك الطّالع وهو السّعيد؟.

وذلك بأن المراحم الشريفة السّلطانية أرادت أن تحصّن المجلس الساميّ بالإحسان المبتكر، وتفرده بالمواهب التي يرهف بها الحدّ المنتضى ويعظم الجدّ المنتظر، وأن ترفع من قدره بالصّهارة مثل ما رفعه صلّى الله عليه وسلّم من قدر صاحبيه: أبي بكر وعمر، فخطب إليه أسعد البريّة، وأمنع من تَحْميها السيوف المشرفيّة، وأعزّ من تُسبَل عليها ستور الصّون الخفيّة، وتضرب دونها خدور الجلال الرّضيّة، وتتجمّل بنعوتها العقود: وكيف لا؟ وهي الدّرّة الألفيّة؛ فقال والدها وهو الأمير المذكور: هكذا ترفع الأقدار وتزان، وكذا يكون قران السّعد وسعد القران!!!؛ وما أسعد روضا أصبحت هذه المراحم الشريفة السلطانية له خميلة!، وأشرف سيفا غدت منطقة بروج سمائها له خميلة!، وما أعظمها معجزة آتت الأولياء من لدنها سلطانا!، وزادتهم مع إيمانهم إيمانا! وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لإبرامها: ليت!، وأشرفها عبوديّة كرّمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت !.

وإذ قد حصلت الاستخارة في رفع قدر المملوك، وخصّصته بهذه المزيّة التي تقاصرت عنها آمال أكابر الملوك؛ فالأمر لملك البسيطة في رفع درجات عبيده كيف يشاء، والتّصدّق بما يتفوّه به هذا الإنشاء؛ وهو: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب مبارك تحاسدت رماح الخطّ وأقلام الخطّ على تحريره، وتنافست مطالع النّوّار ومشارق الأنوار على نظم سطوره، فأضاء نوره الجلالة وأشرق، وهطل نوءه([1]) بالإحسان فأغدق، وتناسبت فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل فقال الاعتراف: هذا ما تصدّق، وقال العرف: هذا ما أصدق مولانا السلطان: أصدقها ما ملأ خزائن الأحساب فخارا، وشجرة الأنساب ثمارا، ومشكاة الجلالة أنوارا، وأضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشّرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا، فبذل لها من العين([2]) المصريّ ما هو باسم والدها قد تشرّف، وبنعوته قد تعرّف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرّف)([3])

([1]) المطر الشّديد.

([2]) ما ضرب نقدا من الدنانير.

([3])القلقشندي،صبح الأعشى 343/14.

نسخة صداق ناصر الدّين محمد بن الخطيريّ، من إنشاء المقرّ الشّهابيّ بن فضل الله([1])

(الحمد لله الذي زاد الأصول الطّيّبة قربا، وزان الأنساب الطّاهرة بصلة تتأكّد حبّا، وصان كرائم البيوت القديمة الفخار بمن يناضل عن حسبه ذبّا، ويناظر العلياء فلم يبْنِ إلا بين منازل النّجوم بيوتا ولم يسبل سوى السّمر سمر القنا حجبا.

نحمده حمد من دعاه قبل بثّ النّسم فلبّى، واستدعاه لأخذ العهد عليه أمام تفريق القسم فما تأبّى، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تستنطق ألسنة وتشكر قلبا، وتستغدق أنواع السّرور فتضيء البشائر بروقا وتمطر الرّحمة سحبا، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي قام في تكثير الأمّة حتى زاد عددها على مواقع القَطر وأربى، وقال ممّا أمر به: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وعلى أقربائه صلاة تضمّ آلا وصحبا، ما سارت الشّهب تقطع الآفاق شرقا وغربا، وسلّم تسليما.

وبعد، فإنّ أولى ما اشتبك وشيجه، واشتبه في منابت الأيك بهيجه، وانتبه في أرائك الخمائل أريجه، وانتدب لإتيانه الأفق وظهر عليه من ذهب العشاء تمويهه ومن لمع الصّباح تدبيجه- ما اتّبعت فيه الشريعة المطهّرة حيث لا تختلف الأئمّة، والسّنة النبويّة على من سنّها أفضل الصلاة والسّلام فيما تأتلف به البُعداء، وتكثر لمباهاته الأمم يوم القيامة هذه الأمّة، وتدنو به الأجانب بعضهم من بعض ويُجعل بينهم مودّة ورحمة، وتعدّ به أياد جمّة لا تحصر ويخلّد به في العاقبة شرف الذّكر ويتعجّل به شرف النّعمة؛ وهو النّكاح الذي تشتدّ به الأواصر، وتعتدّ به الموارد لتمثيل أكثر الصّور من أزكى العناصر، وتمتدّ به همم الأبطال لما يستخرجه بحفدة أبنائه من أتمّ قوّة وناصر. وأكمله ما تماثلت في أشرف البيوت العريقة وجوه فخاره، وتقابلت في مطالع السّعود- حيث البدر المنير والشّرف الخطير- مشارق شموسه ومطالع أقماره.

وكان الأبوان في أهل الفخار من جرثومة بسقا، وأرومة([2]) تفرّقت فروعها ثم تلاقى منها غصنان واعتنقا، من بيت ما حُجبه إلا مواضي الصّفاح، ولا شهبه إلا طلائع الأسنّة في رؤوس الرّماح، ولا سحبه إلا ما يفيض على جنباته من النّفوس أو يفيض من السّماح، ولا سِجفه([3]) إلا المناقب لولا أن الثّريّا جاذبت ما يعرض في السماء أثناء الوشاح؛ وكان هو الرّاغب إلى عمّه، الخاطب إليه ما لم يكن يخبأ إلا لقسمه، الطّامح بنظره إلى عقيلة الفخار في غرفها، الطّامع بخطبة الشّمس شمس النّهار إلا أنها في بيت شرفها، المتوقّع من كرم عمّه الإجابة التي لحظها

([1]) هو شهاب الدين أحمد ابن فضل الله،ولد في دمشق سنة 700هـ،وتوفي في القاهرة سنة 449هـ، وتقلّد رئاسة ديوان الإنشاء في عهد السلطان النصر محمد بت قلاوون،وهو صاحب كتاب مسالك الأبصار.انظر:الصفدي، الوافي بالوفيات 163/8.

([2]) أروم : أصل الشجرة،او ما يبقى منها في اللآض بعد قطعها. هذا شجر ترتقي أرومته إلى مئات السّنين.

([3])السجف : أحد السترين المقرونين بينهما فرجة،والجمع أسجاف.

بأمله، وتولية يد كريمة لا يعتدل الزمان إلا إذا حملت شمسها في بيت حمله، توقّعا لنسل لا يزال به شرف هذا البيت الكريم موجودا، ونسب إذا عدّ ولد منه الآباء عدّ جدّين سعيدين هذا مسعودا وهذا محمودا، فتلقى قصده بإكرام بوّأه أكناف الشّرف، وأوطأه فرش الكرامة ممتّعا بنعيم التّرف، ابتداعا للكرم المألوف، واتّباعا للسّنّة الشّريفة إذ كان الأقربون أولى بالمعروف.
فتباريا جودا سارع كلّ منهما في أداء حقّه إلى الواجب، وتجاريا إليه ليلحقا شأو أبويهما وكلّ منهما يعلم أنه العين والعين لا ترتفع على الحاجب؛ وأتمّ الجناب الشّرفيّ محمود– أدام الله نعمته بحسن إجابته، ويمن رغبته في أهل عصبته، وأهّل جنوده إلى أن ساروا إلى الهيجاء تحت عصابته– بأن فوّض هذا الأمر إلى أخيه الكبير والد الخاطب، وسكت وقال: هو في التّصرف وعنّي المخاطب، وله الأمر ولولا الشّرف بنسبة الأخوّة إليه لما قلنا: إلا أنّنا ملك يده، وإذا كان العمّ صنو الأب فأيّ فرق بين ولدي وولده؟، ولئن اختصّ في نسبة هذه الزّوجة في يومه هذا فإنّ أولادها لا تعرف إلّا به في غده؛ فكمل هذا العقد، وأشرق به السّعد الطالع أضوأ ممّا قدّم وأخّر من النّقد، وكان من تمام التّكريم، أن قال قائله:
بسم الله الرحمن الرحيم) ([1])

([1])القلقشنديّ،صبح الأعشى355/14-365.

خطبة صداق من إنشاء عمر بن المظفّر بن الوردي(749)(1)

(ولي من خطبة نكاح بعض بني النصيبي على بنت عمه:

الحمدلله الذي أطلع في منازل الشّرف الرفيع شمسًا مصونة البها والضيا، وأبدع لشرف تاجه البديع درّة مكنونة في بحر الحبا والحيا، ومنحه عِقد عَقدٍ زان به جيد الوجود، وجمع الشّمس والقمر في سعود الطّالع وطالع السّعود، نحمده على تأكيد عطف القربى بالمصاهرة، ونشكره على هذه الحركة الجامعة إن شاء الله خير الدنيا والآخرة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجمع الشّمل وتشمل الجمع، وتهدي أجمل منظر وأحسن حديث إلى البصر والسّمع، ونشهد أن محمّدًا عبده ورسوله المرسل بالشّريعة المطهّرة والسنّة الطولى، التي من استمسك بها ظفر بسعادة الآخرة والأولى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المحسنين، وعلى أزواجه أمّهات المؤمنين، وبعد،

فإنّ أولى ما بادر إليه أولو الأحلام، وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لتكثير الأمة متضمّنًا، ولفضيلة العاجل والآجل نافعًا نفعًا بيّنًا، وهي سنّة النّكاح التي عظمت بها المنّة، وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليها يد السنّة، وخصوصًا بنات العمّ التي أرشدت قصة البتول –عليها السّلام– إليها، وحَسُنَ أن يُتلى لها بطريق الأولى. (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها) ([2])، فإنّ بنات العم أجدى بالصحبة وأجدر، وأوفى بالمودّة وأوفر، وأصبى إلى العهد وأصبر، ولا سيّما من حازت كرم (المفاخر، وأوتيت طيب) الأوائل والأواخر، وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر، وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر، ومن إذا قال بعلها: كان جدّي، قالت: وجدّي، وإن ذكر مبتدأ صالحًا قالت: الخبر عندي، وإن عُدَّت آباؤه الأعيان فهم آباؤها، وإن طاب ثناؤها بسلفه فهو ثناؤها، ومن إذا حَسُنَ بالعكس والطرد الابتهاج، جاءت لأهلها تحت أهلّة التاج، فلل [درّ هذا العقد الذي جدّد قربى القرابتين، فلئن شابهت العقود بهجة الورد كان هذا هو النّصيبي من الجهتين، فلا غرو أن تقول له الغواني الغوالي: أرخص طيبك أيها العقد طيبي، وتناديه المعالي لقد سررتني وكيف لا وأنت من الجهتين نصيبي، ولقد

([1])هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، زين الدين ابن الوردي المعروف ولد في حلب سنة 691هـ،وتوفي في معرّة النعمان سنة 749هـ،وهو فقيه وأديب وشاعر،وهوصاحب كتاب"تاريخ ابن الوردي"انظر: الزركلي،الأعلام67/5.

([2]) سورة الروم 20.

أشرف نور هذا القرآن السّعيد وأشرق، وأعرب لسان حال قلمه فكان أفصح من لسان المقال وأنطق، وكاتب التوفيق لما خار الله تعالى ووفّق، بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أصدق) ([1])

([1]) ابن الوردي،ديوان ابن الوردي107–108.

خطبة خليل بن كيكلدي صلاح الدّين الدمشقي(694-761هـ)(1)

خطبة أنشأها لدرس الحديث بحلقة صاحب حمص وهي قوله:

(الحمد لله الذي رفع متن العلماء وجعل لهم من لدنه سندا، وأبقى حديثهم الحسن على الإملاء أبدا، وأمدّهم بمتابعات كرمه المشهور بوصل ما كان مقطوعا، وأعزّ من كان مفردا وحمى ضعيف قلوبهم من الاضطراب حتى غدت ثابتة الأفكار، وعدّد موازين نظرهم حين رجحت بفضلهم المبين بشواهد الاعتبار، وأنجز لهم من صادق وعده علوّ قدرهم المرفوع، وأطاب بألسنة الأقلام وأفواه المحابر مشافهة ثنائهم المسموع، وجعل شرفهم موقوفا عليهم وشرف من عداهم من جملة الموضوع، أحمده على حديث نعمة الحسن المتصل المسلسل، وتواتر مننه التي يرفع بها تدليس كل أمر مُعضل، ومزيد كرمه الذي عمّ المختلف والمؤتلف فلا ينقطع ولا يوقف على أن يطل، وأشهد أن لا إله ألا الله وحده لا شريك له شهادة اتّخذها لسعي الخير منهجا، وآنس بها يوم أمسى في جانب اللحد غريبا، وفي طيّ الأكفان مُدرجا، وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله أنصح من جاء عن ربّه مرسلا، وأفصح من خاطب بوحيه حتى أمسى جانب الشّرك متروكا مهملا، الّذي رمى قلوب الأعداء وخشومهم بالتجريح، وطاعن بالعوالي حتى استقام وقوي متن الدّين الصّحيح. صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وأصحابه الذين أبادوا المنكر، وأربى على المتّفق والمختلف سنا مجدهم الأكبر، صلاة معتبرة الإفراد دالّة على أنّهم في فضل الدنيا والآخرة نعم السّادة الأفراد) (2).

---

(1)خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقيّ، أبو سعيد، صلاح الدين: محدث، فاضل، بحاث. ولد وتعلم في دمشق، ورحل رحلة طويلة. ثم أقام في القدس مدرسا في الصلاحية سنة 731 هـ فتوفي فيها. انظر:الزركلي،الأعلام321/2.

(2)النعيمي،الدّارس48/1.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الكتب:

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الجزري(1963م). **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**.(ب.ط)، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ومكتبة المثنّى، تح: عبد القادر طليمات.

ابن الأثير، الجزري (1997).**الكامل في التاريخ**. ط1، بيروت: دار الكتاب العربي ، تح: عمر عبد السلام تدمري.

ابن الأثير، ضياء الدِّين(د.ت). **المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر**.(د.ط)، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنّشر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة.

ابن الأزرق، محمد بن علي(ب.ت).**بدائع السّلك في طبائع الملك.ط1**، العراق : وزارة الإعلام، تح: علي النّشّار.

ابن الصابوني، محمد بن محمود(د.ت).**تكملة إكمال الكمال في الأنساب والأسماء والألقاب**.(د.ط)، بيروت: دار الكتب العلميّة.

ابن العديم، كمال الدّين عمر بن أحمد (1996م).**زبدة الحلب في تاريخ حلب**.ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد(د.ت). **بغية الطلب في تاريخ حلب**.(د.ط)، دمشق: دار الفكر.

ابن القلانسي، حمزة بن أسد التميمي(1983). **تاريخ دمشق**. ط1، دمشق : دار حسان ، تح: سهيل زكار.

ابن الوردي، عمر بن المظفّر(1968م).**ديوان ابن الوردي**.(د.ط)، الكويت: دار القلم، تح:أحمد فوزي الهيب.

ابن الوردي، عمر بن المظفر(1996م). **تاريخ ابن الوردي**. ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة.

ابن إياس، محمّد بن أحمد (1960م). **بدائع الزهور في وقائع الدهور**.(د.ط)، القاهرة: مطابع الشعب.

ابن بطوطة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم(1997م).**تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.

ابن تيميّة، تقي الدين أبو العبّاس(1995هـ).**مجموع الفتاوى**.(د.ط)،المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي (د.ت). **رحلة ابن جبير**. ط1، بيروت : دار بيروت.

ابن حُجّة الحموي، تقي الدّين أبو بكر(2004م). **خزانة الأدب وغاية الأرب**.الطبعة الأخيرة، بيروت: دار ومكتبة الهلال، تح: عصام شقيو.

ابن حجرالعسقلاني، أحمد بن علي (1972م). **الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**.ط2، الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، تح: محمد ضان.

ابن خلدون، عبد الرحمن(1988م). **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**.ط2، بيروت : دار الفكر، تح: خليل شحادة.

ابن خلكان، أبو العبّاس شمس الدّين(د.ت). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**.(د.ط)بيروت: دار صادر.

ابن دقماق، صارم الدّين إبراهيم(1999هـ). **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**.ط1، بيروت: المكتبة العصرية.

ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد(د.ت).**تلخيص الخطابة**. بيروت: دار القلم،، تح: عبد الرحمن بدوي

ابن شداد، يوسف بن رافع بن تميم (1994هـ). **النوادر السّلطانيّة والمحاسن اليوسفية**.ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي.

ابن طباطبا العلوي، **محمد بن أحمد**(د.ت).**عيار الشِّعر**.(د.ط)، القاهرة : مكتبة الخانجي.

ابن فارس، أحمد بن زكريا(1979م). **مقاييس اللغة**.(د.ط)، دار الفكر، تح: عبد السلام محمد هارون.

ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر(1987م).**طبقات الشافعية**.ط1،بيروت : عالم الكتب، تح: عبد العليم خان.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل(1997هــ). **البداية والنهاية**.ط1، (ب.م): دارهجر للطباعة والنّشر، تح: عبد الله التركي.

ابن كثير،أبو الفداء إسماعيل(1998هــ). **جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن**.ط2، لبنان: دار خضر للطباعة والنشر.

ابن مفلح، إبراهيم بن محمد(1990هــ).**المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**.ط1،الرياض: مكتبة الرشد، تح:عبد الرحمن العثيمين.

ابن منظور، محمد بن مكرم(1993م).**لسان العرب**. ط3، بيروت: دار صادر.

ابن منقذ، أسامة بن مرشد (ب.ت).**الاعتبار**.(ب.ط).مصر، مكتبة الثقافة الدينية،تح: فيليب حتى.

ابن ناصر الدِّين، محمّد بن عبد الله(1973م).**الرد الوافر**.ط1،بيروت:المكتب الإسلامي، تح:زهير الشاويش.

ابن واصل،محمد بن سالم (2004م). **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**.ط1، بيروت: المكتبة العصريّة.

ابن وهب الكاتب،اسحق بن سليمان(1969م).**البرهان في وجوه البيان**.ط1،القاهرة:مكتبة الشباب، تح: حفني شرف.

أبو تمام، حبيب بن أوس الطّائي(1969م).**ديوان أبي تمام**.ط3،القاهرة: دار المعارف،تح:محمد عبده عزام.

أبو الفداء،عماد الدين إسماعيل (ب.ت). **المختصر في أخبار البشر**. ط1، مصر: المطبعة الحسينية المصرية.

أبو زهرة، محمد (1980).**الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب**.، ط 2،**(د.م)**: دار الفكر العربي.

أبو زيد، سامي يوسف(2012).**أدب الدول المتتابعة الزنكية والأيوبية والمماليك**. ط1، عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

أبوشامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل(2002هــ). **الروضتين في أخبار الدّولتين النوريّة والصّلاحيّة**.ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

الأبيوردي، محمد بن أحمد (1975). **ديوان الأبيوردي**. دمشق: مطبعة زيد بن ثابت.

الإسكندريّ، ابن عطاء الله(1985م).**حكم ابن عطاء الله**.(د.ط)، القاهرة: مؤسّسة دار الشّعب،تح:عبد الحليم محمود،شرح: الشيخ أحمد زروق.

الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن (1985هـ) .**الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النّحوية من الفروع الفقهية**.ط1،عمان: دار عمار، تح : محمد حسن عواد.

الأصفهاني، عماد الدين محمد (1990م). **تاريخ دولة** آل سلجوق.ط1، مصر :شركة طبع الكتب العربية.

الأصفهاني، ابو القاسم حسين(1992م). **المفردات في غريب القرآن**.(ط1).دمشق، بيروت:دار القلم، تح: صفوان عدنان الداودي.

الباشا، عمر موسى (1972م). **الأدب في بلاد الشام**. ط2، دمشق: المكتبة العباسية.

البخاري، محمد بن إسماعيل(2001م).**صحيح البخاري**.ط1،(د.م) دار طوق النّجاة، تح: محمد زهير.

بدوي، أحمد (د.ت). **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**. ط 2، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

بدوي،أحمد (د.ت).**الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**. القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر.

بردي، يوسف ابن تغرى(د.ت). **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**. (ب.ط)، مصر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب.

بروكلمان، كارل (1968م).**تاريخ الشعوب الإسلامية**.ط5، بيروت: دار العلم للملايين. تر: نبيه فارس، منير البعلبكي.

ابن الحسن، زين الدين بن عبد الرحمن الحنبلي(2005هـ). **ذيل طبقات الحنابلة**.ط1، الرياض: مكتبة العبيكان.

البنداري،الفتح بن علي(1979هـ). **سنا البرق الشامي**.(ب.ط)، مصر : مكتبة الخانجي.

البواعنة، لؤي(2006م). **دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي**.(ب ط)، عمان: دار اليازوري العلميّة.

بورلو،جوزيف(2001م). **الحضارة الإسلامية**. دمشق: دار الكتاب العربي، تر: ريمة الفوال

ابن العماد، عبد الحي الحنبلي(1986م).**شذرات الذهب**.ط1، دمشق: دار ابن كثير.

الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر(1926م).**البيان والتبيين**. ط1، مصر: المكتبة التجارية، تح:حسن السندوبي.

جبران، نعمان.(2011). **دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك**. **الطبعة العربية**، عمان: دار اليازوري.

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن(د.ت).**تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**.(د.ط)،بيروت: دار الجيل.

الجرجاني، علي بن محمّد(د.ت).**معجم التعريفات**.(د.ط) القاهرة : دار الفضيلة، تح: محمد صدِّيق المنشاوي.

الجميري، محمد بن عبد المنعم (1980). **الروض المعطار في خبر الأقطار**. ط2، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة.

الجزري،ابن الأثير(د.ت). **جامع الأصول في أحاديث الرسول**.ط1،سوريا: مكتبةالحلواني.

الجوهري، إسماعيل بن حماد(1987م).**الصحاح تاج اللغه وصحاح العربية**.(ط4).بيروت:دار العلم للملاين. تح:أحمد عبد الغفور.

حتى، فيليب (1983م). **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**. تر: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة

حسن، صفوان طه (2010م). **تاريخ الأيوبيين والمماليك**. ط1، عمان: دار الفكر.

الحلبي،شهاب الدّين محمود(1880م).**حسن التوسل إلى صناعة الترسُّل**.(د.ط)،مصر:المطبعة الوهبيّة.

حمادة، محمد ماهر (1982م). **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي**. ط2، بيروت :مؤسسة الرسالة.

حمزة، عبد اللطيف (1949). **أدب الحروب الصليبية**. ط 2، مصر: دار الفكر العربي.

حمزة، عبد اللطيف (2000م). **الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية**.(ب. ط)، (ب. م): الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الحمويّ،شهاب الدّين أبو عبد الله(1995م). **معجم البلدان**. ط2، بيروت: دار صادر.

الحموي،،شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت (1999م). "**مُعجم الأُدباء**.ط1، بيروت : مؤسسة المعارف "تح: عمر فاروق الطباع .

الحنبلي،أحمد بن إبراهيم(1996م). **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**.(د.ط)، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينيّة، تح: مديحة الشرقاوي.

الحنبلي، مجير الدين(199هــ). **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**(.ب.ط)، عمان: مكتبة دنديس، ، تح: عدنان يونس نباتة.

الحوفي، أحمد محمد(د.ت).**فنّ الخطابة**. ط4،مصر : دار النهضة.

خليفة، حاجي(د.ت). **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**.(د.ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

دهمان، محمد أحمد(1990م) **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**. ط1،دمشق: دار الفكر.

الدواداري، عبد الله بن أيبك(1960م).**كنز الدّرر وجامع الغرر"الفاخر في سيرة الملك النّاصر**".(د.ط)،القاهرة، تح: هانس روبرت.

ديورانت، ول(1950 م).**قصة الحضارة**.(د.ط)بيروت وتونس :لجنة التأليف والترجمة والنشر، ترجمة: محمد بدران.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله (1998هــ).**تذكرة الحفاظ**.ط1، لبنان: دار الكتتب العلمية، تح: عبد الرحمن العثيمين.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله.(2003م) **تاريخ الإسلام** ط1، بيروت : دار الغرب الإسلامي، تح بشار عواد معروف.

الذّهبيّ، شمس الدّين أبو عبد الله(2006م).**سير أعلام النبلاء**.(د.ط)،القاهرة:دار الحديث.

الذهبي،شمس الدين أبو عبد الله(د.ت).**العبر في خبر من غبر**.(د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

الرازي، محمد بن أبي بكر(1995م).**مختار الصحاح**.(د.ط).بيروت:مكتبة لبنان، تح: محمود خاطر.

الراغب الأصفهاني، ابو القاسم الحسين بن محمد(2000هــ). **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء** والبلغاء.ط1، بيروت: شركة دار الأرقم.

الزَّبيدي، محمد بن عبد الرزاق(د.ت) **تاج العروس من جواهر القاموس**.(د.ط).دار الهداية، تح:مجموعة من المحقيقين.

الزركشي، أحمد بن بهادر(1996هـ).اللآلئ **المنثورة في الأحاديث المشهورة**.ط1، بيروت :المكتب الإسلامي،. تح: محمد الصباغ.

الزركلي، خير الدِّين بن محمود(2002).**الأعلام**.ط15،(د.م): دار العلم للملايين.

الزيدي، مفيد (2009). **موسوعة التاريخ الإسلامي / العصر المملوكي**. الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع.

الساريسي، عمر (2003). **نصوص من الأدب الإسلامي في عصر الحروب الصلبية** . ط 2،عالم الكتب الحديث، الأردن.

السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي.**طبقات الشافعية الكبرى**.ط2، مصر :هجر للنشر والتوزيع، تح :محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو.

سلام، محمد زغلول(1990م). **الأدب في العصر الأيوبي**.ط3، مصر : منشأة المعارف.

سلام، محمد زغلول(د.ت)**الأدب في العصر المملوكي**.(د.ط) الاسكندرية: منشأة المعارف.

سليم، محمود رزق(1957م). **الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيّين والعصر الحديث**.(د.ط)، مصر: مطابع دار الكتاب العربي.

سليم، محمود رزق(1962م). **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي** ط2، القاهرة: مكتبة الآداب.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر(1967هـ).**حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**.ط1،مصر،دار إحياء الكتب العربيّة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم.

السيوطي،عبد الرحمن(1990م) **الأشباه والنظائر**. ط1،بيروت: دار الكتب العلمية.

الشايب، أحمد(2003م).**الأسلوب**.ط2،القاهرة : مكتبة النهضة المصريّة.

الشوكاني، محمد بن علي(د.ت).**البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**.(د.ط) دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

الصفدي، خليل بن أيبك(2000م). **الوافي بالوفيات**.(ب.ط)، بيروت : **دار إحياء التراث**، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى.

الصفدي،صلاح الدِّين بن أيبك(1998م). **أعيان العصر وأعوان النصر**.ط1، بيروت: دار الفكر المعاصر

الصلابي، علي محمد(2008هـ). **صلاح الدين الأيوبي وجهوده في تحرير بيت المقدس.** ط1، مصر : ألفا للنشر والتوزيع.

ضيف، شوقي(ب.ت).**تاريخ الأدب العربي عصر الدُّول والإمارات**.ط3،دار المعارف، القاهرة.

ضيف، شوقي(1976م).**الفنّ ومذاهبه في النّثر العربيّ**.ب.ط، دار المعرف، مصر.

طاليس، أرسطو (1979م).**الخطابة**(.د.ط)، بيروت، دار القلم، تح: عبد الرحمن بدوي.

طقوش، محمد سهيل (1999هـ).**تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة.** ط1، بيروت: دار النّفائس.

طقوش، محمد حسين (2009). **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام**.ط3، بيروت، لبنان، دار النفائس.

الطنطاوي، علي(1986م).**ذكريات.** ط1، جدّة : دار المنارة.

الطوانسي، محمد عبد المجيد (ب.ت).**دراسات في أدب مصر الإسلامية.** (ب.ط) القاهرة.: إدارة تبادل المطبوعات،المقدمة.

عاشور، فايد حماد(1995م).**الجهاد الإسلاميّ ضدّ الصّليبيّين والمغول في العصر المملوكي**.ط1، لبنان جروس برس.

العبادي، أحمد مختار.(ب ت). **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام.** الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

عبد السلام، عبد العزيز (1986هـ).**كتاب الفتاوى**.ط1،دار المعرفة، بيروت، تح: عبد الفتَّاح أبو غدّة.

عبد الله، محمد حسن (1962). **عز الدين بن عبد السلام بائع الملوك**.(د.ط) القاهرة: مكتبة وهبة.

عبد مهدي، عبد الجليل حسن(1980م).**الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي.** ط1، عمان :مكتبة الأقصى.

عبد المهدي، عبد الجليل حسن(1981م).**المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي.** ط1،عمان : مكتبة الأقصى.

عبد المهدي، عبد الجليل(1988). **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية.** عمان: دار البشير للنشر.

العريني، السيد.(د.ت) **الشرق الأدنى في العصور الوسطى (1) الأيوبيين**.(د.ط)، بيروت: دار النهضة.

العسكري، أبوهلال الحسن بن عبد الله(1986م).**الصناعتين الكتابة والشعر**.(ب.ط)، بيروت:المكتبة العصرية، تح:علي محمد البجاوي، أبو الفضل إبراهيم.

عطيّة الله، أحمد (1966هـ).**القاموس الإسلامي**.ط1،القاهرة : مكتبة النهضة المصرية.

علي، محمد كرد(د.ت). **خطط الشام**.ط2، دمشق: مكتبة النوري.

العمري،أحمد بن يحيى (1988م). **التعريف بالمصطلح الشريف**. ط1، بيروت : دار الكتب العلمية، تح: محمد حسين شمس الدين.

غوانمة، يوسف حسين(1982هـ). **إمارة الكرك الأيوبية**.ط2،عمان : دار الفكر للنشر والتوزيع.

ابن الفوطي،كمال الدين أبو الفضل(1932م). **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**.(د.ط)، بغداد: المكتبةالعربيّة.

الفيومي، أحمد بن محمد(د.ت).**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**.(د.ط)، بيروت :المكتبة العلمية.

قاسم، قاسم عبده (1998م).**عصر سلاطين المماليك**. ط1،القاهرة:عين للدراسات الاجتماعية والإنسانية.

قاسم، قاسم علي وعلي، علي السيد (ب.ت). **الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري**. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

القزويني، جلال الدين محمّد(1998م).**الإيضاح**، ط4، بيروت:دار إحياء العلوم.

القلقشندي، أبو العباس أحمد (د.ت). **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. (د.ط) بيروت: دار الكتب العلميّة.

الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير(1982م). **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**. ط2، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، تح: إحسان عباس.

الكتبي، محمد بن شاكر(1973م) .**فوات الوفيات**.ط1، بيروت : دار صادر، تح: إحسان عباس.

اللّجمي، أديب وآخرون(1995). **معجم اللغة العربية**. عالم المعرفة، بيروت.

ماجد، عبد المنعم(1982م). **نظام دولة سلاطين المماليك**، .ط2،القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية.

ماجد، عبد المنعم (1997). **الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية.** ط2، القاهرة: دار الفكر العربي.

مصطفى، محمود (1967م). **الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي.** (د ط) ،(د.م)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

المعجم العسكري المملوكي. العمايرة، محمد سالم(2011م).**المعجم العسكري المملوكي.**ط1،عمان: كنوز المعرفة.

المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر(1997هـ). **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.** ط1، بيروت : دار الكتب العلميّة.

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي(1997م).**السلوك لمعرفة دول الملوك.** ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، تح:محمد عبد القادر عطا.

المنصوري، بيبرس(1993). **مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ.**ط1، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان.

مهدي،شفيق.(2008).**مماليك مصر والشام.**ط1، بيروت:الدار العربية للموسوعات.

مؤلّفات العماد الكاتب نحو: الأصبهاني، عماد الدين الكاتب(2004هـ).**الفتح القسي في الفتح القدسي.**ط1، مصر: دار المنار.

النعيمي، عبد القادر بن محمد، (1990م).**الدارس في تاريخ المدارس.** ط1، بيروت : دار الكتب العلمية، تح: إبراهيم شمس الدين.

النهار، عمار محمد(2007م). **العصر المفترى عليه: عصر المماليك البحرية.** (دراسة فكرية)،ط1، دمشق: دار النهضة.

النويري، شهاب الدين أحمد(2004م). **نهاية الأرب في فنون الأدب.**ط1،دار االكتب العلمية، بيروت،تح:مفيد قمحية.

النيسابوري،مسلم ابن حجاج(د.ت). **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.**(د.ط)،بيروت:دار إحياء التّراث العربيّ، تح:محمّد فؤاد عبد الباقي.

وهبة، مصطفى (1997). **موجز تاريخ الحروب الصليبية.** ط1، المنصورة، مصر: مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع.

اليافعي، عفيف الدين عبد الله(1997هـ). **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان**.ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

اليونيني، قطب الدين موسى(1992م).**ذيل مرآة الزمان**.ط2، القاهرة : دار الكتاب الإسلامي.

رسائل الماجستير والدكتوراه

بني خالد، عادل (2002).**الخطابة العربية في العصر الأموي دراسة نصية أسلوبية**. (رسالة ماجستير)، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

البيسومي، أحمد بن حسين(2006م).**الحياة العلميّة في العصرين الأتابكي والأيّوبيّ**.(أطروحة دكتوراة)،جامعة دمشق، دمشق، سوريا.

الحريري، سلطان عبد الرؤوف(2000هـ).**أدب الرسائل في العصر الأيُّوبيّ القاضي الفاضل نموذجا**.(رسالة دكتوراة)، جامعة دمشق، دمشق، سوريا.

زايد، مصطفى محمود(1993).**النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام**.(أطروحة دكتوراة)،الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

السالم، عبد الله (1993).**النثر الفني في مصر وبلاد الشام في القرن السادس الهجري**. (رسالة ماجستير)، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

العطاري، جلال يوسف (1995هـ).**النثر الفني في العصر المملوكي الأول**.(رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنية، عمان ، الأردن.

العلي،فريال عبد الرّحمن(1995م).**فنّ الخطابة في العصر الأمويّ**.(رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنيّة،عمّان، الأردن.

المحاسنة، عبير (2002).**موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في العصر الأيوبي**. (رسالة ماجستير)، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

المري، عبد الله (2012).**الخطابة عند الفاروق دراسة أسلوبية**. (رسالة ماجستير)، جامعة الشرق الأوسط، عمان، الأردن.

الهدروسي، سالم مرعي(1981م).**حركة الخطابة في قبيلة بني تميم حتى نهاية العصر الأمويّ**.(رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنيّة، عمّان، الأردنّ.

المجلات والدوريات

أبو علي، نبيل(2007م). **المعطى الدلالي لشعر المديح وطابعه الديني في عصر سلاطين المماليك والعثمانيين**.غزة: مجلةالجامعة الإسلامية، سلسة الدراسات الإنسانية،مجلد 15،عدد2.

عبد المهدي، عبد الجليل (1989).**ابن زكي وخطبته القدسية**.عمان:مجلة مجمع اللغة العربيةالأردني، السنة الثالثة عشرة، العدد 36.

النهار، عمار محمد (2012م). **الدراسات النظرية الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية**. مجلة دراسات تاريخية، عدد 17+18 (حزيران – كانون الثاني).

المواقع الالكترونية

مادة الأدب بين قرنين(بحث)، صديقة الرحيلي :online available
https://www.google.jo/?gfe_rd=cr&ei=4MhFU5eTPJCrjweazoH4CQ#q

http://daharchives.alhayat.com/issue_archive/Hayat حيث يعنى الباحث محمد الشتاوي بجمع أول سلسلة تضم المفاخرات التي ألفت في العصر المملوكي والعصر العثماني.

http://www.dd-sunnah.net/forum/showthread.php?t=153040
شبكة الدّفاع عن السنّة

http://www.alukah.net/fatawa_counsels/0/14458/#ixzz3UMA2kCZK

حمدان، عبد الرحيم. الخطابة الدّينية في الأندلس الخطابة الزهديّة أنموذجا
http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=34941